وجدي الكومي

خنادق العذراوات



رواية

دار الساقي


خنادق العذراوات

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

وجدي الكوني

خنادق العذراوات



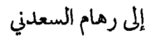
الطبعة الأولى، 2013

ISBN 978-6-14425-736-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi



إلى رهام السعدني

"مروان أبو الحبال" كل عام وأنتم بخير، هذه هي السطور التي حملتها بطاقته البيضاء التي وجدتها هذا الصباح على مكتبي، هذا الصباح، وكل صباح منذ السنوات الأولى التى أعقبت عودتي من البعثة، والتي ترقيت خلالها بقسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة القاهرة. منذ كنت مدرّساً مساعداً بالقسم وأنا أتلقى بطاقاته، وقتها حملت تهنئة بترقيتي مدرّساً مساعداً، وأسفلها اسمه "مروان أبو الحبال". بعدها تلقيت منه بطاقة أخرى، في رمضان: "رمضان كريم، مروان أبو الحبال"، وأخرى في العيد: "عيد فطر سعيد، مروان أبو الحبال". اللعنة! من هذا الملعون؟ سألت عنه الفرّاشين، زملائي، أساتذتي في القسم، لا أحد يعرفه. تستمر بطاقاته في ولوج مكتبي بمناسبة أو بدون، وكل مرة جملة مقتضبة: "ألف مبروك ترقيتكم إلى وظيفة مدرّس، مروان أبو الحبال"، "ألف مبروك ترقيتكم إلى وظيفة أستاذ مساعد، مروان أبو الحبال"، "ألف مبروك ترقيتكم إلى وظيفة أستاذ، مروان أبو الحبال". كانت البطاقات تأتي دائماً مع ترقياتي أو مع مناسبات خلال العام. ولجت إلى "*Google*" وكتبت اسمه "مروان أبو الحبال". لم أعثر على نتائج مفيدة سوى مروان بن محمد، أحد الخلفاء المسلمين. كتبت فقط "أبو الحبال" ظهرت لي نتائج مضحكة، عائلة اشتهرت بتصنيع الحبال في القرن التاسع عشر، أنواع الحبال، السميك والغليظ والمفتول والمجدول. لم أكن أعرف أن الحبال أنواع، لكنّ هذا لم يمنع بطاقات مروان أبو الحبال من غزو مكتبي.

١

إنها تتلصص على "اللاب توب"... اكتشفت ذلك بعدما عدت ذات يوم من الخارج ووجدت ملفات "وورد" مفتوحة في Recent Items. ظنّت أن بمقدورها أن تفتح اللاب توب وتتلصص وتفعل ما تشاء، ولن أكتشف الأمر. واجهتها فأنكرت. قلت لها فجر أمس، قبل أن يخلد كلانا للنوم، إنّ بمقدوري أن أفتح لها جهاز الكمبيوتر وأساعدها في البحث عمّا تريد، لكنها، فيما يبدو، لا تريد أن تكشف لي ما تريده. شيء غريب! قلت لها: "أنا واثق من أنك دخلت إلى جهاز الكمبيوتر". واصلت الإنكار، وقالت: "تهيّؤات، تهيؤاتك لم يعد لها حد، حاول أن تستشير طبيباً". أعطيتها ظهري وحاولت أن أنام، لكنّ الغضب ظلّ يتأجج، خاصةً بعدما ارتفع أذان الفجر، وأدركت أنني سأتأخر عن المحاضرة، وسأواجه تقريع ولوم رئيس القسم كالعادة. أفّ، شيء مقرف ومقزز!...

٢

اليوم كنت عصبيّاً...

لم استطع أن أجد مكاناً لركن سيارتي بسهولة عندما وصلت باحة

الجامعة. حاولت إفساح مكان لسيارتي "الرينو" الطويلة بصعوبة. كان المكان مزدحماً بسيارات أعضاء هيئة التدريس والطلبة الأثرياء. ظللت أحاول جاهداً دفع بعض السيارات ومحاولة إخلاء مكان ما؛ وجدتها فرصة سانحة لإفراغ غضبي وتوتري. ضغطت على زرّ إنزال الزجاج الكهربائي، و"شخطتُ" في السيارات المتوقفة حولي كأنها ستفسح لي مكاناً على أثر غضبي: لن أظل طوال اليوم في انتظارك. مكان سيارتي مسؤوليتك، حتى يوم إجازتي.

أثارت صيحتي انتباه بعض الطلبة القريبين. ظلوا يحملقون في حائرين. اعتادوا غرابة أطواري. تناولت حقيبتي وأبطلت محرّك السيارة وجعلتها مستوية وحررتها من مكابحها. ترجّلت وتركتها متوقفة وسط باحة الجامعة، مثل السيارات المسروقة التي يتركها اللصوص في مناطق متطرفة.

٣

تتعمّد دائماً الإتيان بحركات مريبة أثناء المحاضرة. في البداية لم أكن أظنها أكثر من حركات عصبية، لا إرادية؛ كنت أظنها متاعب عقلية، أو إشارات لكائن مجهول في خيالها؛ كانت إشارات متوحشة. كنت أفقد تركيزي وأشرد نتيجة نظراتها؛ عضّها المستمر على شفتيها الرقيقتين؛ توتر نظرات عينيها وكثرة خفقان أجفانها، كأنها مستثارة أو هائجة. ضبطت نفسي سارحاً، وأقول كلمات لا علاقة لها بالمحاضرة: أخلط العصور ببعضها بعضاً؛ أنسب غزوات لملوك مسالمين، وهزائم لأباطرة

منتصرين. هراء! كنت أغمغم هراءً. كل مرة كنت أسرح خلف نظراتها، وألمحها تختتم إيماءتها وهزات رأسها بضحكات انتصار، كأنها شامتة لنجاحها في الإيقاع بي، بأشعة عينيها، كانت تسخر في داخلها من سقوطي المباغت. نظراتها، مثل عينيها، متوحشة. رموشها طويلة كأنها مقدمات نصال سيوف تتهيأ لأن تمتد باترةً من تطيل التحديق فيه. جسدها ملفوف فائر، وشعرها كان متوهجاً بنيَّ اللون. صدرها كان ناهداً ممتلئاً، تحرص على رفعه بسوتيان محكم على ما أظن؛ لست خبيراً في هذه الأمور.

٤

كان يوماً مرهقاً.

ظللت طوال اليوم أحاول استرجاع نفسي.

كانت ترتدي بلوزة حابكة على ثدييها، تظهر تكورهما، حرصتْ على ترك زرّها العلوي مفتوحاً ليظهر شقّ النهدين كمغارة واسعة تلوح كمدخل للمشتاق إلى النعيم. لم أستطع التركيز على كلمة واحدة ممّا أقول. كان الحر ملهباً للجبين. الشمس، منذ الصباح، لم تترك مكاناً في الجامعة إلا وألهبته بأشعتها. في المحاضرة كان العرق يلتمع على جبينها ورقبتها، والشمس تعكس فتنتها. بدوت مرتبكاً أثناء شرح مؤامرة محمد علي للتخلص من مشايخ الأزهر والمماليك وغيرهم من القوى السياسية، للانفراد بالحكم، على الرغم من أن المشايخ هم من جلبوه إلى مقعد الوالي. ارتبكت. تداخلت عليَّ الخطوط. كانت ترمقني

بنظرتها الشهوانية، العميقة، التي تصوبها عينان سوداوان. كانت نظراتها وإيماءاتها مستمرة؛ تنتقل من صدري إلى أصابعي الممسكة بالأقلام البلاستيكية التى أستخدمها فى الكتابة على سطح "البورد" المعلقة أمامهم. كان الحر له أثره الكبير في نشر السأم والضجر على ملامحهم. أكاد أسمعهم يقولون: البلد والعة وأنت بتتكلم عن محمد علي.

٥

مثل نجم سينمائي انتشرت صورة المرشح الرئاسي "عمر سليمان"، نائب محمد حسني مبارك قبل سقوطه. كانت ملامحه تطلّ على الجميع فى تحدٍّ من أغلفة المجلات الأسبوعية والصحف... المصور والأهرام العربي؛ حوار مع عادل حمودة في جريدة **الفجر** الأسبوعية؛ حوار مع خالد صلاح في صحيفة **اليوم السابع** اليومية على حلقتين. تأملت فرشة الجرائد الواقعة أسفل منزلي. عدت من الجامعة مرهقاً. "شيلة "اللاب توب"، لحمايته من تلصّص زوجتي المستمر، أضافت إلى أعبائي عبئاً جديداً، على الرغم من أنه يظل راقداً طوال اليوم في حقيبة السيارة. ظللت واقفاً، أمام فرشة الجرائد، محتاراً أيّ الصحف أختار لأقرأ تصريحات الرجل. قررت أن أتجاهل الأمر برمته. صعدت إلى البيت. فوجئت بنبأ استبعاده، هو وخيرت الشاطر وأيمن نور وحسام خيرت وممدوح قطب وأشرف بارومة وحازم صلاح أبو إسماعيل وثلاثة آخرين لم أتذكر أسماءهم، من الترشح لرئاسة الجمهورية

لأسباب قانونية تخصّ كلاًّ منهم: أبو أسماعيل تأكّد حصول والدته على الجنسية الأمريكية؛ وسليمان ينقصه ٣١ توكيلاً من محافظة أسيوط، على الرغم من تباهي حملته بسرعة جمع ٦٠ ألف توكيل في ساعات قليلة؛ وأيمن نور والشاطر نظراً إلى أنّ كلاًّ منهما لم يحصل على حكم قضائي يدعم العفو عنهما ويسمح بترشحهما للرئاسة.

٦

كنت لم أزل أتذكرها.

مرقت زوجتي أمامي بعد العشاء، وحاولت أن تحدث صوتاً. كنت شارداً. فتحت شاشة اللاب توب، وظللت أحدق فيها ساهماً. ملامحها كانت تطغى على رأسي. حاولت القراءة فى أحد الكتب. ضبطت نفسي أفكّر فيها، وأقرأ دون أن أعي ما تقوله السطور. لمحت زوجتي تتهيّأ للنوم: أطفأت الأنوار؛ أضاءت لمبة خافتة؛ تعين الأطفال على تحسس طريقهم، فى حالة استيقاظ أحدهم، للتوجه إلى الحمام؛ سمعت أصوات قارورة عطرها بينما تنفث بضع رشّات، ثم لم ألبث أن شممتها، هذا العطر الذى شممته منها فى ليلة الدخلة منذ عشر سنوات، كنّا وقتها معيدين في نفس القسم. كان بمقدورها الاستمرار، خاصةً بعدما تمّ تعيينها معي، لكنني أقنعتها بعد الزواج بالاستقالة، خاصةً بعدما جاءتنى منحة تركيا. وقتها كنّا لا نزال مخطوبين. قامت الدنيا و لم تقعد. لم ترضَ بالاستقالة بسهولة، لكنها استجابت. كنت أعرف كيف أقهرها. لم أهدّدها بفسخ الخطوبة. كنت أعرف أنّ

تفوقها وحبها للكلية، خصوصاً بعدما صارت معيدة، أهم لديها مني. فقط بكيت، بكيت كي أقهرها. لم تستطع مقاومة دموعي. يومها تيقّنت أنّ تضحيتها تستحق. سافرت إلى اسطنبول، واستقالت، وعدت، وتزوجنا، ورويداً رويداً ندمت على الاستقالة.

٧

كانت هناك محاولات عديدة لكسر الجمود الذى أصاب تدريس التاريخ فى أقسام الكليات المختلفة. تلقيت دعوة أستاذي ورئيس القسم، الدكتور رمضان، ذات مساء، لحضور اجتماع في الصباح التالي. كان بديناً، قصير القامة، يشبه كرة من القش، خاصةً عندما يرتدي حلّته المفضلة، المكوَّنة من جاكِت كتّاني يبدو منفوشاً عند منطقة "كرشه" و"البابيون" العتيق الذى ورثه عن والده، وعندما يخلع الكاكيت، تأثراً بعامل الحرارة أو استعداداً لإلقاء محاضرة ما، يظهر قميصه "الكاروه" الغامق اللون وعليه حمّالات قديمة الطراز، كابية. كان عتيقاً: كل ملابسه، طريقته فى التدريس، طريقته فى التدخين، يفضِّل سجائر رخيصة الثمن على الرغم من أن بمقدوره أن يدخِّن سيجاراً. لم أكن أعرف أماكن جيدة تبيع سيجاراً جيداً، فقط "بابيك" بوسط البلد، لكني قررت أن أمر على الأسواق الحرة أثناء عودتي لأشتري سيجاراً وأجرّبه: إنه يعطي إحساساً بالعظمة؛ هذا مؤكّد.

٨

انحنى أستاذي نحوي وقال بملامح منهكة مرتبكة: مراد.. مندهتلكش عشان أتناقش معاك فى الكلية والكلام الفارغ دا؟

انتبهت. حدقت في ملامحه أثناء انحناءه علي وجهي كأنه يحذر أن تتطاير كلمات من حديثنا. كانت تفاصيل وجهه كبيرة وواضحة: أسفل حدقات عينيه شعيرات دموية حمراء محتقنة شديدة الوضوح، وإن لم ألمحها من قبل، لعلّي لم أركز فيها؛ بشرته كانت عجوز متهدّلة، نالتها الكرمشة وعوامل الزمان. ظل محدِّقاً فيّ بعينيه الكبيرتين الواسعتين كما لو كان يتفرّسني. فجأةً تحركت شفتاه قائلاً: "مراد.. انت بتخون مراتك؟".

تراجعت مندهشاً. هل عرف بنظرات الفتاة إلي في المحاضرة؟ لكنها لم ترقَ بعد للمعاكسة؛ هل اشتكت له الفتاة؟ هل التقته؟ هل يراقبني أثناء المحاضرة؟ لكنّ أمري، على ما أظن، ليس مفضوحاً لهذه الدرجة، هذا ما ظننته.

٩

كنت غاضباً، وبينما كنت أقود سيارتي عائداً إلى البيت كنت أضرب "دراكسيون" السيارة في غضب، كما لو كنت أتمنّى مضاعفة سرعة السيارة بالخبطات المتلاحقة من قبضتيّ الممسكتين ب"الدراكسيون". قدمي تعتصر دواسة الوقود، والطرقات الخالية ساعدتني على المراوغة.

كنت أختار الشوارع التي أعرف مسبقاً أنها خالية، لكنني كنت واثقاً من أنّ نقطة بعينها سوف تستوقفني. لم أكن أعرف متى ستأتي هذه النقطة، ربما بعد شارع أو شارعين، كوبري أكتوبر أو الطريق الدائري. كانت أنفاسي المتلاحقة تتكثّف على زجاج السيارة. الشتاء باردٌ قارس، لكنني كنت مختنقاً: الدماء تفور داخلي، جبهتي تتصبّب عرقاً، جلد رقبتي يستثيرني ويشعرني بالحاجة لحكّه. فجأةً برزت في مواجهتي سيارة "تريللا" ضخمة أشبه بالفك المفترس. أطلقت إطارات سيارتي صريراً مخيفاً، بينما أعتصر دواسة الوقود وأحتضن الدراكسيون إلى صدري كما لو كنت أحاول أن أجذبه من "التابلوه" كي أجبر السيارة على التوقف.

١٠

بدأت المشاجرة بدخولي الشقة هائجاً. كنت أسكن في الطابق الثالث من بناية قديمة بالزمالك؛ البناية مواجهة لمول تجاري يسمى "اليمامة سنتر"، أسفلها مكتبة تبيع جرائد ومجلات وكتباً أجنبية وروايات بالعربية. كان يمكن ليوسف الواقف في المكتبة أن يسمع صوت شجارنا بسهولة، خاصةً أن المشاجرة بدأت عقب وصولي فى التاسعة مساء. أفلتُّ بأعجوبة من الحادث الذي كاد يمزج لحمي بصاج السيارة. كلانا، أنا والسيارة، لم نصب بسوء. استطعت فرملتها في اللحظة نفسها التى أدار سائق التريللا مقود سيارته لينحرف بها بعيداً عن مواجهة سيارتي. نجوت بأعجوبة، لأعود سالماً إلى شقتي، لتشتعل

المشاجرة التي قدتُ من أجلها غاضباً، من منزل أستاذي ورئيسي في القسم، في المقطم، حتى الزمالك حيث أسكن. لم تكن زوابع غضبي قد هدأت؛ كنت أشعر بحنقٍ شديد. واجهني أستاذي بمكالمة زوجتي له. هاتفته لتفضحني. طلبت منه أن يخبرها إن كنت تعلّقت بإحدى زميلاتي في الكلية، أو إحدى الطالبات. قال لها بسلامة نية إنه لا يعرف شيئاً عمّا تتحدث. كان ما أغضبني هو أنني اعتبرت فعلتها فضيحة. لم أكن أحب أن يعرف مخلوق شيئاً عني، وبالذات رمضان.

١١

سألتها في حنق: كلّمتي الدكتور رمضان ليه؟

رفعت حاجبيها، بينما تتحدث مغتاظة: وهكلم أي حد يقول لي سرك، لازم أعرف أنت مخبّي عني إيه.

قلت فى ضيق: انتي مجنونة، هخبي عليكي إيه.

قالت وهي تحرك حاجبيها أسفل نظارتها الطبية الصغيرة: دا اللي اتصلت بأستاذك في القسم عشان أعرفه، وهعرفه يا مراد، حتى لو هجيلك الجامعة، لازم اعرف إيه سر قفلة اللاب توب بالباسوورد، لما الراجل يغير عاداته يبقى بيعرف واحدة على مراته.

قلت محتدّاً: انتي مش بس فاقدة الثقة فيا، انتي كمان خيالك جامح.

قالت فى إصرار حانق: هطاوع خيالي لحد ما يهدأ بالي، انت ياحبيبي مش واخد بالك من نفسك؟ كل يوم متشيّك، ولا كأنك

رايح جامعة، عشر رشات أو خمستاشر رشة برفان، لحد ما هدومك تتبل، ولما ترجع بالليل تشخر زي الفيل، وتتقلب على السرير، وانت بتحضن المخدة، كأنها واحدة ست فى أحضانك، أبقى عبيطة لو سكت على أحوالك دي، وتبقى عبيط لو فاكرني مش داريانة بيك.

١٢

لم أكن أدري أن أحوالي قد تغيرت بهذا الشكل كما قالت زوجتي. نعم كنت أتعمد الإكثار من رشّ العطور على ملابسي، كأنني سأحتضن كل نساء العالم، بل حرصت مرة على التوقف أمام محل العطور الشهير "Body" فى المهندسين، قبل توجهي إلى الجامعة، وابتعت زجاجتي "دانهيل"، وكدت أسكب إحداهما على ملابسي قبل مغادرة المحل، بينما نظرات البائعة الدهشة تتفرسني في استغراب. في المساء كنت أنتهي من تناول وجبة العشاء، دون التحدث مع أطفالي بكلمة واحدة، دائم الشرود، على الرغم من كلمات زوجتي التي تظل تتواصل بلا توقف، تسألني عن أحوالي، أخبار المحاضرات، مظاهرات الجامعة، انتخابات اتحادات الطلاب التي ترفضها القوى الثورية ويحرص عليها طلاب جماعة الإخوان المسلمين، لقطف آخر حبات التوت من الشجرة. كنت أجيبها إجابات مقتضبة. أسرح كثيراً أثناء تناول الطعام، ترتفع من ناحيتي صوت ملعقتي الرتيب بينما يخبط الطبق ليتناول حبات المكرونة أو قطع اللحم أو مكعّبات السلاطة. ملامحها كانت مرتسمة أمامي في طبق الطعام. عضّاتها على شفتيها كانت

ترتسم لي، مهيجةً جوارحي وأعضائي. نظرات عينيها المحدقة دائماً في هيئتي كانت تطاردني مهما كنت أقاومها، بالتركيز على قراءة كتاب أو مراجعة بحث ما أو التحضير لمحاضرة الغد.

١٣

كانت تستخدم الجنس خير استخدام: تقصف به دفاعاتي وتهدم به حصوني أفضل من أيّ سكين تستطيع أن تشهره زوجة في وجه زوجها. لم تكن تتمنّع عليّ، بل بالعكس، أحياناً كنت أُقبل على مضاجعتها، هنا كانت تدير المواجهات بيني وبينها أفضل كثيراً من الشجار المعتاد، كنت أعلوها وأفرد ذراعيها، معتصراً ثدييها، وأباعد بين ساقيها، مخترقاً فرجها بعزم غازٍ تتري، لكنها مع ذلك كانت تنتصر في المعركة؛ كانت تطفئ كل حواسها، مثل ماكينات أصابها العطب المباغت. أظلّ أتأرجح وأثب، وأقلبها يمنةً ويسرة، وأعتصرها، وأضغط عظامها، وأسارع من الضربات التى أوجِّهها إلى جسدها كالمطارق، لكنها تسيطر على كل شيء: جميع حواسها مطفأة مثل ماكينات عطبة؛ تظلّ تراقب محاولاتي وعلى شفتيها شبح ابتسامة ساخرة؛ تمعن في إغلاق جفنيها لتتمكن من إتمام السيطرة وإخضاعي - هكذا كانت زوجتي تنتقم مني. فجأةً أنهار بينما هي متماسكة، صلبة. لم تستطع ضرباتي المتلاحقة، أو اعتصاراتي، أن تُخضعها أو تصيبها بالرعشة. تنظر إلي نظرةً ساخرة وتعطيني ظهرها.

١٤

كأنها تقول لي: لن أمنحك متعة إمتاعي؛ لن أصرخ في أذنيك كما ترغب طالما أنك لم تفتح لي أسرارك، طالما لم تسمح لي بالولوج داخلك؛ لن أدعك تلج داخلي. كنت أستلقي بجوارها نصف عارٍ، عضوي يتدلّى على فخذي، بعدما انكمش جلده وتجلّط منيه على لحمه. كانت قد أولتني ظهرها، مستلقيةً على جانبها الأيسر، وقد جذبت "اللحاف" لتستر جسدها عن نظراتي. ظللت أرمقها حانقاً مغتاظاً. نهضت من على الفراش. تحرّكت تجاه علبة سجائري، ثم تراجعت. كنت أدخن سيجارة واحدة عقب كل مضاجعة ناجحة، منتشياً برجولتي، أراقب أدخنة الدخان وهي تتراقص ابتهاجاً في الهواء بصرخات زوجتي. عمليّاً، لا يستمتع أيٌّ منّا بسجائره إلا إذا داعب دخانه بأصابعه وخاطب أشباحه. كان الدخان يتحول إلى عدة أشخاص، بعضها يراقص بعضها الآخر، وبعضها يمارس الجنس، في سعادة وانتشاء.

١٥

كنت أنكح يدي في الليالي التي نتشاجر فيها وتوليني ظهرها وتضع بين جسدينا وسادة بطول السرير. أقضي الليل أمام أفلام بورنو حديثة التصوير والإنتاج بتقنية "HD" ("هاي روزليوشن" و"هاي كواليتي")؛ أفلام كنت أطلبها من أصدقائي العائدين حديثاً من

البعثات، حيث كانوا يحرصون عليها مثلما يحرصون على إتمام البعثة بتقديرات عالية، فهي تؤمن لهم وظائف مرموقة في الجامعة عقب عودتهم إلى جامعتهم التي ابتعثتهم. كنت أعرف أنّ حقائبهم تمتلئ بهذه الأفلام، خاصةً وأنها متداولة هناك في محال الأدوات الجنسية مثلما نتداول هنا أنواع الجبن الرومي والبيضاء والشيدر في محال البقالة. يجلب لي أصدقائي أفلام البورنو على "DVD" سميكة، فأقوم بنسخها على الـ"هارد ديسك" في الـ"لاب توب"، ثم أحطِّمها كي لا تعثر عليها زوجتي في بحثها المحموم خلفي، وأستمتع بمشاهدتها في حجرة مكتبي بعدما أغلقها على نفسي كي لا تفاجئني زوجتي في جولاتها الليلية المباغتة. كنت في البداية أترك الباب مفتوحاً، وأتصوّرها لن تباغتني وتدلف على الحجرة، لكنها كانت تصنع لي مشروبات ساخنة، وتجعلها حجة تتذرع بها لمباغتتي فجأةً بينما أشاهد الأفلام الـ"سكس". كنت أحتقن والدماء تصعد تضرب وجهي وتصبغه بالحمرة من أثر مفاجأة دخولها عليّ الحجرة.

١٦

كنت أخلِّف بقعةً صفراء خلفي...

بقعة صفراء متجلّطة في لباسي الداخلي الأبيض، موضع الاحتكاك. كانت زوجتي تسألني عن سبب وجود هذه البقعة هناك؛ في هذا الموضع، وكنت أجيبها بجمود: احتلام، وأحياناً كنت أتصنّع

اللامبالاة وأفاجئها بجملة أخرى: "ربنا بيعوضني فى أحلامي عن نكرانك وتمنعك المستمر".

كانت تتوقف محدِّقةً فيَّ بشكّ وهي تمسك ملابسي الداخلية، والبقعة الصفراء المتجلطة فى نسيجه تشعُّ بريقاً مستفزّاً، كأنها ستنطق بالحقيقة وتقول: أنا مئات، آلاف، ملايين الحيوانات المنوية التي ضيّعها زوجك بشهوته وغبائه أمس، بينما يشاهد فيلماً إباحيّاً، حتى اسألي كفَّ يده اليمنى، بل اسألي شاشة اللاب توب التي كان يحدِّق فيها مثل المعتوه الأبله. يمكنك أن تسألي أيضاً بنطلون الترنج الذي تأذّى نسيجه من فرق أخرى من الحيوانات المنوية، فرق أنشط وأجدر وأسرع وأخلد، استطاعت أن تنفذ عبر أقطار نسيج الملابس الداخلية إلى نسيج بنطلونه؛ تفحّصي بنطلونه، ستجدين هناك بقعة أخرى - أكاد أسمع ملايين الحيوانات المنوية تتبادل هذه الكلمات مع ذهن زوجتي بينما تمسك ملابسي وتسألني عن سبب هذه البقعة.

١٧

كانت اللافتات الإعلانية الضخمة للفنادق والـ coffees تحيل ليل شارع الهرم إلى نهار...

تألقت صور لسعد الصغير، ومطربين آخرين مغمورين، أعلى كازينو "الليل" و"أندلسية" و"الكورسال"، وألقت اللمبات النيون، المحيطة بإطاراتها، إضاءتها المبهرة على وجوههم مما كساهم

لمعاناً زائفاً أكثر مما هم لامعون فى الحقيقة. كانت سيارتي معلّقة في زحام ثقيل يجثم على صدر أسفلت شارع الهرم، ويتحرك ببطء. أنقلً قدمي اليمنى بين دواستَي الفرامل والبنزين: هذه هي فوائد السيارات الأوتوماتيك. شابّان يستغلان الزحام في توزيع منشورات ضد المجلس العسكري، واستحواذ الإخوان على الجمعية التأسيسية، وترشيح مرشح للجماعة في أول انتخابات رئاسية بعد الثورة، على الرغم من وعد الجماعة السابق أنها لن تدفع بمرشح فى الصراع على السلطة، فإذا بها تدفع بمرشحين تمَّ استبعاد أحدهما وتبقي الآخر مواصلاً الماراثون. كان الهرم الأكبر يتوارى خلف مجموعة من الفنادق، تتراصّ ملتصقةً ببعضها بعضاً. زوجتي صامتة بجواري، وفى الخلف جلس الطفلان. أُحدِّث نفسي: "في أيِّ ناصية من هذه النواصي أركن سيارتي؟". كانت عيناي تبحثان أولاً عن مطعم، "ماكدونالدز" أو "بيتزا هت" أو "مؤمن"، أم نلغي الاختيارات السابقة ونجرّب مطعماً صينياً أو فرنسياً، ثم لم تلبث عيناي أن بدأتا في البحث عن مكان لركن السيارة، بصرف النظر إن كان هذا المكان يواجه مطعماً أو فرن عيش.

١٨

اقتربت وقدمت لي ولزوجتي "منيو" من ورقٍ سميك ولامع، مطبوع طباعة فاخرة. كانت صور البيتزا فيها شهية ومغرية. الفضل كان يرجع للطباعة. اصطدمت يدها بأصابعي بينما كانت تمدّ إلي المنيو. نظرت

إليها: عيناها واسعتان، مزججتان، عنيت برموشهما، وكذلك بوضع أحمر خدود خفيف يكاد لا يكون مرئياً، وصبغت شفتيها بلون قرمزي جعلهما تلمعان. شعرت بتحديق زوجتي فى نظراتي إلى النادلة، فبادرت بالتحديق في المنيو، وكانت تحتوي صورة لبيتزا على حوافها قطع من الكبيبة ومغطاة بدوائر مستديرة من البصل والفلفل الأخضر والمشروم، أعلاها كتب مصمم المنيو "تشيز برجر بيتزا"، وبجوارها بيتزا أخرى تراصّت على حوافها قطع من الدجاج الصفراء، وانتشرت بينها شرائح من السجق والفلفل وصلصلة الباربكيو، وقد حملت هذه اسم "تشيكن فيليه بيتزا". بادرت بالقول: مارجريتا بالخضار لارج، وأخرى نفس الحجم ميلانو بالدجاج حارة، و٢ بيتزا للأطفال، مع لتر بيبسي، وكاتشب وهوت صوص.

كانت تكتب بسرعة. حدَّقتُ في ملامحها الهادئة، على الرغم من مساحيق الألوان التي أضفت عليها جمالاً لا تحتاجه؛ رموشها كانت طويلة، و لم تكن بحاجة للمزيد من المساحيق لإضفاء لمسات جمالية أخرى. رمقتني من بين حركات قلمها، وعادت لتركّز على ما تكتبه. لحظت تحديقي، وكذلك زوجتي. قالت بعدما انتهت من كتابة "الأوردر": نضيف طبق سلطة؟

نظرت إلى زوجتي، كانت دائماً تفضّل اختيار طبق السلطة، تحب "الكلو سلو" و"الحمّص" و"المايونيز" – هذه هي اختياراتها التي لا تتغير. أومأت إلي زوجتي بالإيجاب، فوافقت بقولي: فين ثلاجة السلطات؟

قالت: هجيب لحضرتك الطبق، والسلطات فى الدور الثاني.

١٩

صعدت إلى الطابق الثاني في محل البيتزا...

كنت أمسك الطبق بيد وأبحث بعيني عن النادلة. لم أزل أتذكر نظراتها. شعرت أنها لن تمانع إذا ما تحسست صدرها وقرصت حلمتيها. وقفت أمام ثلاجة السلطات شارداً: أين ذهبت النادلة؟ كنت أراها تصعد السلم أمامي، لكنها اختفت بمجرد وصولي إلى هذا الطابق. كان الطابق يحوي "جاردن" صغيرة للأطفال وحمامين، أحدهما للرجال والآخر للسيدات، وعدة موائد صغيرة يجلس على إحدها عائلتان مع أطفالهما. تقدّمت نحو ثلاجة السلطات، وأمسكت الملعقة، وأخذت في اختيار المايونيز والحمص. فجأةً ظهرت النادلة بجواري تماماً، كأنَّ الأرض انشقت عنها، انحنت على الثلاجة ولامست بصدرها المكوّر ذراعي الممدودة داخل أحد أطباق السلطات، ونظرت إلي مبتسمةً، بينما تتحسس بأصابعها أصابعي الممسكة بالملعقة، قبل أن تنتزعها مني وهي تعضّ شفتيها مثل فتاة المحاضرة. تلفّتُّ حولي لأطمئن إلى أنّ زوجتي لا تقف خلفي، وحانت مني نظرات نحو العائلتين المنهمكتين في تناول البيتزا بكلّ حماس. سارعت أصابعي تتحسس نهدها، كان قماش "اليونيفورم" خشناً، فتسللت أصابعي إلى جلد رقبتها.

٢٠

وضعت النادلة أمامنا الأطباق وصينيتين حوت إحداهما المارجريتا وحوت الثانية الميلانو تشيكن. كنت أشعر بحكّة. تستغرق تسوية البيتزا فى المطاعم قرابة النصف ساعة، في المعتاد، لكنني قبل ذلك الوقت كنت قد انتهيت من مواعدة النادلة في الطابق الثاني من مطعم البيتزا. زوجتي لحظت غيابي لكنها لم تتحرك لتستفسر عن سبب الغياب. تبادلنا أرقام الهواتف المحمولة بسرعة. كنت بحاجة لتحسس ثدييها. رفضت بغنج وهمست فى أذني: ممكن نقعد مع بعض على "رواقة" في العنوان اللي هديهولك.

٢١

فوجئت بكارت آخر من كروت "مروان أبو الحبال" هذا الصباح. جئت إلى الكلية مبكراً على الرغم من عدم وجود محاضرت فى جدولي قبل الثانية بعد الظهر، وجدت البطاقة تنتظرنى على "بوكيه ورد" صغير، وحملت ثلاث كلمات مقتضبة: يارب تكون انبسطت - مروان أبو الحبال.

توقفت مذهولاً، زادت دقات قلبي، شعرت بدوار: ما معنى هذه الكلمات؟ هل لها علاقة بعاملة البيتزا...؟

لم أتوقّع أن أطارد بشغف عاملة البيتزا، وألحّ في طلب رقمها، لمجرد أنها حدجتني بنظرات مغوية، نظرات ذكرتني بنظرات قديمة اعتدتها

أيام الجامعة. كانت ملامحها لاتزال مهيمنة على رأسي، وتختلط بملامح قديمة، بينما تتصاعد أدخنة فنجان القهوة، مداعبةً أنفي.

كنت أجلس فى حجرة أعضاء التدريس بالكلية المخصصة لأساتذة قسم التاريخ، وأرمق بشغف رقم محمول عاملة البيتزا، الراقد فى كتاب **عصر محمد علي** لعبد الرحمن الرافعي، أحد أجزاء موسوعته **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم**، وأحاول في توتر الربط بين رقم تليفونها وكارت مروان أبو الحبال وعبارته القصيرة. تخوّفت الاتصال بالنادلة التي كانت قد أعطتني رقم هاتفها فى ورقة صغيرة من أوراق محل البيتزا، كتبته على عجالة ووضعته فى جيبي. في المساء، انشغلت زوجتي بتغيير ملابس الأطفال وغسل وجوههما وأيديهما من غبار الطريق، فنقلت الورقة الصغيرة التى تحوي العنوان إلى كتاب الرافعي، ووضعت مفاتيح السيارة عليه لأتذكر اصطحابه معي بينما أغادر فى الصباح.

٢٢

كارت مروان أبو الحبال وكلماته "يا رب تكون انبسطت – مروان أبو الحبال"، وكذلك رقم تليفون عاملة البيتزا التي لم تنسَ أن تكتب اسمها، سارة، الورقتان كانتا على سطح مكتبي. أفكّر في ما ينبغي عمله. بالتأكيد سارة على علاقة بهذا المروان أبو الحبال، لكنها لم تختر لي أن أدخل المحل الذى تعمل فيه نادلة، بالعكس، أنا الذي اخترت المحل. أحاول أن أجد رابطاً معقولاً أو منطقياً. بالتأكيد مروان أبو

الحبال لم يكن يتعقبني لهذه الدرجة، ولا أظنه دخل خلفي محل البيتزا، وصعد معي بينما أختار السلطات. لم يكن فى المكان سواي أنا وعاملة البيتزا وعائلتين تتناولان الطعام لم تلحظا وجودي أصلاً. ظللت أحدق في كارت مروان أبو الحبال: خط أنيق واثق من نفسه، حروف محفورة على الكارت وليست مكتوبة بالكمبيوتر مثلاً، لم يكن يحرص على استخدام كمبيوتر أو كروت مطبوعة، بالعكس، كل بطاقاته كانت مكتوبة بخط اليد، كأنه يترك لي شيئاً من الحميمية فى خط يده وحبر حروف كلماته، أما ورقة سارة، التي حوت رقم محمولها واسمها، فكان خطها رديئاً، متعجّلاً. رفعت نظري إلى موضوع المحاضرة التى يجب أن ألقيها على مسمع طلابي فى الثانية ظهراً، من المفترض أن أتناول مخطط محمد علي للإيقاع بالزعامات الشعبية، وضرب شيوخ الأزهر بعضهم ببعض، الشيوخ الدواخلي والمهدي والشرقاوي الذين غاروا من السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وهوّنوا من شأنه ووصفوه بأنه صاحب حرفة عند محمد علي، فيما عمر مكرم في منزله، يرفض دعوات الباشا للقائه والتفاهم على فرض الضرائب الجديدة، "ومع بلوغ الأزمة هذا الحد فإنّ محمد علي باشا لم يفكّر أن يكون العقاب من نوع ما كان مألوفاً فى ذلك العصر، القتل أو السجن، بل اعتزم أن يعزله من نقابة الأشراف، وينفيه إلى دمياط، ليبعده عن القاهرة، حيث له من النفوذ، ما يجعل أهلها رهن إشارة تصدر منه، ورأى بثاقب نظره أن يكون عقاباً متّفقاً مع الأوضاع الشرعية المألوفة، بأن يدعوه إلى الاحتكام فيما شجر بينهما من الخلاف إلى القاضي والشيوخ، وكان مطمئناً من قبل إلى حكمهم".

٢٣

لمحتها تدلف فجأةً إلى الكافتيريا... الفتاة التي تعضّ شفتيها في محاضرتي. قاربت قهوتي على النفاد، بينما تختار لها مقعداً بعيداً عن الشمس، لتفرض هيمنتها على الظلال. اقترب منها شاب يعمل نادلاً بكافتيريا الكليّة. كان من السهل أن أراها بينما ترتب خصلات شعرها وتصلح من هندامها، بعدما جلست. لكن لم يكن في وسعي معرفة ما تطلبه. كنت أخمن أنها تطلب عصيراً أو "كانز". راهنت نفسي على الطلب الأخير. كان قماش بنطلونها الجينز يلمع كما لو كانت اشترته منذ لحظات وارتدته في المحل وجاءت به الجامعة، أما بلوزتها فكما هي، فقط هذه المرة الأولى التى أراها خارج مدرجات المحاضرة، كانت تهتز مع حركتها، خاصةً عندما بادرت بالاسترخاء في مقعدها ورفعت رأسها تتأمل مبنى الكلية. هنا التقت أعيننا، فبادرت بالابتعاد عن النافذة في حركة مكشوفة فضحت بالتأكيد محاولتي التلّصص عليها، بينما ابتعدت بوجهي لمحتُ شبح ابتسامة منتصرة تقفز على شفتيها لرؤيتها إياي.

٢٤

لحظات مضت واقترب منها شاب يرتدي ملابس "روشة" لم أكن أجرؤ على ارتدائها: "تي شيرت" أزرق اللون مكتوب عليها كلمة بالإنجليزية (METAL). لم أكن أعرف معنى الكلمة، ولكنني أرجعتها

لموضة ما أو نوع من الموسيقى. كان الشاب يضع نظارات شمس سميكة تلتهم ربع وجهه وتخفي حاجبيه، وكان صدره ممشوقاً واسعاً، شعرت أن المساحة بين ذراعيه تكفي لاحتواء الفتاة وإخفائها بكل سهولة فى صحراء صدره الممتدة بين الساعدين. كان بنطلونه الجينز، مثل بنطلونها، ضيقاً، مع فارق أن بنطلونه كان منتفخا عند منطقة الحوض، كما لو كان عضوه منتصباً على الدوام، أو ربما انتصب عندما صافحها، خاصةً أنه ظلّ محتفظاً بكفها بين أصابعه لبضع ثوانٍ خمّنت خلالها أنه يدغدغ جلد كفها، وربما يرسل نبضات جنسية موحية، بالضغط على أناملها ضغطات مدروسة. كنت أتأمل المشهد من خلف شيش النافذة، ولم أنتبه إلى مقدم رئيس القسم المباغت الذي دخل الحجرة وناداني أكثر من مرة. فجأةً شعرت بحرارة مباغتة. كان قد اقترب من ظهري، والتصق كرشه بمؤخرتي في تحرّشٍ لزج مقزز. انتفضت فجأةً، وتراجع هو بغتةً، قائلاً في سخرية: عجباكٍ للدرجة دي؟

٢٥

خرجا من الكافتيريا وسارا فى طرقات الجامعة حتى وصلا إلى باب كلية التجارة المطلّ على شارع بين السرايات. اختلطا بزحام طلبة كلية التجارة. نسيت أنّ ورائي محاضرة يجب أن ألقيها فى الثانية. هرعت بمجرد مغادرتهما الكافتيريا، وتركت حجرتي. ظنّ الدكتور رمضان، رئيس القسم، أنني أغادر الحجرة من أجل المحاضرة. كلا،

لم أتّجه مطلقاً نحو قاعة المحاضرات. بعدما فاجأني الدكتور رمضان باغتني بسؤاله: عجباك؟ تهربت من سؤاله متصنّعاً الهدوء، بينما أدفع إطار نظارتي الطبية المنزلقة فوق عظمة أنفي إلى مكانها، كنت أشعر أنه يحاصرني، وأن هناك "لينك" متصل بينه وبين زوجتي تتجسّس من خلاله على تحركاتي، خاصةً أنه يعرفها، وأسف كثيراً على استقالتها من منصب "المعيدة" لتتزوجني. كان يتمنى أن يشرف على رسالتها، وليس رسالتي. كان يشعر أنها من كتبت رسالة الدكتوراه التي نلت بها الدرجة، على الرغم من أنني لم أُبدِ له ما يجعله يشكّ في كوني كاتبها. لا أُنكر أنها ساعدتني، بل هي من كتبها تقريباً، وتولّت عملية البحث كلها. كنت أجلب قائمة الكتب التي تطلبها، وتعينها على كتابة الرسالة. كان الموضوع صعباً، وكنت أنقل إليها ملاحظات الدكتور رمضان.

٢٦

لم يكن الحصول على "الدكتوراه" صعباً...

زوجتي هي من تولّى كل شيء...

كتبت الرسالة وخطّة البحث، وأجرينا معاً أكثر من بروفة على المناقشة. كانت تجلس على مائدة "السفرة" بوصفها المنصة التي سيجلس عليها المناقشون، وتفتح أمامها نسخة من الرسالة التي تجاوز عدد صفحاتها الخمسمائة. كنّا نتدرّب على كل الأسئلة المحتملة التي قد يطرحها المناقشون. أدنى إخفاق يهدد بفضيحة، لذا كان يجب

أن أُلمَّ بكلِّ شيء في الرسالة. لم تكن وفاء تنام تقريباً خلال الأيام التي كنا نذاكر فيها معاً الرسالة. شهران قضيناهما في التدريب، قبل موعد المناقشة المرتقب. يومها ارتدت أزهى ملابسها: "جاكيت" قطيفة على بلوزة من الساتان، على تنورة واسعة فضفاضة. كانت ترفض أن ترتدي ملابس ضيقة كي لا تكشف مفاتنها. لم أكن أغار لكنني كنت أتصنّع الغيرة، وهي كانت تصدّق رغماً عنها. ذهبنا معاً إلى المناقشة. كان أول ظهور لها في قسم التاريخ منذ استقالت. الكثيرون من زملائها القدامى وزملائي الحاليين كانوا يسلّطون أنظارهم عليها. نظرات الحسد كانت في عيونهم لكنني لم أعبأ. كان يجب أن أركّز على المناقشة.

٢٧

أوقفا تاكسياً، واستقلاّه. كنت واقفاً على مسافة منهما. لم أدرِ أين توجّها بالتاكسي. تجاهلت سيارتي المركونة داخل حرم الجامعة، أوقفت تاكسياً، وقررت أن أواصل المطاردة. مرق التاكسي بجوار حديقة الأورمان، ثم واصل طريقه متّجهاً إلى الدقي، وانحرف إلى اليسار، وواصل طريقه إلى كوبري الدقي. كانا يجلسان متجاورين في الكنبة الخلفية، يتبادلان الحديث في حماس. ظللت أراقبهما لأعرف إن كان الشاب يلتصق بها أم لا. صعد التاكسي كوبري الدقي، وهبط بهما في شارع البطل أحمد عبد العزيز، وواصل رحلته فيه حتى بلغ نهايته، حيث يلتقي مع شارع جامعة الدول العربية، لكنه انحرف

بغتةً في أول فتحة "يسار" كما لو كان عائداً مرة أخرى في الاتجاه المعاكس، من حيث أتوا من شارع البطل، ثم توقف التاكسي على يمين الشارع، وترجلا منه، وتمشيا حتى بلغا "كافيه" يسمى "فريندز"، واجهاته زجاجية، وتتخللها "أصص" أشجار، متوسطة الطول، لتحجب الجالسين خلال الزجاج عن المارين فى الشارع. دخلا معاً الكافيه واختفيا عن نظراتي الفضولية. لم أدرِ ماذا يتعيّن عليّ أن أفعل: هل أواصل طريقي وأتظاهر أنني من رواد المكان، وأتجاهلها إذا ما تلاقت أعيننا، أم أظل واقفاً في الخارج، منتظراً مغادرتهما؟

٢٨

لم أدخل الكافيه، و لم أنتظرهما، بل عدت سريعاً إلى البيت. كان المساء مخيّماً على الزمالك. هدوء في المكتبة الواقعة أسفل العقار. نظر البواب متعجّباً إلى مجيئي بدون السيارة، وهو الحريص على حجز مكانها، بجنازير، بين ماسورتي ماء. كان جراج العقار قد تحوّل إلى مخزن منذ سنوات بعيدة. صعدت إلى الشقة. أخرجت المفاتيح. ولجت. رائحة بخور ما تكتنف إضاءتها الخافتة. زوجتي كانت جالسة فى الصالة التي تطلّ شرفتها على الطريق. سألتني بفضول غلّفته بلهجة لا مبالية: فين العربية؟

أجبتها بلامبالاة، بينما أتجه إلى حجرتي لأخلع ملابسي: تركتها في الجامعة. الطريق كان مزدحماً وقررت العودة بدون السيارة.

رائحة الكذب كانت تفوح من كلماتي. هربت من الرائحة

بدخول الحمام. خلعت ملابسي ووقفت عارياً تحت "الدوش"، بينما الماء الساخن يدغدغ جسدي. كنت أتحسّس عضوي، وأتذكّر الفتاة. قررت في الصباح أن أبحث عنها، أو أن "أزنقها".

٢٩

كنت طالباً بكلية الآداب، قسم التاريخ، قرب نهاية التسعينيات، تحديداً فى العام الذي قرّر فيه الإرهابيون قتل الكثير من السائحين فى معبد حتشبسوت في الدير البحري، بالأقصر. كان ذلك عام ١٩٩٧. لماذا اختار الإرهابيون معبداً تاريخيّاً لارتكاب واقعة إرهابية تاريخية هي الأخرى؟ هل يرغبون في أن يحفروا على جدران المعبد نقوشهم الخاصة بهذا الحدث؟ لن يجدوا مسرحاً تاريخيّاً أفضل من معبد حتشبسوت. لم أكن أتأمّل المشهد هكذا أثناء التحاقي بالكلية. كنت وقتها مشوَّشاً، أحسد أساتذتي على انفرادهم بجميلات الدفعة فى مكاتبهم. كنت أعرف ماذا يحدث فى حجرات الأساتذة: أن تكون أستاذاً جامعيّاً فهذا يمنحك صلاحيات واسعة، ليس فقط التحكم بمستقبل بعض الطلاب الحمقى، عبر منحهم كروت العبور من مضيق السنوات الأربعة، بل يمنح ما هو أبعد من ذلك، الرجال يمكنهم تقديم فروض الولاء والطاعة إلى الأساتذة، ليس فقط بمراجعة دروسهم أو حضور محاضرتهم وتدوين تفسيراتهم الحمقاء للأحداث التاريخية، بل هناك خدمات عديدة يمكن للراغبين في ما هو أكثر من النجاح الحصول على مبتغاهم. كنت واحداً من هؤلاء؛ كنت راغباً

في الحصول على ما هو أكثر من النجاح. الشبق كان مميزاً لبعض الأساتذة: كانوا يهتاجون وتهتز جوارحهم في اللحظة التي يلمحون فيها طالبة "غندورة" تتخطّر وتذهب وتجيء. كان الدكتور رمضان، رئيس القسم، واحداً من هؤلاء الأساتذة، لا يوقفه كرشه الضخم عن الطموح والطمع في أن يتحسس إحدى طالبات قسم التاريخ، كلية الآداب، إنها كلية الكعب العالي - التسمية التي لاحقتها منذ السبعينيات، وظلت ملتصقة بها حتى دخلتها في التسعينيات.

٣٠

كنت تائهاً...

دخلت الجامعة مضطرباً، طالباً فقيراً رثَّ الثياب، يسير بجوار الحائط، لا أعرف أي طريق يجب أن أسلكه حتى أصل إلى هدف مجهول لم أستطع تحديده فى عامي الدراسي الأول. ظننت في البداية أنني يمكنني أن أكون معيداً بكلِّ سهولة، إذ تكفي مذاكرة شهر واحد قبل الامتحان لتحقيق هذا المأرب، خاصةً أنه قسم التاريخ، وليس قسم الفيزياء مثلاً، لكنني كنت واهماً، فإذا كان القسم سهلاً، فالوصول فيه إلى نتيجة ملموسة، بتعييني معيداً فيه، ليس بنفس السهولة، مثل السهر كل ليلة لرؤية القمر ومراقبته، والتمتع بسحره وسط عباءة الليل الداكنة، ومدّ اليد لمحاولة الوصول إليه. شهور اكتشفت فيها عبث الكفاح من أجل تحقيق هدف التعيين فى كلية الآداب، عبثٌ يشبه محاولة اصطياد القمر من البئر. كنا نتسابق، أنا ووفاء، و لم أكن أعرف

أنها ستصبح زوجتي بعد هذا السباق. كان على كلٍّ منّا أن يقدّم شيئاً يبزّ فيه الآخر. لم أستطع أن أغري الدكتور رمضان بليونة جسدي أو نعومة ملمسي، أو أجبره على الانبهار بأثدائي، أو أذهب به إلى ما هو أكثر من ذلك. وفاء كان لديها الكثير: ملابس ضيقة، حابكة، جسد رشيق، خصر مغري، بسمة رقيقة ينهار أمامها رجل مثل رمضان. عندما التحقنا بالكلية كان كهلاً تجاوز منتصف الأربعينيات، لم يكن قد تزوج و لم يتضخم كرشه بعد، يحاصر الطالبات داخل مكتبه، على الرغم من مشاركته الحجرة أساتذة آخرين. أتذكر يوماً جاءت فيه وفاء ترتدي قميصاً حابكاً. كانت أزرار القميص العلوية مفتوحة، و"السوتيان" يضغط صدرها؛ كان شق نهديها واضحاً للأعمى، وبهذه الهيئة دخلت مكتب الأساتذة، بعدما استدعاها رمضان، أثناء محاضرته، للقائه هناك.

٣١

لا أعرف ماذا فعلت وفاء طوال ساعتين في مكتب الدكتور رمضان...

كنت فى انتظارها، متململاً، أحمل خطة البحث المقرر أن أعرضها عليه، عندما التقيت الدكتور رمضان في ذلك اليوم في مكتبه. كانت "سوستة" بنطلونه مفتوحة، كما لو كان خرج لتوه من الحمام ونسي إغلاقها، عندما دخلت عليه حجرة الأساتذة فكّرت أن أمازحه، و لم يكن بيننا هذا النوع من المزاح، أشرت مبتسماً تجاه "سوستة" البنطلون قائلاً: "لا مؤاخذة يا دكتور..."

عضّ على شفتيه في شهوة وهو يغمز لي بعينه اليسرى. تجمدت. قال منتشياً، بكلمات بطيئة يتفوه بها لسان ثقيل: أووف، بنات دفعتك دول جامدين يا مراد!

يومها حاصرت وفاء فى كافتيريا الكلية. كانت تجلس مع هناء صديقتها تتبادلان همساً مريباً، - هناء أيضاً كانت ترتدي ذلك اليوم بلوزة ضيقة عند الصدر والخصر، وتنتهي بياقة واسعة، - وأمامهما علبتا عصير. جذبت وفاء من ساعدها فى هدوء، هامساً بصرامة كتمت غيظاً مكبوتاً: عاوزك دقيقة.

٣٢

كانت تبكي، وكنت أحاول إقناع نفسي أنها لم تمصّ عضوه الذكري أثناء عرضها خطة البحث المقررة على الطلبة في العام الجديد. واجهتها ب"سوستة" بنطلونه المفتوحة وعضّة شفتيه، بينما يمدح بطريقة جنسية بنات دفعتي. بدأت دموعها تنهمر، بينما كلماتي تخرج من فمي، مثل كرات النار، محملة بكتل لهب شكوكي. كانت رائحة غضبي تغلّف جلستنا القصيرة. وجهها أخذ في الاحمرار. خدّاها استحالتا كرتي طماطم. بدأت شكوكي تخفت، بينما انفعالها يزداد. كنت واهماً بالطبع، إذ كيف ينفرد بها في حجرة يشاركه فيها أساتذة آخرين؟ هذا مستحيل! ذهبت بأوهامي إلى أبعد مدى، وقد أجّج هذه الأوهام شقّ نهديها. كنت أتخيل أصابع رمضان الكبيرة، التي تضغط على "زرارين" في "كيبورد الكمبيوتر" في آن واحد، تضغط هذه المرة على

ثدييها، وتعتصرهما، بينما هي تتأوّه في غنج وتقول: بالراحة يا دكتور، كدا برضه! طيّب، وخطة البحث يا دكتوري. وربما ذهبت أبعد من ذلك، وقبّلت صلعته، وطوّقت رأسه بين نهديها. كانت كل الأفكار المجنونة تجتاحني: ساعتان لمناقشة خطة البحث! لم أكن أستطيع أن أصدّق ذلك. فجأةً هبّت وفاء باكيةً وجرت بانفعال... اختفت، فيما كانت رائحة غضبي تتشكّل برائحة تشبه رائحة بارود الحرب. نظرت إلى خطة بحثي؛ كانت الصفحة الأولى مفتوحة على "استعدادات محمد علي وإبراهيم باشا لحملة سوريا".

٣٣

كانت "نادية" الوجه الليلي ل"وفاء"، هكذا كنت أراها، ففي نفس العام الذي التحقت فيه بالكلية، وتعرّفت إلى الأخيرة فى زحامها، وارتبطنا بنظرات العيون، في نهار المحاضرات، واشتعلت غيرتي عليها من "سوستة" بنطلون رمضان المفتوحة، وحصاره الدائم لها فى "سكاشن" مادته اللعينة (التاريخ الحديث) التي كنت ألعنها رغم سهولتها، كنت ألتقي نوعاً آخر من النساء فى المساء - كانت "نادية" التى جعلتني أخرج من مسام جلدي لأتنفس معها متع ومخاطر لم أعهدها و لم أتصوّر نفسي قادراً على الخوض فيها. تعرّفت إليها بعدما امتلكت شقة فى الحي السادس بمدينة السادس من أكتوبر. كان الحي متواضعاً، شعبياً إلى أقصى درجة، أوّل الأحياء التي اجتذبت سكان المدينة. كان سكانه أغلبهم حرفيون، نجارون، ومنجدون، وحدادون،

وبناؤون، وفتح تجار الأسمنت مستودعات به، وكذلك بدأت أولى محلات "البقالة" في ممارسة أنشطتها، ثم لم تلبث أن تطورت إلى "سوبر ماركت"، ثم إلى "مول" ضخم تمَّ بناؤه على شكل سفينة حجرية. عملت في الحي، في ورشة لتنجيد الكراسي، قبل التحاقي بالكلية، ثم بعدها. كانتْ المهنة مربحة، وكان المتزوجون حديثاً يلجأون إلينا، ممّا وسع من نطاق أعمالنا. كانت أصابعي محترفة: أكسو الخشب شرائح الإسفنج، ثم "أدبسها" بالدبابيس، وأشدّ القماش على اتّساعه، وأغرز المسامير في أطرافه، وأتأكّد من التحامها بالخشب، - مهنة متعبة، لكننا كنا نتبارى فيمن ينهي أطقم كاملة. خلال عامين ادّخرت مبلغاً لا بأس به، ستة آلاف جنيه كانت كافية لشراء شقة فى السادس من أكتوبر منتصف التسعينيات؛ شقة مساحتها ٦٩ متراً. كانت المدينة بالنسبة إلي مثل مؤخرة عريضة للقاهرة؛ مؤخرة ليس بها فتحة شرج، معدومة الخدمات، على الرغم من زحام العمال الذين يسكنون جميعاً الحي السادس. كنت أحلم دائماً أن أصل مبكراً إلى الحي بواسطة الميكروباص الذي أستقلّه من موقف قريب من الجامعة، قبل أن ترتفع الأجرة إلى ٣ جنيهات، بعد السادسة مساء.

٣٤

لم أكن أذاكر تقريباً طوال الليل...

كنت أقضي الساعات متصنّتاً على جيراني المقاولين...

يعملون طوال النهار في تشييد مبانٍ فاخرة في أنحاء مختلفة من

المدينة: عمائر لمولات ضخمة، مطاعم فاخرة، فرنسية وصينية، فيلات معزولة بأسوار عملاقة، "كمبوند"، أحياء فاخرة، حي الأشجار، النخيل، أحياء تحمل أسماء شيوخ عرب، قصور، مقار لشركات محمول عملاقة. كان العمار يمتد إلى المدينة مثل عنكبوتٍ ضخم، ينمو له كل ليلة ألف ذراع، ينشر شباكه بعمائر ومنشآت ومكعبات من الخرسانة المسلحة ليس لها علاقة باسم المدينة. لم تحوِ المدينة نصباً تذكارياً واحداً يجسّد الحرب التى منحت المدينة وجودها. يعود العمال مخمورين ممّا يرونه، من السيارات الفاخرة التي تتوقّف أمام المنشآت التى يشيدونها، السكرتيرات الفاتنات، رجال الأعمال الذين تحتجب أعينهم خلف نظارات سوداء سميكة، وتنتفخ جلودهم بملابس فاخرة وأقمشة لم يروا لها مثيلاً، وعطور زكية تتناثر حولهم كلما خطوا خطوات داخل إحدى الطوابق التى يشيدونها. كان جيراني ثلاثة مقاولين جاءوا من الصعيد والدلتا، والتقوا فى مدينة السادس من أكتوبر. عائلاتهم دفعت بعض أبنائها في الحرب، وصرفت معاشات هزيلة، تعويضاً عنهم، لم تلبث أن تآكلت مع فكّ الانفتاح المفترس، وازدادت هذه العائلات فقراً مع مرور العقود، وصار أبناؤها حفاة يرفعون على أكتافهم التراب والرمل والزلط والأسمنت لتشييد عقارات وفيلات ومساكن وشركات ومولات وشركات تدرّ أرباحا على أناس آخرين لم يعرفوا ملح العطش في ليالي الحصار، ولم يأكلوا ثعالب الصحراء بدلاً من وجبة باهتة، ضاع الأمل في وصولها نتيجة شدة انقطاع الإمداد.

٣٥

غالي وعبد الرؤوف وغانم... هؤلاء هم المقاولين الثلاثة الذين كنت أقضي الليل فى شقتي الضيقة بالسادس من أكتوبر متصنّتاً عليهم، بينما هم يلهون، بعد يوم طويل وشاق قضوه في غبار خلاطات الأسمنت ورفع شكائر الرمل وتوجيه الأوامر للعمال الذين يأتمرون بأمرهم. كانوا يقضون أول الليل في لهوٍ لا ينقطع، ينتهي في منتصف الليل، بعدها ينامون، مثل الجثث النتنة، حتى السادسة صباحاً، حيث يتحركون بعربتهم "نصف نقل" التي تجمع الأنفار لرحلة التشييد الصباحية. طريقتهم فى اللهو كانت مبتكرة: كل ليلة يستضيفون امرأة، فيصرفون عليها في بذخ ما حصدوه من تعب النهار. لم تدم معهم واحدة أكثر من ليلتين. كانوا يتوجهون عقب انتهاء أعمال البناء إلى قهوة العمال، في موقف السيرفيس الكبير، ومن هناك يعودون بواحدة ما، ساقطة تبحث عن رفقة ومعاشرة ممتعة وأجر مرضٍ، أو زوجة مغامرة تحبّ عرق العمال وتهبهم جسدها مقابل تجربة جديدة، أو أخرى وحيدة هجرها زوجها إلى إحدى الدول العربية ونسيها خلفه، وقررت أن تعيش حياتها من أجل اصطياد السنوات المتبقية في بتلات عمرها. كنت أتعرّف إلى هويات النساء، اللواتي يحللن ضيوفاً على عبد الرؤوف وغانم وغالي، من الأحاديث التمهيدية التي كانت تسبق التأوّهات والصخب.

٣٦

لم يفهم جيراني الثلاثة لماذا كنت أثقب باب شقتي المواجه لشقتهم بالشنيور في ذلك الصباح، قبل توجّهي إلى الكلية. كنت قد اشتريت "عيناً سحرية" جديدة لأراقب عاهراتهم اللواتي يرجعن بصحبتهم عقب انتهائهم من العمل. رمقوني بنظرات متوجّسة مستريبة، قبل أن يهبطوا درج المنزل، وهم يطلقون سعالهم الصباحي ويتأهبون لجولة جديدة من العمل. في المساء كنت أقف خلف الباب بينما يدلفون بالمرأة شقّتهم، كما لو كانوا يستضيفون أحد أصدقائهم. لم يتحرجوا من أن ينتقد سلوكهم شخص ما. كانت العمارة خالية إلاّ منّي ومنهم: يلمحونني في الصباح، بينما ننزل أربعتنا، فأمضي أنا إلى كليتي، بواسطة الميكروباص، فيما يقفزون هم في عربتهم التي يجمعون بها الأنفار. كان مظهري بائساً: شاب منكوش الشعر، لحيته طويلة، ملابسه فقيرة وغير ملفتة للنظر، عكس الملابس التى يرتدونها حينما يقررون السفر إلى عائلاتهم فى الصعيد والدلتا، لذلك لم يعبأوا بي ولم يحاولوا التستّر على متعتهم الليلية، لكنهم لم يعرفوا فى أي كلية أدرس، فقد كنت أحمل دائماً دفترين، مع كتاب ضخم من كتب التاريخ المختلفة؛ بعض هذه الكتب كانت مكتوبة بالإنجليزية. أظن أنهم كانوا يحسبونني طالباً في أحد أقسام اللغات بكلية الآداب.

٣٧

أكاد أسمع لهاثهم من العين السحرية...

لهاث خشن متقطّع، كلهاث أفيال أثناء صعود ربوة شاهقة الارتفاع. كانوا يلتصقون بالمرأة التي تطلق ضحكات خافتة مكتومة، في ظلام سلم العمارة. لم أستطع تبيّن ملامحها، على الرغم من ضوء القمر الذي كشف بسطة السلم الممتدة بين شقتي وشقة جيراني الثلاثة. كل ما استطعت أن أتبيّنه قامة ممشوقة وشعر طويل منسدل وجسد مدملك ومؤخرة كبيرة أخذت قبضاتهم الستة تتحسّسها في لهفة وشوق. صدرت عنها ضحكة مكتومة، خافتة، وهي تقول فى غنج: "جري إيه يا معلمين... مش كدا، دا أحنا لسه ما دخلناش الشقة.

كدت أصيح، وأنا ملتصق بالعين السحرية، وعضوي منتصب أسفل ملابسي فى شدة: يا ولاد الكلب، أين عثرتم على هذا الصاروخ؟

فتحوا الباب، وانسلوا، بينما يضيئون نور صالة شقتهم، فظهرت ملامح المرأة فى لحظة أقل من الثانية: وجه شبق، شفتاها تتلهفان لتذوق المتعة، وعيناها متسعتان من البهجة المقبلة. صفقوا الباب بقوة فارتددت إلى الخلف، بينما كنت أرتجف من الألم الرهيب الذي اعتصر خصيتي فجأةً؛ ألم "احتباس" ملايين الحيوانات المنوية. بدأ صوت غنجها يصلني، وبدأت ضحكاتهم تمتزج بها، خطوات مضطربة، تدافع، قهقهات، ضحكاتها كانت أشبه بالقنابل المدوية في عمق الليل. تعرّيت من ملابسي فجأةً، واعتصرت ذكري بقسوة. كانت ضحكاتهم تكفي لاستدعاء آلاف الصور الإباحية التي كنت أتبادلها

مع زملائي فى المدرسة الثانوية. تحركت قبضتي على عضوي بسرعة وعنف، وأنا أشهق كما لو كنت أضاجع امرأتهم: آه، آه، آه آه آه، اندفقت القطرات الساخنة، تهاويت على أقرب مقعد، وذكري لم يزل يقذف بضع قطرات دسمة من المني، بينما ضحكات جيراني الشبقة تتواصل.

٣٨

مذاكرة التاريخ أصعب من مذاكرة الفيزياء أو حفظ معادلات الكيمياء.

أن تفصل عقلك تماماً، بينما تقرأ الأكاذيب وتطالبه باستظهارها، لسكبها مجدداً في الامتحانات، هذا أمر صعب؛ بالتأكيد صعب لأنّ المعادلات لا تكذب، الأرقام لن تخونك، أصحاب النظريات الرياضية الكبرى مسيَّرون وليسوا مخيَّرين، عكس المؤرخين وكتبة التاريخ وشهود العيان على الأحداث الكبرى، لذلك كنت أنصرف عن المذاكرة إلى تاريخ آخر أستطيع كتابته بسهولة، تاريخ جيراني الثلاثة، غالي وعبد الرؤوف وغانم، الثلاثة كانوا يصنعون تاريخاً خاصاً بهم، على الرغم من أنه لن يخرج في النهاية عن خط سير الأكاذيب التي كنت أستذكرها، ونلت بعدها فيها درجتي الماجستير والدكتوراه.

تاريخ عبد الرحمن الرافعي كان بين يدي. كنت أشعر بكذب الرجل على الرغم من مقامه العالي ومكانة موسوعته على أرفف المكتبات. كتب عبد الرحمن الرافعي تاريخه عن محمد علي في عهد حفيده الملك فؤاد الأول الذي حكم ما بين عامي ١٩١٧ و١٩٣٦.

أصدر الرافعي كتابه **عصر محمد علي** عام ١٩٣٠، في ذروة اهتمام القصر الملكي بنشر مؤلفات عديدة عن عظمة محمد علي ودوره القيادي، وعن نهضته بمصر. كنت أكتب في المساحات الخالية من الصفحات شتائمَ وسباباً وألفاظاً قبيحة، أحياناً كنت أوجِّهها لعبد الرحمن الرافعي، وأحياناً كنت أوجِّهها لمحمد علي نفسه، وأنا مطمئن إلى أن الرجل لن يستطيع أن ينهض من الصفحات ويضرب عنقي بسيفه.

٣٩

"وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد علي باشا، وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها" - هكذا يرى الرافعي إزهاق أرواح المماليك، نقطة سيئة، لا أعرف لماذا كنت أتوقف عند هذه الكلمات التي لم تستوقف أساتذتي فى المحاضرات. كانوا ينظرون إليّ نظرات بلهاء ويزجرونني في غضب: اقعد، اقعد، شكلك ضارب حاجة...

لم أكن قد تعرّفت بعد إلى "نادية"، وبدأت بتعاطي سجائرها الملفوفة. اتّهامات أساتذتي لم تكن في محلها. كانوا يحاولون أن يصوروني مجنوناً أو أبلهاً لمجرّد أننى أنتقد عبد الرحمن الرافعي باشا حينما يصف مذبحة المماليك بالنقطة... نقطة، هكذا (.) ويمكنك أن تستخدم قلم حبر لتزيد من سوادها، أو يمكنك أن تظلِّلها على "وورد" وتضغط Ctrl+B فتصبح "Bold"، ولكن بالتأكيد اختراع الكمبيوتر لم يكن أيام السيد عبد الرحمن

الرافعي، ثم إنه وضع في أول صفحات كتابه صورة لمحمد علي يظهر فيها فى هيئة سلطانية مبجّلة، جالساً على أريكة ويمسك سيفاً تتدلّى ذؤابته حتى الوسادة الممتدة أسفل قدميه، وكتب أسفل الصورة: محمد علي، مؤسس الدولة المصرية الحديثة، وباعث نهضتها واستقلالها (١٧٦٩ - ١٨٤٩)، كأنه يمنعني من مجرّد الشك في عظمته، أو يصادر علي أي محاولة لانتقاده، فأقبل ببساطة كلّ الترّهات التي ذكرها عن الرجل ومكانته. كنت أتذكّر المحاضرة التي طردني فيها "رمضان" من القاعة لمجرّد أنّي قاطعته لأقول رأيي في مذبحة المماليك. في الحقيقة، لم أكن أعارض عبد الرحمن الرافعي، كنت فقط أرغب في أن ألفت نظر وفاء، خاصةً أنّ رمضان كان يحاصرها خلال المحاضرة، بحومانه حولها مثل الذئب، بينما يفخّم من عبارات عبد الرحمن الرافعي ويبالغ في تعظيم وتقديس محمد علي. قاطعته فجأةً بقولي: بس دول بني آدمين برضه يا دكتور؟ إزّاي عبد الرحمن الرافعي يصوّر مذبحة المماليك بالنقطة السوداء فى تاريخ محمد علي؟ ولاّ الدم اللى سيّحه من المماليك دول اتصفّى خالص لحد ما وصل لنقطة للأستاذ المؤرخ الكبير. مش دي جريمة؟ أكيد جريمة. كمان محمد علي دا ضحك على الناس، وسرق منهم البلد، وهو مجرد عسكري ألباني جاي من بلد اسمها يشبه اسم أي مركز مجهول في الصعيد.

ما إن انتهيت من عبارتي حتى أشار رمضان نحو باب القاعة قائلاً: المرّة الجاية اللي هتقاطعني فيها هارفدك من الكلية، اتفضل.

٤٠

كانت هناك دقات على بابي للمرة الأولى منذ سكنت الشقة. رفعت رأسي من على صورة محمد علي، وضربت فى رأسي كل الاحتمالات، من عساه يزورني فى هذه المنطقة المقطوعة؟

كان غانم، أحد جيراني الثلاثة. وقف بطوله وعرضه، وسمار بشرته، يضرب على ظهره ضوء منبعث من باب شقتهم المفتوح، فزاد وجهه إظلاماً. هتف بمجرد فتح الباب، بشعري المنكوش و"الشورت" القصير الذي أرتديه: لا مؤاخذة يا دكتور، بس فيه واحدة... أختنا لا مؤاخذة تعبت مننا فجأة، ممكن تبصّ عليها، مش حضرتك دكتور برضه...؟

تسمّرت من المفاجأة. لم أكن أعرف أنني طبيب من وجهة نظرهم. ظللت متجمّداً لحظات، فقط دفعت إطار النظارة الطبية التي كادت تسقط من فوق أنفي. كدت أجيبه ببلاهة أنني لست طبيباً، لكنني تراجعت وقلت: خير مالها؟

قال متلعثماً: لا مؤاخذة، أصلها أخت يعني بتشقّر علينا كل أسبوع، بس يظهر أنها تعبانة.

صمت و لم يستطع تأليف المزيد أو اختراع أكذوبة جديدة. قررت أن أمضي بعدما شعرت أن هناك مصيبة. اشتعل فضولي، تقدّمت نحوه راغباً في معرفة ما حدث، فاستوقفني بكفّيه قائلاً: إيه حيلك؟ مش هتجيب سماعة ولا جهاز ضغط ولا ترمومتر؟

توقّفت وأجبته متلعثماً: كل أدواتي في القصر، القصر العيني، عموماً ما تقلقش، أنا هشوفها وهعرف مالها.

٤١

شقتهم حجرتان وصالة، مثل شقتي الصغيرة. كل الشقق في هذه البنايات أشبه بعلب الكبريت، تليق بالحيوانات وليس "البني آدمين"، ولكنّ جيراني الثلاثة جعلوا من شقتهم جنة، بحكم ثرائهم والنعمة التي يرفلون فيها. جذبتني رائحة عطرة تفوح من مدخلها الذي توسّطه أثاث قليل، عتيق: أوضة "أنتريه" وثيرة، وبساط من الكتان، وعلى الحائط لوحة من النسيج تحمل كلمات "ما شاء الله لا قوة إلا بالله". تسمّرت أمام هذه اللوحة التي تستقبل يومياً النساء اللواتي يصطحبنهنّ جيراني الثلاثة. جذبني غانم، مشيراً إلى حجرة جانبية، قائلاً: "هنا" يا دكتور.

٤٢

فى الحجرة سرير من الحديد الصدئ أشبه بأسرة المستشفيات الحكومية القديمة؛ سرير لا يتّسع سوى لشخص واحد، رقدت عليه المرأة الشبقة التي لمحتها تدلف بينهم، وأصابعهم تتحسس أجزائها. الرائحة العطرة تلفح المكان. بجوار السرير "طبلية" خشبية متهالكة تحطمت إحدى قوائمها، وصنعوا لها "سنّادة" من إحدى المواسير، وعلى سطحها زجاجة خمر رديئة تفوح منها رائحة كحول قوية أشبه برائحة "السبرتو الأحمر"، وبجوارها طبق صدئ ممتلئ بالتبغ، وأوراق "بفرة" متناثرة، وكذلك عدد من السجائر مرصوصة متجاورة على

"الطبلية". كان ساعد المرأة متدلياً على الأرض وأصابعها مفرودة وممدودة نحو كوب زجاجي مقلوب وبقاياه مسكوبة أسفل السرير. اقتربت من المرأة وجلست على المرتبة التي تآكل قماشها وبرز من بينه قطن رمادى اللون. استنكرت أن ينام أحد هؤلاء المقاولين الثلاثة على هذه المرتبة، وكتمت تعجّبي داخلي. تحسست أصابعها. كانت لا تزال ترتدي كامل ملابسها. خمّنت أنها بمجرد أن تجرعت محتويات الزجاجة حتى حدث ما حدث، لكنني لم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل، خاصةً كيلا يغضب جيراني ويظنوا أنني أتعمّد هتك سرهم، فى حال ما إذا عرفوا أنني لست طبيباً. لاحظت غياب الرجلين الآخرين. التفت بغتةً نحو غانم قائلاً بصوت حافظت على تماسكه: إيه اللي حصل؟

٤٣

غالي وعبد الرؤوف تواريا في الحجرة الأخرى، فقد كانا يشعران أن المرأة قد قضت نحبها أو، على أقل تقدير، فقدت بصرها من الخمر الرديئة. القصة، كما رواها غانم، بدأت عندما جلست على الفراش، وتحلقوا حولها يداعبونها– لم يروِ ذلك بل تخيلته–، وما إن وضعت على شفتيها الكأس حتى أطلقت شهقةً مباغتة و"سورئت" (فقدت وعيها) – هكذا لخّص غالي "الحدوتة" دون أن يتطرق إلى أي تفاصيل أخرى. كان واقفاً يروي الحكاية بينما ظله يرتجف في ضوء الحجرة على الحائط. كانت أصابعها رقيقة، عكس ما توقعته، وملامحها شعبية:

ماكياج صارخ، ألوان متنافرة، أحمر على خديها، فضّي على جفنيها، وروزي فاقع على شفتيها، ممسوحاً ومختلطاً ببودرة كثيفة على فكّها، مما يوحي أن أحدهم اعتصر شفتيها في قبلة بوهيمية. عيناها مغمضتان. وضعت أذني على صدرها. كان تنفسها بطيئاً. اطمئننت. قال غانم: يا دكتور اتّصرف، أنا كمان سمعت صوت قلبها، لسه بيدق، حاول تفوقها بنت الكلب دي.

استغربت السباب. قلت في رتابة بينما كنت أدعك بين حاجبيها وفوقهما، كما شاهدت أحد أفراد الجوالة في حلقة إسعافات أولية بالكلية: بنت الكلب دي تقرب لكم إيه؟

قال مستنكراً أسئلتي: بنت خالتنا، وكانت جاية تطبخ لنا، وتشقر، وفايتة ولادها لوحدهم، حكم إحنا رجال أعمال، مقاولين كبار، ومعناش "ست"، ربنا يستر، بس ترجع لهم على رجليها.

لم تكن هناك أي بوادر تشير إلى استيقاظها. كنت أدعك حاجبيها على أمل أن يفعل ذلك شيئاً، كما كان ينصح فرد الجوالة، ثم انتقلت إلى كفيها، وأخذت أدعكهما الواحد تلو الآخر. كان عقلي يعمل بسرعة. لا أعرف ماذا يتعين عليّ فعله. فجأةً التفتُّ إلى غانم قائلاً: محتاجة تاخد حقنة، بس مش عندي، ممكن ننقلها مستوصف؟

٤٤

رضخ جيراني الثلاثة، لكنهم تركوني أنقل "نادية" بمفردي، فقد تخوّفوا من الذهاب معي، وتعللوا أنّ شكلي أكثر ثقة، لكن ظهورهم

في المستوصف، في هذه الساعة، مع فاقدة لوعيها، إثر جرعة الكحول، ربما يجلب المشاكل. دسّ غانم في كفي ورقة بمائة جنيه، وهمس متوسِّلاً: معلش يا دكتور، برضه حضرتك تعرف لغوة زمايلك، لكن لو روحنا معاك جايز تحصل مشاكل كتيرة.

أسندوها حتى المستوصف، وعلى عتبته اختفوا، وتركوا نادية معلقة في كتفي. كان بدنها ثقيلاً، على الرغم من هيئتها المثيرة، إلا أنني شعرت بثقل وزنها في الخطوتين اللتين حاولت جرجرتها إلى أقرب حجرة كشف. كنت أمسكها من وسطها وجانب صدرها، وأحطت خصرها الممشوق الفارع بساعدي. تحسست بكفي دون قصد امتلاء صدرها، وأردافها. كنت أحاول أن أسندها، فأمسكها من أعضائها التي كانت تستثيرني حينما كان جيراني الثلاثة يدلفون بها شقتهم. لم يظهر ممرض واحد في المستوصف، كنا بعد منتصف الليل، طرحتها على أحد المقاعد، وأخذت أرنّ جرس استقبال المستوصف الذي كان عبارة عن شقة في الطابق الأرضي لإحدى البنايات في الحي السادس بالمدينة.

٤٥

– أنت مين؟

– أنا جار غانم وغالي وعبد الرؤوف.

– مش عاوزة أسمع سيرة الأوساخ دول.

– إيه اللي حصل؟

– كلاب... أوساخ، عاوزين يسمموني بمنقوع القطران اللي بيكيفهم.

– أنت منين؟

– انت مش عارفني؟ انت اللي منين؟

– انا من المدينة، وبادرس فى جامعة القاهرة.

– بتدرس إيه؟

–... الطب... فى القصر العيني.

– دكتور؟ طب ليه معرفتش تفوقني وجبتني المستوصف؟

– حاولت، بس انت كنتي محتاجة حقنة ضروري.

– والأوساخ دول، ما سألوش عليا؟

– جابوكي معايا لحد هنا، لكن...

– خافوا صح؟ أنا عارفاهم، شوية مقاولين أوساخ ما بيفهموش غير في الرمل والزلط، مش عارفة إيه اللي بيخليني أوسخ نفسى معاهم.

– إيه؟

ابتسمت ونظرت إلي دون أن ترد. كنا جالسين على سرير حجرة الكشف، بعدما أجرى لها الطبيب الذي أيقظناه غسيل معوي سريع خلّصها من "السبرتو الأحمر". تفرّس فيّ الطبيب بشك، وقال: إيه اللي حصل؟ إزاي شربت الزفت دا؟ أجبته بثقة وعيني تحدق فيه دون أن يرتعش لي جفن: غلطة، محدش بيغلط؟ ثم إن حضرتك بتعالجنا ولا بتحقق معانا؟

تراجع الطبيب أمام لهجتي، لم تدرك نادية أن الحديث يدور عنها إلا مع جملتي الأخيرة، بعدما تخلصت من مغص معدتها، ثم

اعتدلت، وجلست مسندةً ظهرها إلى الحائط. تدلّى صندلها من قدمها المدملكة، وانحسرت تنورتها عن ساقين ممتلئتين، نظيفتين، منزوعتي الشعر بعناية، ملساوتين، تلمعان مع نور اللمبة النيون.

٤٦

مثل شقتي وشقة غالي وغانم وعبد الرؤوف، كانت شقة "نادية" تتألف من حجرتين وصالة ومطبخ ضيق وحمام. بمجرد أن فتحت بابها الخشبي غير المطلي حتى شممت رائحة معطرة تنبعث من الشقة. على بلاطها الأسمنتي الرمادى كانت هناك سجادة ثمينة استغربت كيف تفرشها على هذا البلاط القديم. أضاءت لمبة "فلورسنت" في الصالة فظهر لي أثاث راقٍ فاخر لم أتصور أن يوجد بين جنبات حيطان أي شقة في الحي السادس بالمدينة أريكة وثيرة ومقعدان "فوتيه" كان واضحاً أن قماش تنجيدهما قد تغير حديثاً، ووسائد كبيرة مريحة متناثرة على الكنبة والمقعدين. أول شيء خطر في بالي أن هذه الأبهة التى تعيش فيها بفضل احترافها الدعارة بين مقاولي المدينة، المنهكين من الغربة بين أطلال منشآتها ومبانيها حديثة الإنشاء، لكن هل يدفع هؤلاء المقاولون بهذا السخاء أم أنها تتخطي هؤلاء المقاولين إلى علاقات مع رجال الأعمال أصحاب الشركات الضخمة الموجودة بالمدينة؟ كانت الفكرة تعتمل فى رأسي بينما كنت أخطو حذراً إلى داخل الشقة التي لم تظهر فيها بوادر تشير إلى الأطفال الذين حدّثني عنهم غانم. كانت نادية تدخل شقتها بثقة، فقد أعطتني ظهرها

ببساطة، بينما كانت تمضي إلى حجرتها، ثم توقفت فجأةً والتفتت نحوي مبتسمةً: أقفل الباب.

٤٧

ودّعت الاستمناء بمجرد تعرفي إلى "نادية"...

توقفت إلى الأبد عن "العادة السرية" أو "ضرب العشرات". فى صباي حاولت أن أعرف لماذا يسمونها "ضرب العشرات". أحد أصدقائى تفكّه وحاول أن يتقمص شخصية "هيردوت"، فقال مفسّراً التسمية: "الدفقة الأولى من المني تكون بحجم "البريزة" المعدنية، من هنا جاءت تسميتها ب"ضرب العشرة" أو "ضرب العشارى"". هذه الكلمة الأخيرة يردِّدها البعض في الريف، لكن للأسف، فيما بعد، في عصور تحرير الجنيه وبيع المصانع وخصخصتها، في حكومات الجنزوري وعاطف عبيد، اختفت إلى الأبد العملة المعدنية "البريزة" وظهر "الجنية" الفضة، ومع ذلك احتفظت "العشرات" بتسميتها. لم تقضِ العملة الجديدة على العادة السرية أو تُغيّر اسمها. تضاءلت العملة، وزادت تعريفة بنات الليل، لكن نادية لم تتقاضَ مني أجراً، فقد كانت واثقة أنها تضاجع طبيباً يدرس ويعمل في القصر العيني، أو على الأقل مشروع طبيب. فى الليلة الأولى أصرّت أن تردّ لي جميل وقفتي بجوارها في المستوصف، فقلت لها بينما كنت أربت على كتفيها: إنتى تعبانة؟ فأمسكت بكفي، وداعبت بين أصابعي باحتراف، كانت لمساتها كافية لأنهار. انتصبت بغتةً، وضرب الدم في خدي. لحظت

تغير ملامحي وألواني، ضحكت بينما تحتضنني وتقبّلني في جانب عنقي. ضمّتني إلى صدرها بهدوء وحسم، كانت تعرف ما يجب أن تفعله، وكنت مرتبكاً، متوتراً، مثل طفل حديث الميلاد يصفعونه على مؤخرته العارية.

٤٨

نمارس الجنس في أي وقت، مثل عروسين في شهر عسلهما. كنت حديث الممارسة، واكتشفت أنني لست فحلاً، وقد غمّني هذا الأمر في البداية. كنت أقذف بسرعة على الرغم من محاولاتي القبض على زمام مائي، إلا أنه كان يباغتني ويندفق فجأةً مثل شلال محبوس في زجاجة "كوكا كولا". فوجئت بإخفاقاتي المتتالية أمام "نادية". جسدها كان فاتناً، لدناً، أغوص فيه كأنه صلصال. كانت تتمدّد أسفلي، أو فوقي حين أقلبها، لتعتليني، في محاولة مني لكبح جماحي، كنت أظن أنها حين تعتليني وتنتصب فوق جسدي، في الوضع الجنسي الشهير باسم "شمعة البحر"، فإنّ الجاذبية كافية لمنع حيواناتي المنوية من الفيضان، لكنني اكتشفت فشل هذا الوضع في سدّ تيار المني الذى كان يضرب بعنف جدران عضوي، بينما يغادرني، كحمم بركانية مشتاقة لخرق الأرض في أضعف نقاطها كي تثور. لم تكن هناك فائدة. كان شعر نادية ينسدل على نهديها المتدليين كثمرتي كمثرى كبيرتين. حلمتاها غامقتان، محببتان، تتحجران في دلالة على استثارتها، لكنها لم تنفعل أو تصرخ في أي مرة مارست الجنس معها. كنت وحدي من يصرخ

في البداية، وكانت تواجه صراخي ببسمة سرعان ما اختفت، بعدما تعددت اللقاءات التي لا تعود عليها بفائدة؛ فكل مرة كان شعرها يزداد ثقلاً، وجسدها تنغلق مسامه أكثر، بينما تتكاثر أسفل جلدها خلايا ميتة عطشى لا تجد لذة أو متعة كي يرويها شلال مائها المكبوت نتيجة عجزي عن فتح غطائه.

٤٩

استيقظت في الصباح، وارتدت ملابس متأنقة، محتشمة: تنورة طويلة من قماش رخيص؛ بلوزة واسعة لا تخفي استدارة نهديها، خاصةً مع "السوتيان" المدبَّب الذي كانت تحرص على ارتدائه، و"الكورسيه" القوي الذي يشدّ خصرها الملفوف، ووضعت على كتفيها وحول عنقها الطويل "إيشارباً" قصيراً، – هذه هي الملابس التي ارتدتها صباح أول يوم قضيناه معاً في شقتها. تحرّجت أن أطلب منها البقاء، خاصةً أنّ ارتداءها ملابسها كان يدعوني إلى أن أفعل المثل، وأغادر شقتها. انتظرت أن تطلب مني المغادرة، لكنني فوجئت بها تقول: أنا جاية معاك الكلية.

تسمّرت في مكاني، واستدرت قائلاً: أي كلية؟

قالت وهي تسوّي خصلات شعرها أمام المراة، ثم تقترب منها، بينما تضفي لمسات أخيرة بقلم "الروج" على شفتيها الممتلئتين: كليتك... كلية الطب.

استعدت بغتةً أنني قلت لها إني طالب بكلية الطب، وقلت لها:

خير... فيه حاجة؟

وضعت قلم الروج في حقيبتها، ونظرت إلي في المرآة مبتسمة. لم تكن تتحدث بسوقية، مثل لهجتها التي أبدت فيها امتعاضها من جيراني الثلاثة. استدارت وأقبلت نحوي قائلةً: عاوزة أقعد معاك في الكلية، زي أي واحدة زميلتك.

كانت ابتسامتها حقيقية، وليست ابتسامة خبيثة. شعرت أنّ نيتها فقط أن نخرج بعلاقتنا من حجرة النوم. تأملت ملامحها؛ بشرتها السمراء؛ حاجبيها المرسومين بدقة واحتراف؛ شفتيها الممتلئتين مثل خديها؛ وجهها المبتسم دوماً كأنها تداري به ضيقها من إخفاقي معها ليلة أمس. احتضنت خصرها بساعديّ، وأطبقت بصدري على نهديها البارزين، ملت على شفتيها وقبّلتها، وأنا أفكر كيف سأهرب من الذهاب إلى كلية لست طالباً فيها.

٥٠

في حديقة الأورمان استقرّت بنا الحال. دفعت نادية أجرة الميكروباص الذي جاء بنا من أكتوبر حتى جامعة القاهرة. رمقني سائق الميكروباص الأشيب بنظرة إشفاق وسخرية. لم يكن بحوزتي سوى بضع جنيهات متبقية من آخر طقم "أنتريه" نجّدته في الورشة. كنت أعود إلى تنجيد الأنتريهات كلما نفدت نقودي وصرت مفلساً. صاحب الورشة حاول إذلالي مرةً، رافضاً انقطاعي عن العمل وقتما تكون جيوبي عامرة وعودتي إليه حينما تخلو جيوبي

من قروشه التي يلقيها إلي مثل "عظمة" مصمصها صاحبها قبل أن يلقيها إلى كلبه. كنت أكره العمل في تنجيد الأنتريهات، عكس باقي الأسطوات الذين يبدأون يومهم بينها وينهونه فيها، وتختلط جلودهم بخيوط أقمشة التنجيد المختلفة، وتعبق روائحهم برائحة الأسفنج والخشب والدهانات، ويبصقون، قبل تناولهم الطعام، المسامير التي يحتفظون بها أسفل ألسنتهم، لكنهم يحتفظون بها أثناء احتسائهم الشاي، كما لو كانت هذه المسامير هي القرنفل أو النعناع الذي يعطي نكهةً مختلفة لمشروبهم المحبَّب الذي يحتسونه ثقيلاً ضارباً إلى السواد. كنت أكره هذه المشاهد، وأكره العودة إلى العمل بجوارهم. كانوا يستقبلونني كل مرة بالسخرية من تردّدي وانقطاعي عن الورشة، ويقولون لي مستهزئين: إيديك هي اللي تطعمك يا أسطى، مش حكاوي التاريخ اللي في دفاترك.

لم نتبادل أنا ونادية أي كلمات بينما كنا نقطع تذكرتين وندخل حديقة الأورمان ونسير وسط زهورها وأشجارها الضخمة. كانت تشبك أصابعها بأصابعي مثل حبيبة فى سنّ المراهقة. قالت لي مبتسمةً: مش عارفة ليه ما ودتنيش كليتك، أنا للدرجة دي في نظرك "عرة"؟

٥١

قالت: أنت ما ينفعش تشتغل دكتور، صح؟

كانت تجلس على دكّة خشبية في مواجهة حوض زهور، تظللنا أشجار عملاقة، في أيدينا زجاجتا "بيبسى"، وعلى مقربةٍ منّا أربعة

شبّان يتلكأون وهم يلتهمونني ونادية بنظرات حاسدة تتدحرج منها كرات لهب الشهوة والشبق. كان احتشام نادية لا يخفي هيئتها المغرية، على الرغم من تنورتها الواسعة المنسدلة على ساقيها، إلا أن استدارة أردافها وتكورهما كانا واضحين. تجاهلت نظرات الشباب التي كانت تلتهمها بنهم وتومئ إليها في شهوة، فلن أستطيع أن أتشاجر بمفردي مع الأربعة: معركة خاسرة ربما تسفر عن احتقار نادية لي؛ هزيمة جديدة تضاف إلى هزيمتي الكبرى في السرير. قلت لها: أنا مش دكتور.

ضحكت؛ أطلقت ضحكة "مسرسعة" (عالية) أثارت نهم وغيرة وشهوة الشبّان المترقبين، فصاح أحدهم ضاحكاً: يا دلعه!

وضعت نادية كفها على شفتيها، ورمقتني ونظرات عينيها لا تزال تضحك، ثم خبطتني على صدري بقولها: دايماً أنتو كدا، تعرفوا تضحكوا على الغلابة.

خبطتها على صدري، على الرغم من أنها كانت مداعبة، لكنها أرسلت رسالة إلى الشباب المتوثب للانقضاض عليها، أنها تعتز بذكرها الذي تجلس بجواره. سمعت أحدهم يهتف في الآخر: يالا يا عم، الفيلم دا قصة مش مناظر، أحنا لسه قدامنا وقت طويل عقبال ما يقلعوا هدومهم.

لم يشجّعه الآخرون على الرحيل وترك المكان، وظلوا يراقبوننا من مكانهم، ويتدخلون بالتعليق على حركات نادية. تجاهلتهم وأنا أقول لها: أنا ما كدبتش عليكي، غانم وعبد الرؤوف افتكروني دكتور، أنا ما قلتش إني دكتور أبداً.

"يا له من ثمن بخس!" هكذا قالت نادية لنفسها. عندما تزوجت لأول مرة من ابن زوج أمها الذي نقلها من قريتها "محلة مرحوم" بالغربية إلى "العياط" بالجيزة، من قرية إلى قرية، من عيشة ضنك إلى عيشة الذل والهوان، في عيشتها الأولى كانت ترعى زوج أمها الشيخ وأبناءه الشباب من زوجته الأولى. أمها كانت تغضّ الطرف عن مضايقات أبناء زوجها لابنتها. في البداية اضطرت إلى الزواج من الشيخ المسن، على الرغم من مخاطرة أن تدخل بيتاً يرتع فيه ثلاثة شبّان فى منتصف العمر، وهي معها عروسة. هكذا حذرتها أقرب جاراتها إليها، حيث قالت لأمها في ذلك اليوم: إزاي بس يا أم نادية تروحي تتجوزي راجل أكبر من المرحوم جوزك ييجي بعشرين سنة، ومعاه تلات شبان أصغر واحد فيهم عربجي وبيّاع "روبابيكيا"، وانتي معاكي بت صغيرة، مدورة وملفوفة؟ طب ستريها الأول، قبل ما تروحي أنتي تتنيلي.

هكذا كانت نصيحة الجارة التي لم تسمعها أمها، ومضت مستسلمةً معها إلى البيت الجديد. هجرتا سوياً بيتهما الذي بناه أبوها من تعبه وعرقه في السعودية، قبل أن يعود إليهما متوفياً في صندوق خشبي قطع فيه رحلته الأخيرة عائداً إلى البلدة التي غادرها مشدوداً على حيله، مخلِّفاً وراءه زوجةً ظمأى وطفلةً صغيرة متوثبة لأب يحملها على ساعديه، كانت تعرفه من خلال العيشة الأبّهة التي تعيشها مع أمها في القرية. أبوها يرسل لهما ما يتقاضاه شهراً بشهر. لم يوصِ أمها بشراء أرض أو بأي شيء آخر، فقط أوصاها أن تبني بيتاً، بيتاً كبيراً، من

ثلاث طوابق، أسفله محل تفتحه وتبيع فيه السجائر والبقالة البسيطة، الجبن وغيره. أمها لم تسمع كلامه: أنفقت الأموال على بناء حجرتين وصالة، ولم تتاجر بالسجائر والبقالة، بل تاجرت بجسدها، - كانت في الليل تستقبل رجالاً يقضون معها لياليها ويؤنسون وحدتها، وفي الصباح يغادرون، بينما يضمّون قبضتهم على نقود لها رائحة عرق أبيها.

٥٣

في الأيام الأولى التي قضيتها مع نادية، بعدما عرفت أنني لست طبيباً، إنما مجرد طالب في كلية الآداب، قسم التاريخ، نهاراً، ويعمل ليلاً أسطى تنجيد في ورشة لصناعة أنتريهات العرائس، كانت تحرص على أن تكتم أسرارها، فهي لم ترو لي ماضيها كله، بل كانت تُقطّر رواية التفاصيل، وتسترجع سنوات حياتها الثلاثين بتروٍّ، دون استعجال، كأنها شهرزاد، تخشى أن تستيقظ ذات ليلة فتجد سيفَ مسرور فوق جبينها أو على رقبتها. كانت تكره استعادة الليالي التي علّمتها فيها أمها، دون أن تدري، عظمة الشبق وعطشه وضرورة الارتواء، مثل الأرض التي كانت تتشقّق مصفرةً من ندرة الماء وشدة الجدب. كانت تلمح أمها تصرف أموال أبيها على شراء "كريمات" غالية الثمن تدعك بها جسدها طيلة النهار، بعدما تودّع عاشقاً من عشاقها العديدين، ظلّ يمتصّ رحيقها طوال الليل، فكأنها تعيد ترميم جلدها ومنحنيات جسدها ولحمه الذي ظلّ يتلقّى طعنات المتعة حتى الفجر، تروي

ظمأها بامتصاص ماء عشيق الليلة الماضية. تحرص أمها على حماية نفسها من الاصفرار والتهدّل. كانت نادية ترمق أمها مبهورةً باعتنائها بجسدها ورشاقتها وحبها لشبابها، كأنها فرعونة قديمة. منها تعلّمت هذه العادات: خدمة جسدها والاعتناء بتضاريسه ومنحنياته. في المساء كانت تتقدّم على أطراف أصابعها لتلصق أذنيها بباب حجرة أمها. كانت تسمعها تتأ لم، أو تضحك؛ تسمع أصواتاً ذكورية شبقة للرجل الذي يرافق أمها في الحجرة، فهو الآخر كان يصدر أصواتاً عجيبة لم تكن تجد لها تفسيراً في قاموسها الصغير. كانت تحسد الحيطان ومرتبة السرير وملاءته، لأنهم جميعا كانوا يطّلعون على ما تفعله أمها في هذه الليالي. لم يكن في الباب ثقب مفتاح يمكنها أن ترمق منه ما يحدث في الداخل. كانت أمها تحتاط جيداً، لكنها لم تسدّ مسام الباب الذي كان ينقل إليها أصوات غنجها.

٥٤

عندما عدنا من حديقة الأورمان مررنا على "الكبابجي". رمقنا الرجل بنظرةٍ مسترِيبة. حدّقتُ في عينيه بجرأة فأشاح نظراته المتفحصة عني وهو يبتسم لنادية ويقول: أؤمرى يا ست الكل.

قالت بثقة: انت عارف الطلب، زوّد بس عليه ربع مشكل.

"هذا هو قدري إذن: ربع مشكل" غمغمت في نفسي، ولم أتفوه بكلمة، بينما أتابع الحوار بينها وبين "الكبابجي" الذي عاد ليحدّق فيَّ بنظرات متفحصة كأنه يزنني ليتأكد من استحقاقي تناول الربع،

قبل أن يقول دون أن يضحك: وليه البعزقة دي يا غالية؟

مدّت إليه قبضتها مضمومةً على شيء يلمع، وهي تقول: ما تشغلش بالك يا حاج، آدي المعلوم أهه، المهم بس ما تتأخرش، أحسن جايين من مشوار بعيد، وابن خالتي أول مرة يزورني، عاوز يقول عليا إيه؟ مش بنت أصول!

تناول الشيء من قبضتها بحرفة ومهارة من اعتاد الحصول عليه، دون أن يتفاجأ، كأنه كان يتوقع أن تمدّ كفها به. احتوته قبضته، وفتح درج مكتبه بيده الأخرى وأسرع، بحركة خبيرة، يدسّه بين أوراق النقد المتراصّة في فوضى. هنا انعكست أضواء المحل على ذلك الشيء: لم تناوله نادية أوراق بنكنوت، كان المعلوم شيئاً غامضاً ملفوفاً في كيس سلوفان شفاف. لم أفهم كنه الشيء الذي ناولته نادية، لذلك خمّنت أنّ لديها الكثير من الأسرار تقتصد في كشفها لي. قال الكبابجي، وهو يغلق الدرج على الشيء "السلوفاني، مبتسماً: حد يقدر يقول عليكي مش بنت أصول؟ دي أنت ست الكل والله، أهلاً بالأستاذ ابن خالتك، عقبال ما توصلي وتريحوا هيحصّلكم الكباب السخن.

٥٥

خلعنا ملابسنا، بعدما أصرّت أن أصحبها إلى شقتها. كنت بعيداً عن شقتي منذ نقلتها إلى المستوصف. مرّت على تلك الليلة ثلاثة أيام؛ ثلاثة أيام كاملة قضيتها في شقتها، ما بين إخفاقات في الفراش وانقطاع عن الذهاب إلى الكلية؛ نهار نقضيه في النوم ونستيقظ آخره،

غير عابئين بما فات من ساعات. عوّدتني نادية أن تطهو طوال هذه الأيام الثلاث ما نأكله. كانت محترفة في الطبخ، أكلها كله دسم، صواني بطاطس باللحم مطهوة بالسمن البلدي، أو صواني مصقّعة بجانبها فراخ ومكرونة، أو صواني "تورلي" باللحم وبشتى أنواع الخضار التي تحتفظ به في ثلاجتها. كنت أشعر بحموضة شديدة عقب تناول الطعام، إذ لم أعتد تناول هذه الكميات المفرطة من الطعام الدسم من قبل، خاصةً مع عيشتي منفرداً، معتمداً على طعام المطاعم المحيطة بالجامعة: الفول والطعمية، أو البطاطس المقلية، أو الكشري، – هذه هي الوجبات التي كنت أتنقل بينها، لكن بمجرد تعرّفي إلى نادية، وبقائي معها هذه الأيام الثلاثة، تعرّفت إلى أنواع جديدة من الطعام لم أكن أظن أن بإمكاني تناولها في هذه الفترة السوداء من أيام حياتي التي كنت فيها طالباً بالنهار ومنجّداً ليلاً.

٥٦

أرسل الكبابجي صبيّاً يحمل العشاء. فتحت نادية الباب، غير متحرجة من ملابسها الخفيفة التي كانت ترتديها: قميص نوم قصير يصل بالكاد إلى ركبتيها، ويكشف رقبتها حتى أول شقّ نهديها، وتراوغ حمّالته اليمنى للسقوط من على كتفها، فتظهر قبّة ثديها البيضاء البضّة. تسمرّ الطفل وهو يناولها الكيس البلاستيك الذي تكثّفت داخله حرارة الكباب، مسلّطاً نظراته على رقبتها الطويلة وشقّ نهديها وتكوير أحدهما البارز. كنت واقفاً في الصالة أتأمل الصبي ونظراته البلهاء.

تركت نادية الباب مفتوحاً ومضت بالكيس إلى المطبخ، ثم مرقت منه إلى حجرة النوم، وعادت وفي يدها جنيهاً، ومدّت به ذراعها نحوه، فاهتزت "غوايشها"، بينما الولد واقف متسمّراً لا يريد أن يأخذ الجنيه ويمشي. "شخرت" نادية فجأةً، كانت المرة الأولى التي أسمعها تشخر، حقاً ثلاثة أيام غير كافية لأعرف عاداتها كاملة. ارتعد الصبي لشخرتها، ومدّ أنامله بسرعة وقبض على الجنيه واختفى في ظلام السلم. أغلقت الباب، ووجدتني واقفاً متسمراً أنا أيضا، لكن من قدرتها على الشخر. لم أكن قد شخرت من قبل. حتى في أعتى المدارس الثانوية التي انتظمت فيها كان المدرسون والطلبة المشاغبون يتبادلون الشخر عيني عينك أمام الجميع، وكانت مشاجرات تندلع بسبب شخرة، ولكنّي لم أجربها من قبل، كأنها خطيئة أخشى ارتكابها، على الرغم من أنني فعلت ما هو أبعد من الشخر. قالت نادية بينما تقبل علي وتطوّق رقبتي بساعديها البضتين: شوفت الواد، لسه ما بلغش، وواقف متنح؟

٥٧

كانت هذه المرة الأولى التي نأكل فيها طعاماً لم تطهُه في مطبخها. لا أعرف لماذا قررت أن تخالف عادتها وتطعمني "كباب" هذه الليلة. كانت تأكل في صمت. تتأملني ببسمة. أحمر الشفاه الذي تضعه على شفتيها لا يتأثر بلقم الكفتة أو الكباب. تلعق الطحينة على جانب شفتيها وهي تنظر إلي نظرات مغوية. لم أشعر بسعادة مثل هذه من قبل:

رفقتها، ونظراتها، وحركات يديها التي تمتد من المائدة الموضوع عليها صحن الكباب إلى فمها، سيقانها وفخذاها المنتوفان جيداً، إبطها البضّ وساعداها، كل تفاصيل جسدها كانت تدخل إلى قلبي البهجة. كنت منتصباً أثناء تناول الطعام لكنني أصررت على أن أكتم انفعالي كي لا ينتهي الأمر نفس النهاية المحبطة. فجأةً خرجت عن صمتها بقولها: أنت ليه مش بتدخن؟

ضحكت وأنا أقول: حاجات كتيرة ماعملتهاش قبل كده، على الرغم من أني خرّيج مدارس حكومية.

قالت وهي تهزّ شعرها، سارحةً ببصرها إلى الطعام الذي كفّت عنه فجأةً: جدع! فيه غيرك معرفش يكمّل في المدارس.

ثم حدجتني فجأةً بنظرة متسائلة وهي تقول: بس برضه كانت آخرتها إيه؟ أنت بتفكر تشتغل بشهادتك؟ قصدي مش بتفكر، تفتكر هتعرف تشتغل بشهادتك؟

قلت: ممكن، مدرّس تاريخ في أي مدرسة ثانوية أو إعدادية، أهو الكلام اللي انا اخدته، أرجع اطرشه تاني بتلتميت أو ربعميت جنيه في الشهر.

دوّت ضحكتها "مسرسعة"، مثل تلك التي أطلقتها في حديقة الأورمان، لكنني شعرت أنّ الجدران هذه المرة غير قادرة على احتوائها، عكس الهواء الطلق الذي تبعثرت فيه ضحكتها وسط ضجيج الكلاكسات وزقزقة عصافير الحديقة. لم أعرف سبب ضحكتها. راجعت ما قلته فوجدته غير مضحك. كففت أنا أيضاً عن الطعام، كان لا يزال هناك في الطبق "صباع" كفتة وقطعة لحمة.

قالت وقد قاربت ضحكتها على النفاد: تلتميت جنيه! معقولة يا حبيبي! تلتميت جنيه! تتمرمط وتقف على رجليك من الصبح لحد الساعة ٢ أو تلاتة، سبع حصص أو عشرة، في تلاتين يوم، وآخرتها تلتميت جنيه!

٥٨

بعد العشاء، غسلنا أيدينا وجلسنا نستريح من الضحك على "التلتمية". أعددت كوبين من الشاي، وفجأةً وجدتها تُخرج من بطن مطبخها الخشبي شيشة زجاجية أنيقة، مثل غانية ملفوفة القوام، منقوش على زجاجها رسومات عتيقة لرجال مفتولي الشوارب يجلسون فى "صهللة" يدخّنون "الجوزة". وقفت نادية أمام النار تشعل الفحم على البوتاجاز. جلبت الشيشة وخرطومها ووضعتها أمامي. كنت لا أزال جالساً على الأريكة التي في الصالة. ذهبت إلى المطبخ وعادت تحمل صندوقاً خشبياً مستطيلاً يحوي ١٠ حجارة فى صفين، خمسة وخمسة، كل حجر منها كان يحوي قطعة عشوائية من المعسّل، سوداء، قاتمة ناتئة الحواف. كنت أستطيع أن أشم دخان الفحم منبعثاً بقوة من المطبخ، وخشيت أن تمتد ألسنة النار إلى أي شيء قريب من البوتاجاز. قلت وأنا لا أعرف ماذا يجب أن أقول بالضبط: تحبّي أساعدك في حاجة؟ جاءت من المطبخ تمسك قطعة من الورق المقوى، وقالت وهي تلفّها وتصنع منها أنبوباً صغيراً بحجم عنق الحجر: انت تقعد زي الباشا، أنت ضيفي، ثم ختمت عبارتها بوضع الحجر في

قمة عنق الشيشة، وشدّت خرطومها ووضعت أنبوبها المعدني في فمه، وجذبت نفساً قوياً. ترجرج الماء وأطلق قرقرته المعهودة. رفعت شفتيها عن أنبوب الشيشة ومضت نحو المطبخ، ثم عادت تقبض على قطعتي فحم بواسطة "ماشة" القهوجية وضغطتهما على رأس الحجر، ثم التقطت الخرطوم مرة أخرى ووضعت الأنبوب على شفتيها. جذبت نفساً. قرقر الماء. وقبل أن تطلق نادية دفقة طويلة من الدخان رمقتني وعيناها تتآلقان بنظرةٍ ساهمة، ثم مدّت نحوي الخرطوم. ضحكت وأنا التقطه منها. عادت نادية إلى المطبخ لتراقب باقي الفحم الذي أخذ يطلق طرقعات تنمّ عن تشقق مسامه أثناء اشتعاله.

٥٩

شددت نَفَساً، فارتجف الماء. لم يكن لشدتي أثرٌ قوي مثل شدة نادية. شددت أكثر فتوهّج الفحم فوق المعسّل، واحترقت نتوءاته العشوائية المدببة والتمعت بوهج النيران. شعرت بطعمه في صدري. كتم أنفاسي بغتةً. انتفضت رئتاي بين ضلوعي كما لو كانتا تبحثان عن مخرج بينها، بينما الدخان يسدّ ممر قفصي الصدري. سعلت بشدة، وقفزت الدموع في عيوني. شعرت أن الدماء قد هربت من الدخان الذي فوجئت به يعمّ صدري إلى عروق وجهي. سقط خرطوم الشيشة فجأةً حين رفعت أصابعي لاإراديا إلى عينيّ لأكفكف دموعهما قبل أن تلمحها نادية التي كانت في المطبخ، فمرقت بسرعة إلى حجرة النوم، وهي تسمع سعالي، ثم عادت وهي ترمقني بنظرات منتصرة، فعاودتُ

الإمساك بخرطوم الشيشة متظاهراً أنني لم أُصب بأي ضيق تنفس. رفعت نادية شيئاً طويلاً يشبه الصلصال وملفوفاً بورقة سلوفان مثل تلك التي أعطتها للمعلم، وقضمت منه قطعة بأسنانها، وأعادت لفّ السلوفان على باقي "الصباع"، كما عرفت اسمه فيما بعد، وأمسكته بكفها اليسرى، فيما أصابع كفها اليمنى تدسّ في حرص القطعة التي قضمتها بأسنانها أسفل قطعة الفحم، ثم أمسكت بالماشة وعاودت الضغط عليها كي تدسّها أكثر في "حجر المعسل"، وأمرتني بحزم وهي تفعل ذلك: "شدّ نفس جامد"، ففعلت كما طلبت، فتألقت قطعة الفحم المشتعلة وتوهجت مسامها بلون النيران البرتقالي، وإن كنت قد شعرت أنّ الأنفاس التي تدخل صدري الآن ممتزجة بنكهة مختلفة لها طعم البهارات "حراقة". جذبت أنفاساً أكثر، وهي لا تزال تقف أمامي وابتسامتها تتّسع وتتألق، ووجهها يزداد نوراً، وملامحها تقترب من وجهي على الرغم أنني لم ألمحها تتحرك. سألتها في فضول: إيه دا اللي انتي حطيتيه في المعسل؟ ردّت في جزل: مش طعمها دلوقتي بقى أحلى؟ لم أردّ بسرعة لأختبر ما قالته. شعرت براحة نفسية مباغتة، وشجاعة أكثر من ذي قبل مع الشيشة، خرطومها كان في كفي أشبه بقيثارة، أنبوبها المعدني كان بين شفتي أشبه بشفاه نادية الممتلئة. لا أعرف سبباً لهذه المشاعر المباغتة التي اجتاحتني، فقلت لها ضاحكاً فجأةً: أنتي حطيتي جوزة الطيب ولا إيه؟ انحنت عليّ وقبّلتني في شفتي اللتين تحتضنان أنبوب خرطوم الشيشة، ثم جذبته من فمي، وشدّت نفساً قوياً، وأطلقت الدخان في وجهي، وهي تقول: دا يا حبيبي حاجة أحسن من جوزة الطيب، طبيعي ومفعوله أقوى.

٦٠

رخاوة في أعضائي؛ خدر في ذراعَي وفي أطرافي؛ تنميلة في أصابعي. حاولت أن أقف لأقاوم هذه الأحاسيس فانتابني دوار مفاجئ. نظرت فوجدت الأشياء واضحة وقريبة، كأنّ عينيّ وثبتا من رأسي واقتربت من الحيطان. خذلتني ساقاي فجأةً فجلست ("تهاويت" هو وصف أقرب). هكذا كانت مشاعري الأولى بعدما انتهيت من خمسة أحجار دسّت نادية في كلٍّ منها فصّاً من صباع الحشيش الملفوف بورقة السلوفان الحمراء؛ نعم حشيش! نادية اختصرت معي ١٠ سنوات من مغامرات "الصعلكة" في ليلة واحدة عندما علّمتني للمرة الأولى تدخين الحشيش فى الشيشة، وفي الليالي المتعاقبة كانت تعلّمني كيفية لفّ السجائر، فكانت تفرّغها من تبغها على سطح مستوٍ، – ورقة، كرّاسة، ترابيزة ناعمة، أو طبق، – ثم تفرك بأناملها قطعة الحشيش التي تقضمها من الصباع بأسنانها، مع التبغ، وتعيد حشو ورقة البفرة بالمزيج. كنت أراقبها مدهوشاً. فيما سبق لم أكن أرفع عيني عن نهديها أو ساقيها أو فخذيها الممتلئين، لكني هذه المرة كنت أتابع أصابعها وهي تعمل بسرعة حاوٍ. سألتها في فضول: أين ومتى وكيف تعلمت هذه المهارات؟ أنتي جبّارة، خطيرة، يخرب بيتك. لا تجيب. تنظر إلي، بينما تمرّر لسانها على طرف ورقة البفرة، وترمقني بإيماءات مغوية بينما لسانها يمرّ على أطراف الورقة، كأنها تعطيها قبلة الحياة، لتكون سيجارة صالحة للتدخين، تختمها بختم الغلق، لتأمين الحشيش من الضياع، ثم تمدّها لي مثل الخادم المطيع الذي يحرص على إرضاء سيده. كانت سعادتها تظهر على ملامحها بينما

تراني أدخّن السيجارة وأنتشي. أسمع من أسطوات ورشة التنجيد أنّ الحشيش يحلّق بالمحشش في السماء، وقد أدركت ماذا تعني هذه الكلمة، فقدميَّ كانتا متثاقلتين، حينما أحرك إحداهما كنت أشعر بها بملمس الأرض أسفلها، لذلك كان عقلي يتحرك أسرع، ونظري احتدَّ فجأةً، فصرت أرى الأشياء البعيدة بوضوح، - هذا هو معنى التحليق، بالإضافة إلى السعادة المباغتة التي حطّت علي: قدْرٌ كبير ومفاجئ من التسامح؛ زال فجأةً غضبي تجاه كتب التاريخ وعبد الرحمن الرافعي ورمضان، ووددت لو أحتضنها. قلت ضاحكاً لنادية: إيه رأيك تذاكري معايَ؟ ضحكت، وقد أدركت هذياني، وقالت: وماله؟ المرة الجاية هات كتبك هنا، وخليني أقرا معاك اللي هيخليك مدرّس بتلتماية. ثم أطلقت ضحكة "مسرسعة".

٦١

قوة مباغتة؛ فحولة مجهولة المصدر حطّت هي الأخرى عليّ؛ انتصاب متواصل دام أكثر من نصف ساعة؛ نادية ترتعش أسفلي مثل مريضة بالحمى؛ ارتجفت أكثر من مرتين؛ أطلقت صرخات ذكورية بينما هي ترتعش رعشة الجماع؛ صرخاتها كانت أشبه بتآوهات فتاة تتعرض لعملية ختان مجحفة؛ كان ساعداها يضغطان على خصري بينما تطلق الصرخات؛ كفّاها تتشبثان بي كما لو كنا نمتطي دراجة وتخشى السقوط؛ أظافرها مغروزة في لحمي، - لا أعرف سر القوة الجنسية التي باغتتني فجأةً، فآخر ما أتذكره هو أننا، بعد تدخين الشيشة

وسجائر الحشيش، رقصنا رقصاً بطيئاً مترنّحاً، بعدما وضعت في المسجّل شريطاً به أغانٍ لم أسمعها من قبل، كانت إحداها تقول: "لحد إمتى، لحد إمتى، لحد إمتى هفضل حزين، وأشيل في قلبي، وأسكت وأخبّي، وأداوي لإمتى جرح السنين"، وبينما كنّا نرقص على الأغنية كانت دموع نادية تسحّ، لا أعرف لماذا. احتضنتها بينما كنا نترنّح، وقادنا الترنّح المتواصل إلى حجرة نومها. كان المطرب يصدح في أحد مقاطعها بقوله: "كل قلب وله حبيب إلا قلبي، كل جرح وله طبيب إلا جرحي، كل ليل وله نهار إلّا ليلي، كل سكّة بامشي فيها يتوه دليلي، كله مرتاح إلا أنا، ليه يا دنيا دايماً أنا"، في هذه اللحظة ارتمينا على الفراش، وكانت دموع نادية لا تزال تنهمر، كأنها تذكرت عزيزاً عليها. انحنيت على نهديها وأخذت في تقبيلهما، ثم خلعت ملابسي، وباعدت بين ساقيها. كنت سعيداً ومنتشياً، فيما أتى أثر الحشيش على نادية، كأنها تناولت فحل بصل، فانهمرت دموعها بغزارة، لكننا توحدنا بعد ذلك، وحلّقنا معاً. كنت في البداية أقبض على كفّيها، أصابعي تحتضن أصابعها، ثم لم تلبث أن بدأت ترتعش، للمرة الأولى، أسفل جسدي، فوجئت بخلاياها التي كانت متعطشة لماء اللذة ترتوي الآن ومسامها تتفتح، ولسانها يلهج بالآهات، قبل أن يطلق صرخات متعاقبة، صرخات ألم ولذة لم أعرف كيف استطاعت أن تمزجهما بهذه القوة. كانت سعادتي لا توصف، بينما نادية ترتوي وترتعش للمرة الثانية، فيما أنهار مائي تأبى أن تفاجئني مثلما كانت تخذلني فيما سبق، شعرت كأنها انزوت إلى ركنٍ سحيق داخل جسدي، محبوسةً في مكان ما في ظلمة أعضائي، وكان انتصابي مستمرّاً، والأشياء

أسفلي كانت كلها تتحرك بتأنٍ: نادية، ألواح وقوائم الفراش، حتى الحيطان، كنت أشعر أن الجميع يعزف نفس المعزوفة الجنسية، فيما أقف بينهم مثل المايسترو، صامداً، يحرّك أطرافه، فتستجيب آلات النفخ والأبواق، وتدقّ الطبول.

٦٢

حينما عاد أبوها من غربته في صندوق خشبي متهالك وكئيب، لم تستطع أمها مواصلة اعتنائها اليومي بجسدها، ودهنه بما يبقيه نضراً وغضّاً، واستقبال عشّاق المساء، خاصةً بعدما اشتدت الأعين عليها وحاصرتها الهمسات، التي صارت تلميحات، ثم أصبحت زفرات حانقة، في وضح النهار. البلدة كلها بدأت تعترض على سلوك أمها. تتذكر نادية هذه الأيام السوداء، تتذكرها بالدموع، تستلقي على ظهرها عاريةً، وبين شفتيها الممتلئتين سيجارة الحشيش الملفوفة بعناية؛ دموعها تسحّ، وتحكي في بطء. توقّف المدد الذي كان يرسله أبوها، ثم لم يلبث أن جاءت سيارة "بوكس" تنقل جثته إليهم في البلدة. فاعلو الخير شحنوا جثته بعد وفاته في الغربة، وعملوا بوصيته، وهي أن يُدفن في بلدته، في موكب جنائزي كئيب نظراً إلى خلوّه من المشيّعين. أهالوا التراب على أبيها. لم تفهم نادية سبب جمود أمها التي لم تذرف دمعةً واحدة على الرجل الذي أنجب من لحمها طفلة في جمالها واستدارتها، هي الوحيدة التي كانت تبكي على أبيها، ربما كانت تستشعر الهوان القادم، تشعر بالذل الذي تدخّره أيامها. أيام وبدأت

نساء البلدة يتعاملن مع أمها على أنها "نداهة رجال محلة مرحوم"، بدأن في التلقيح، وقذفنها بالشتائم والسباب من تحت لتحت، خاصةً بعدما أدركن أنّ أم نادية صارت خطراً واضحاً على أزواجهن، فما كانت تمارسه في الليل من قبل ستمارسه الآن في كل ساعات اليوم. أمها من جانبها كانت تشعر بالخطر، ليس خطر تحرّشات أهل القرية بها، بل خطر نفاد التحويشة الأخيرة، فقد كان ما تبقّى معها قليلاً، و لم تتوقّع وفاة الرجل المباغتة، بل تكلفّت مصاريف دفنه، والودّ ودّها أن تتركه في العراء، تلتهمه غربان "محلة مرحوم"، بعدما فاجأها بموته. لم تدرِ ماذا تفعل، وكيف تتصرف، بعدما وجدت نفسها بلا مصدر دخل فجأةً. في ذلك الصباح جاءتها الفكرة: قررت أن تعرض نادية للبيع في سوق المدينة! كانت فكرة مجنونة، وغير مضمونة الجانب، لكنها قررت أن ترتدي أسوأ ملابسها، وتربط نادية بحبل غليظ من معصميها، وتجرجرها من شعرها إلى ساحة السوق، وتعرضها للبيع، بجوار بياعة الخضار والجبن القريش وبائع البطاطا.

٦٣

عندما فوجئ أهل "محلة مرحوم" بأم نادية وهي تجرجر ابنتها إلى السوق مثل "المعزة"، شهرت أمها عليهم الصوت العالي بشخرة مزلزلة استخدمت فيها أوتار حبالها الصوتية على أشدّها، قبل أن تقول بملء فمها: أيوه يا بلد يا كحيانين، يا أوساخ، بتتهموني أني ببيع لحمي عشان آكل نفسي واتأود أنا وبنتي، طب متضايقين أني ببيع

لحمي، حقكوا عليا، أديني هابيع لكم بنتي أههو، عشان تنبسطوا.

وقف الجميع حولها مذهولين، أخذ بعضهم يضرب كفّا بكف، والبعض الآخر يصرخ فيها بقوله: يا ولية يا خرفانة، رايحه تبيعي بنتك زي المعيز، داهية تاخدك. فيما تجاهلتهم أم نادية، وهي تجلسها القرفصاء وتعلّق في رقبتها ورقة كرتون كتبت عليها: بنتي للبيع، تشتغل خدّامة، تشتغل غسّالة، تشتغل طبّاخة، تشتغل زي ما تشتغل يا بلد عرة.

ظل الناس يروحون ويجيئون، والبلد تتناقل القصة من فم لفم، الكل نسي ما جرى في مصر من ضرب نار في الخلق، بعدما اشتعلت المظاهرات، بعد رفع الأسعار. كانت الأخبار تقول إن الجيش في كل مكان، طوّق القاهرة وسيطر على المظاهرات التي ضربت نارها كل مكان خلال يومين. لا أحد يعرف كيف اشتعلت نيران الغلاء بعدما أعلن الرئيس رفع الأسعار. لم تعرف نادية ما كان يجري في البلد؛ كل ما تتذكره هو أنّ أبيها سافر بعد الحرب، وأمها كانت تتحدث بكلمات عن ما يسمى انفتاح، والفلوس التي تجري في أيدي الخلق، ما عدا أبيها الذي اضطر للغربة، لكن كل شيء اشتعل بغتةً؛ المظاهرات اشتعلت ناراً في البلد طولها وعرضها، وأمها لم ترحمها من برودة يناير، قادتها مثل النعجة، مربوطة بحبل، إلى السوق. كانت بالكاد قد بلغت العاشرة من عمرها، لكنها لن تنسى هذه الواقعة أبداً؛ لن تنسى أبداً كيف ربطتها أمها مثل المعزاة، وعلّقت في رقبتها ورقة كُتب عليها "صبية للبيع، خدامة تشتغل، غسالة تشتغل، طباخة تشتغل يا بلد ياعرة".

عادت الأسعار إلى ما كانت عليه، وعادت نادية إلى البيت مع أمها مساء ذلك اليوم، وهي تكرهها وتودّ لو تسكب "طاسة" زيت مغلي على وجهها أثناء نومها. ظلت تبكي في صمت، وأمها تصرخ فيها: اخرسي يا فقرية يا بنت الفقرية، مش عاوزة اسمع حسّك. لكن نادية لم تتوقف، وظلت تبكي طوال الليل، ونامت بمعدة خاوية. كانت أمها تقول: "ملعون أبو اللي جابك. فقرية من سنتك، يارب تحصّليه في تربته، داهية تاخدك".

لكن دعوات أم نادية لم تُستجب بهذه الطريقة، بل جاء الفرج في اليوم التالي، عندما فوجئت بأمها تجمع أمتعتهما وتلمّ مقتنياتهما الفقيرة، على بؤسها. كانت إحدى الجارات تقول لأمها: معقولة يا أم نادية تتجوزي الراجل دا وأنتي عندك عروسة عندها عشر سنين؟ طب اصبري علي نفسك، دا عنده ٣ شبان أصغرهم سريح روبابكيا، وأنتي معاكي بت عروسة، ملفوفة ومدورة، تروحي إزاي تتنيلي بس، وبنتك صغيرة.

كانت أمها تردّ على الجارة، وهي تحزم الأمتعة معدومة القيمة: كتر خيره الشيخ إنه عرض يجوزني ياختي، كمان ولاده الشبان مالهم ومال بنتي، بنتي عندها عشر سنين يدوبك لسه دمها ما نزلش.

لم تفهم نادية ما قالته أمها لكنها انتقلت معها، كما شاءت، إلى بيت الشيخ العجوز. لم تفهم إن كانت تزوجته أم انتقلت لتمرّضه، خاصةً أنه كان طريح الفراش، وداعب رأسها بيد واهنة من تحت أغطية كثيرة، ورأت جسده الذي قدّرته نادية ضئيلاً، بعدما رأت جلد ساعده

المنكمش على عروقه الزرقاء النافرة وعظمه الضعيف. كانت أمها تدفعها من ظهرها وهي تقول لها: سلّمي يا نادية على عمك سالم، بوسي إيده يا نادية على كرمه وقلبه الكبير.

٦٥

في العام الذي ولدت فيه نادية فقد عم سالم اثنين من أبنائه في النكسة، كانا معاً في سنّ التجنيد. أكبر أبنائه، مصطفى، التحق بالجيش عام ١٩٦٦، ولحق به شقيقه إسماعيل في العام الذى يليه، قبل شهر من اندلاع الحرب، وتركا مسؤولية زراعة فدادين والدهما الخمسة، التي حصل عليها من قانون الاستصلاح الزراعي، إلى أشقائهما الثلاثة. لم يعرف عم سالم مصير نجليه إلا بعد ستة أعوام، حينما اندلعت الحرب الثانية. هذه السنين العجاف لم يحكِ حكايتها لنادية عم سالم نفسه، الذي تزوجته أمها وهو فى أيامه الأخيرة. كان عم سالم يظن أنه يسترها هي وابنتها بالزيجة، أولا يستحقون الستر؟ إبراهيم، الابن الثالث لعم سالم، هو الذي قصّ حكاية شقيقيه لنادية، في الليالي التي بدأ يربّيها على يديه. كان شقيقه الأكبر (وهدان) قد تكفّل بزراعة الفدادين الخمسة بعد شقيقيه إسماعيل ومصطفى، لكنه تعثّر في معاملة التجار، واستدان، وتوقف موسماً عن زراعة الأرض، فشاخت وجفّت عروقها. كانوا جميعاً ينتظرون أي خبر عن الشقيقين اللذين التهمتهما الحرب بلا سبب، بلا أي مكسب عاد على أبيهما الذي بدأ يهرم وظهرت عليه إمارات العجز فجأةً، ثم اندلعت الحرب الثانية،

ومرت شهور قبل أن يتلقوا جميعا النبأ الصادم، حينما هاتف عمدة "محلة مرحوم" عريف من الجيش الثالث يعلمه بالعثور على جثمانَي مصطفى وإسماعيل سالم، ويطلب فيه إخبار والدهما بالاستعداد لتلقّي رفاتهما. يومها سقط الأب من طوله. كانت فرحته باندلاع الحرب فقط على أمل تحرّر نجليه من الأسر، لم يظنهما توفيا أو استشهدا، على الرغم من انقطاع خبرهما منذ ٦ سنوات. في ذلك اليوم الذي جاءت فيه عربة الجيش الكئيبة تحمل صندوقين خشبيين متهالكين اكتملت مصيبة الأب، حينما تحسس الأكفان البيضاء التي حوت عظام ولديه. قال الضابط وهو يمدّ يده له بدفتر وقلم ليوقّع بالاستلام: الله يرحمهم يا حاج سالم، عيالك أبطال، الإسرائيليين ولاد الكلب دفنوهم بهدومهم في مقبرة جماعية، لولا الماركات اللي على رقابهم ما كناش عرفنا هم مين، الله يرحمهم بقى سمدوا تراب بلدهم ست سنين.

٦٦

يحكي إبراهيم سالم لنادية بينما يهدهدها على حجره ويطوّق جسدها الصغير الفائر: أبويا وقع من طوله، ست سنين ولاده بيسمدوا تربة بلدهم، طب ما كانوا عتقوهم، يفلحوا ويزرعوا فدادين أرضهم الخمسة، مش كان أفيد لهم والنبي من رجوعهم هياكل عضم.

مصائر أهل "محلة مرحوم" كلها متشابهة، فمثلما تلقت نادية أبيها في صندوق خشبي تلقّى عم سالم جثامين ولديه في صندوقين، الفارق أنّ الولدين قضيا في حرب قُتلا فيها غدراً، قبل أن يطلقا

رصاصة واحدة من بنادقهما، فيما مات أبوها في غربة لا يعرف لماذا اضطر إليها، على الرغم من انتهاء الحرب، والكلام الكثير عن الخير المرتقب. ذهبت سنوات الحرب الست، وأعقبتها سنوات الكلّ يصفها بالخير، لكنها كانت أنكى من سنوات الحرب. وهدان أهمل أرض أبيه، وتآكلت مساحاتها تدريجياً، وبدأ الأشقاء الثلاثة يتصرفون في الفدادين الخمس ببيعها قراريط تلو قراريط. عم سالم كان طريح الفراش تماماً، لا يعرف شيئاً عمّا يجري حوله، وكان بحاجة لممرضة، أو زوجة، ترعاه، إذ وزّع الأشقاء الثلاثة وقتهم بين بيع الروبابكيا وتجارة الخردة وتجريف قراريط من فدادينهم، ثم عرفوا طريق الحشيش الذي انتشر بكثرة ووفرة بعد الحرب، وبدأوا يعقدون قعدات المزاج التي أفلستهم تدريجياً. دخان نرجيلاتهم كانت تتسلل إلى حجرة أبيهم، فلا يصدّق ما يشمّه، ينسطل ويشعر أنه يحلم، ويغلبه النوم، وتتلقفه أحلام أنّ ولديه عادا من غيبتهما، يفلحان أرضه ويزرعانها ويحصدان خيراتها، إلى أن جاءته الشدة الكبرى ذات ليلة، حيث استيقظ الأشقاء الثلاثة على سعال أبيهم الشديد؛ سعال يتبعه زبد يتدفق من فمه مثل كلب يحتضر. احتار الأبناء الثلاث، وبينما هم يغالبون انسطالهم وتأثير الحشيش، ويتخبطون فى الحيطان وهم يهرعون إليه، كحّ أبوهم دفقة دماء مباغتة لوّثت فراشه وبطاطينه. ارتاع وهدان وإبراهيم، وأسرعا إلى الوحدة الصحية بالقرية، واستدعيا طبيبها الذي أسرع يحقن أباهم بمضادات حيوية، ثم باغت الأبناء الثلاثة بقوله: أبوكم بحاجة لرعاية خاصة، إما تستأجروا ممرضة ترعاه هنا، أو تنقلوه فوراً إلى الوحدة الصحية.

قاطعه عم سالم على الرغم من شدة مرضه: كلا، لن أذهب إلى أي حتة، سأموت على فرشتي، هو فاضل لي حاجة، أنا خلاص يا دكتور، قدّر الله وما شاء فعل.

٦٧

من الممرضة التي قد تقبل رعاية أب عجوز له أبناء أصحاب مزاج مثل وهدان وإبراهيم؟ من؟ تنتقل أم نادية إلى بيت عم سالم، ليسترها هي وابنتها مثل الولايا، مقابل أن ترعاه كزوجة، وتداويه وتمنحه الدواء، في لياليه الأخيرة. عثر أبناء عم سالم على بغيتهم في أم نادية. البلد تعرفها مومس محترفة، وتلعنها، وترصد كل المترددين على بيتها، منذ كانت زوجة عطشى. الآن يستطيع الشبّان الثلاثة أن يقضون وطرهم من أم نادية كل ليلة وهم مطمئنون إلى أن ألسنة "محلة مرحوم" ستنقطع عنهم وعنها، فهم ستروا عليها وعلى ابنتها من جهة، ومن جهة أخرى يواقعونها كل ليلة بالتناوب. ومع ثقة أهل البلد فيما يحدث، لكنهم لن يفتحوا أفواههم بكلمة، إذ من في كرم عم سالم، الذي وافق أن يأويها وهي تبيع ابنتها في السوق، والجيش في الشوارع يقبض على رقبة البلد بقبضة من حديد، ورئيس البلد يصف الشعب الثائر ضده بالحرامية: الظروف ليست مواتية للكرم، لكن بيت عم سالم يتّسع، على الرغم من الضيق الذي حلّ عليه، بعد فقدانه ولديه وبعض فدادين أرضه التي منحها له عبد الناصر بعدما انتزعها من كبار أعيان "محلة مرحوم".

من اللحظة الأولى التي خطت فيها أم نادية بقدمها اليسرى إلى بيت

عم سالم، زوجةً شرعية له على سنّة الله ورسوله، كانت تعرف أنها لن تهجر ما كانت تفعله في بيتها كل ليلة: ستكون مومساً وممرضة في آن واحد؛ ستعطي القرصين للرجل، وفي المساء ترعى ذكورة الشبّان الثلاثة وشهوتهم المتأججة وقعدة مزاجهم. بدأت نادية ترى بعينيها ما كان يحجبه الباب الذي كانت أمها تغلقه على نفسها وعلى عشيقها الذي يغادر فى الصباح ويده مقبوضة على أموال لها رائحة عرق أبيها. نادية وأمها اشتركتا في خدمة قعدات المزاج التي يعقدها أبناء عم سالم في منزله مع انتصاف الليل حتى مطلع الفجر: تسعى أمها بين الشبّان الثلاثة،بملابسها الخفيفة التي تكشف ثدييها وإبطها واستدارة أردافها وساقيها؛ تغيّر ماء النارجيلات وتسلّك "البوص" وتنظّف الحجارة وتعبّئها بالمعسل، فيما تقف نادية أمام منقد النار، تهوّي على الفحم كي تتأجج شعلته. "غرزة" هما خادمتان فيها، خادمتا مزاج الشبّان الثلاثة.

٦٨

يموت عم سالم فجأةً بعد سنوات، لتكتشف أم نادية المأزق الذي يعود لتهديد وجودها في البلد التي لا تريد أن ترحمها، فقد كانت تضاريس نادية آخذةً في التشكّل، مثل صلصال، أصابع وهدان وشقيقيه عبثتا فيها عدة ليالي، وإن لم يجرؤوا على أن يتجاوزوا إلى بوابتها. أمها كانت تروي ظمأ شهوتهم، لكنّ وفاة أبيهم المباغتة قلبت كل شيء رأساً على عقب. في البدء تجاهلوا الأمر برمّته، وواصلوا برنامجهم

اليومي: النوم طيلة النهار، أو الخروج لعقد صفقة تجريف فدان من الفدادين التي تآكلت إلى ثلاثة. مع مجيء عهد السلام المبرم على دماء أشقاءهم، زارهم شاب ملتح يرتدي جلباباً أبيضَ قصيراً؛ حدّثهم بلغة صارمة. سمعت نادية كلماتٍ قليلة من الشاب الذي كان يداعب لحيته متوتراً، بينما يتحدث بلهجة أقرب إلى الغضب، كأنه يستند إليها ويستمدّ قوته منها. كان الشاب يقول لوهدان: الله يرحم أباك يا وهدان، الست أم نادية تشوف حالها، خصوصاً أنها أرملة عم سالم، ولا مبرر لبقائها في خدمتكم من هنا ورايح.

بوغت وهدان من لهجة الشاب، فهو لم يعتد أن يتحدث معه أحد بهذه الطريقة، خاصةً مع علم أهل البلد بحاله عندما يستيقظ على غير إرادته، بعد ليلة يرتفع فيها مزاجه إلى السماء السابعة. فجأةً، ودون أن يتوقع الشاب الملتحي، هوى وهدان بكفه على صدغه ودفعه إلى الخلف، فسقط الشاب الملتحي على ظهره. هو أيضاً لم يتوقع رد فعل وهدان، على الرغم من علمه بثقل مهمته، ولكن كيف له ألاّ يغيّر المنكر، ولو بلسانه. في كل الأحوال، هو لن يستطيع أن يصمت.

٦٩

تتوقّف نادية عن قصّ حكايتها عند العام الذي تزوجت فيه بإبراهيم سالم؛ تتحجّج بأنني يجب أن أعود إلى دراستي، لا يجب أن يعطّلني الحشيش عن شيء، - هكذا تقول نادية. كنت أشعر أنها تهذي. تضيف: المهم الآن دراستك.

لم أحبّذ الفكرة. مرّ أسبوع تغيبته كله عن الكليّة، وعن شقتي المواجهة لشقة جيراني الثلاثة الذين يرجع إليهم الفضل في تعرّفي إلى نادية. كنت مطمئناً في الحياة الجديدة التي أحياها معها، لكنها أجبرتني على النزول ذلك الصباح، خاصةً مع ارتدائها ملابسها واستعدادها للخروج. استربت، شعرت أنها ترغب في قضاء مشوار تتكتّم أمره؛ مصلحة تريد أن تقضيها؛ زيارة عائلية ربما، أو ربما اشتاقت للعودة إلى أحضان جيراني الثلاثة. لم يخطر ببالي مثلاً أنها متوجهة لجلب التموين المعهود من الحشيش. لم أستطع كتمان ضيقي؛ فقد كانت علاماته بادية على وجهي. عبست فجأةً. انسكبت أكواب قلّة المزاج على ملامحي. سأعود إلى الكآبة مرةً أخرى: جامعة، كتب التاريخ، عبد الرحمن الرافعي، الدكتور رمضان، ووفاء. كنت مثل الخفاش الذي يضطر للخروج من كهفه، لكن في وضح النهار، والشمس فى كامل اكتمالها.

ذهبت إلى الكلية ذلك الصباح، مغمض العينين، مثقل الخطوات، تلسعني حرارة الشمس، على الرغم من أنها كانت شمس "يناير" المكسوة ببرودة "طوبة". كدت أخلع "البلوفر" القديم والقميص الداكن الذي لم أغيّره منذ الشتاء الماضي، فأنا أرتديه صيفاً بدون البلوفر، وأرتديه شتاءً تحته. اقتربت مثل الغريب من قاعة المحاضرة التي نسيت موعدها، كنت أظنها ستبدأ في العاشرة، فوجدتها مستمرة منذ الثامنة صباحاً، وقاربت على الانتهاء. قلت في نفسى: "ياه! استيقظوا مبكراً، وأتوا من بيوتهم، والصبح لم يتنفّس بعد، ليستمعوا إلى هراء المؤرخين! ما أجمل التاريخ حينما يمتزج بقصص وحكايات

نادية! منها عرفت أن جمال عبد الناصر وزّع على الفقراء فدادين الإقطاعيين الذين ربّاهم محمد علي فى صبر وأناة، ومنها عرفت أنه عاد وانتزع الفقراء من الأراضي التي منحهم إياها، وعبّأهم في طوابير الحرب، وألقى بهم في مواجهة "النابالم" ليبتلعهم فكّ الموت الشره، في معركة "الكاريزما" والسطوة وفرض النفوذ، مثله مثل محمد علي الكبير، الذي انتزع الفلاحين من أراضيهم، وأرسل مشايخ القرى ومأموري المراكز لخطف الرجال من قراهم، وأجهض محاولات هروبهم المستمرة من التجنيد، حتى كوّن جيشه الجرار. كنت قد وصلت إلى منطقة ظليلة، وأنا أفكر في مصير المصريين الذين زجّهم محمد علي في حربه في أرض اليونان والحجاز، ثم في حربه ضد الباب العالي، وكذلك مصير الرجال الذين زجّهم عبد الناصر إلى سيناء، ثم طار من عليهم الغطاء ذات يوم، وانسحقوا في يوم حار من أيام يونيو.

٧٠

أدخّن سيجارة عادية، فقيرة، خالية من "تعميرة" سجائر نادية التي كانت تترك عليها آثار شفتيها، سيجارة فقيرة، مهما حرقتها لا تمنحني متعة سجائر نادية. كانت المحاضرة قد انتهت، وأبواب قاعتها تفتح، ظهرت وفاء في رأسي قبل أن تظهر على باب القاعة، لا أعرف كيف جاءت ببالي، جلستي وحيدا مع سيجارة لا تلبّي احتياجاتي زجّت بوفاء إلى عقلي. رنوت نحو باب القاعة. بدأ الجميع بالمغادرة. كان رمضان يقف وسطهم، كرشه لم يكن قد تشكّل بعد، وملابسه كانت

مهندمة، وقف يجيب عن أسئلة بعضهم. أرسلت نظرة ساهمة نحو الجميع. لمست نظراتي هناء، صديقة وفاء المقربة، فلوّحت لي محيية. هززت رأسي في فتور، محيّياً. غابت فجأةً، ثم عادت وبصحبتها وفاء. لم تكن إذن ضمن المجموعة الملتفّة حول الدكتور رمضان، الذي ترك الجميع من حوله وأرسل نظرات متتبعة لوفاء، بينما تتجه نحوي. اصطدمت نظراته المترقبة كالصقر بنظراتي الساهمة اللامبالية. تغيّرت ملامح وجهه بغتةً، وظهرت فيها سحب داكنة. انقبض وجهه وارتعش جلد خديه. لم أستطع أن أفسّر أسباب تغيّر لون وجهه، بينما وفاء تقف فجأةً أمامي وتهتف بي: مراد، كنت مختفي فين؟

شعرت بالسعادة فجأةً عندما لحظت اهتمامها. لم أكن أظنها ستستقبلني بهذه الحميمية. قلت في جرأة ساعدتني عليها بقية من سيجارة أمس: وحشتك؟

احمرّ وجهها فجأةً. لم نكن قد تصارحنا تماماً. قالت: بقالك شهر غائب عن الكلية، إيه الحكاية...؟

قاطعتها: شهر؟ هو كلها أسبوع.

قالت في إصرار، وهي ترفع حاجبيها وتضع كفيها فى خصرها، كما تفعل كلما أصرت على رأيها: أسبوع؟ أنت أكيد كنت مسطول، بقالي شهر بالتمام والكمام مش عارفة عنك خبر ولا أعرفلك نمرة تليفون، أرضي أو محمول؟ إيه الحكاية؟

لم تبتعد عن الحقيقة، فعلاً كنت مسطولاً، لكنني كنت مبهوتاً أيضاً، كنت أحدّق في ملامحها والدهشة بادية على وجهي، ما تصوّرته أسبوعاً كان شهر كاملاً، كيف ذلك؟ أين ذهبت الأيام خلال هذه

الفجوة الزمنية؟ هل ابتلع أيامي ثقب أسود؟ وأوقاتي مع نادية، كيف تصوّرتها أسبوعاً بينما هي في الحقيقة شهر؟

جلست وفاء بجواري على الدكّة الأسمنتية التي أجلس عليها، والتصق جسدها بجسدي عفوياً. كنت لا أزال أفكّر في الأيام التي اختفت من ساعة عمري. قالت ضاحكةً: لازم تحوّش وتجيب موبايل، وأنا سأهاديك الخط، عاوزة اطّمن عليك، غيابك المفاجئ دا صدمني.

قلت بحسم: لا طبعاً. محمول! أنا أشيل محمول؟ الخطوط غالية جداً، والتليفونات كمان نفس الحكاية، لا يا ستي يفتح الله، هاجي كل يوم الكلية، وأبقى أخلّي معايا "كارت ميناتل".

٧١

"وفاء ابنة الأغنياء"، هكذا كنت أداعبها بعد عام واحد من دخولنا كلية الآداب، قسم التاريخ. لا أعرف كيف تقاربنا، مع الفارق الكبير بيني وبينها، فهي تسكن بالزمالك، فيما أسكن أنا في السادس من أكتوبر، وتنتمي إلى عائلة ثرية، حيث يعمل والدها في تأسيس وبناء المدن الجديدة، بحكم كونه استشاريّاً في شركة مقاولات عملاقة، فيما أنا مجهول الأصل والفصل، منذ وفاة أمي قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة بقليل، واضطراري للعمل في ورشة التنجيد لتدبير نفقات الجامعة، وشراء شقة بدلاً من تلك التي انتزعها مني صاحب البيت، عقب وفاة أمي، على الرغم من حقّي في البقاء فيها لكوني وريث أمي الذي كان يعيش معها، لكنه انتظر خروجي من الشقة ذات ليلة لزيارة

الأقارب، وكسر بابها، واحتلّها، وألقى بأشيائي فى الشارع.

تسير وفاء في الكلية، بعد أن تترك سيارتها في ساحة الانتظار المواجهة للجامعة، تفوح من ملابسها رائحة الفخامة والرفاهية، تصفّف شعرها كما جاءت أحدث صيحات تصفيفات الشعر، متلائمة بطبيعة الحال مع ملابسها الفضفاضة التي تليق بأميرة إنجليزية، لا بطالبة جامعية مصرية. لم نتحدث من قبل عن أسماء المحال التي تبتاع منها أحدث موضات ملابسها التي ألمح فى عيون زميلاتها حسداً هائلاً تجاهها. لم أفكّر في فتح هذا الموضوع، بل إنني أتفرّس في العيون التي تلاحقها أينما ذهبنا؛ إلى أي مكان داخل الجامعة. أشعر أن هذه النظرات تطاردني أنا أيضا؛ تستنكر عليَّ هذه الجميلة الثرية أن تكون بصحبتي، فأنا أرتدي ملابس رثة تتكرمش في زحام سيارات الميكروباص المنحدرة من مدينة السادس من أكتوبر، محملةً بأكثر من طاقاتها، حيث يتعمّد سائقو "السيرفيس" تحميلها بأكثر من حمولتها المقررة، ١٤ فرداً، فنجلس أحياناً ملتصقين، أو يضحّي البعض الآخر بالوقوف ثانياً ظهره فوق رؤوس الجالسين، يتحرّش الكثيرون بالراكبات أثناء رحلة الميكروباص الصحراوية، بعضهن يصمتن ويكتفين بالتأفف، وبعضهن يصمتن راضخاً راضياً، وبعضهن يثرن، وتندلع المشاجرات داخل الميكروباص الضيق الذي تتأجج سخونته على الرغم من برودة الشتاء.

حاولت وفاء، بعد أشهر من تقاربنا وارتباطنا عاطفياً، بنظرات عيون استمرت أيام عديدة وأسابيع، أن تهديني قميصاً وبنطلوناً، لمحت أسماء ماركات عالمية ("دانييل هيشتر" و"Lee") على الياقات

التي تتناقض ألوانها مع لون قميصي الداكن الذي أرتديه صيفاً وشتاءً. حاولت أن تقنعني بقبول الملابس، تلعثمت. كانت تحاول أن تقنعني بالإشارة إلى رداءة ما أرتديه. كان الأمر محيّراً، لأنها لا تعرف مقاسي، لكنها تشجّعت وذهبت إلى المحال الفاخرة واشترت الملابس. حاولت أن أرفض الهدية دون أن أضطرها إلى الإصرار على إقناعي بقبولها، ربما تفلت منها كلمة تغضبني، كأن تقول مثلاً: "ألا ترى الملابس الرثة التي ترتديها؟" أو أن تقول مثلاً: "ألا تشعر أنك عرة؟".

ابتسمت بينما أراقب محاولاتها إقناعي بالحصول على الملابس، كتمت ضحكة كي لا تنهار. كنا يومها نتمشّى معاً، وابتعدنا كثيراً عن كلية الآداب، وخرجنا من باب "تجارة"، وعبرنا الطريق، ووقفنا نأكل سندوتش "بوم فريت" من مطعم "سندوتش صبري" الشهير، المواجه للجامعة والمطلّ على شارع "بين السرايات"، السندوتش كان بخمسة وسبعين قرشاً فقط، كنت أدفع جنيه ونصف ونحصل على "سندوتشين"، وفاء لم تكن تأكل مثل هذا الطعام، كانت تشتري أحياناً سندوتشات "هوت دوج" أو "بيج ماك"، تحضرها معها في سيارتها في الصباح، من أقرب "ماكدونالدز"، لم يكن قد افتتح فرعه بعد بالقرب من الجامعة. في "سندوتش صبري" حاولت وفاء مرة أخرى إقناعي بقبول الملابس، لكنني أصررت على الرفض، قلت لها هامساً: "وفاء، لا أستطيع، ملابسي الأخرى ستحزن، ستظنّ أنني هجرتها إلى "ضرّة"، أنا أحسّ بملابسي، ألا تغطّيني وتكسو جلدي، كيف لا أشعر بها، أشعر بقماش قميصي يبكي، يبلل نسيجه جلدي ومسامي، فأشعر أن دموعه ستملأ عيونه إذا ما هجرته إلى قميص آخر،

لهذا لا أغيّره، وأظلّ ارتديه حتى يذبل، مثل الوردة".

٧٢

هكذا كانت علاقتي بوفاء، مضطربة دائماً. أعرف أنّ من المستحيل أن نتقارب، أو أن تتطور علاقتنا يوماً. إنها تنظر إلي نظرات حالمة، إنها معجبة بكائن خارج عالمها الزجاجي المصقول الذي تلمع فيه الأشياء ويخطف بريقها بصر من هم مثلي. كنت أعرف أنّ في عينيها سحراً خاصاً؛ عينان واسعتان تتعمّد رسمهما بالكحل كي يزدادا اتّساعاً وسحراً. أراها في الصباح قبل المحاضرات، فيخفق قلبي بشدة، وأظلّ ملتصقاً بها داخل قاعات الكلية، لا أستطيع أن أمدّ يدي فأتحسّس من جسدها شيئاً سوى كفّيها: كفّان ناعمتان، جلدها أبيض مثل الحليب، وشعرها يكون أحياناً أسودَ فاحماً، أو كستنائي اللون. لم أستطع أن أفكّر في مضاجعتها، بالكاد أتمنّى أن أحتضنها أو أضمّها إلى صدري، أو أدسّها بين ضلوعي لأخبئها عن عيون الدكتور رمضان، أستاذ التاريخ والحضارة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، الذي كان قد نال الأستاذية حديثاً، بمجرد دخولنا الكلية عام ١٩٩٧، نفس العام الذي التقيت فيه وفاء وتعرّفت فيه إلى نادية.

ملابس رمضان كانت عتيقة الطراز، على الرغم من أناقتها في الظاهر: سترة على بنطلون قماش واسع. لم يكن يرتدي "الجينز"، بل كان يحرص دائماً على ارتداء ملابس رسمية، كأنه ضيف في حفلة صباحية. أحياناً تكون سترته رمادية اللون، على قميص أبيض

وبنطلون أسود، كأنه "متردوتيل" في أحد فنادق وسط البلد الفاخرة. يدخل المحاضرة في الصباح، ويغلق الباب، ولا يسمح لأحد بالدخول بعده، إلى أن تأخرت وفاء ذات صباح، فطرقت باب المحاضرة ووقفت أمامه تطلب الإذن بالحضور.

لم يكن قد مضى على تعلّقي بوفاء الكثير حينما وقع هذا الاشتباك الصباحي بينها وبين رمضان، ساعتها أيقنت أنّ الأخير متعلّقٌ بها أيضاً. سألها بصوتٍ جهوريّ كما لو كان يشرح محاضرته: هل أنت حريصة على المحاضرة يا آنسة؟

أجابته وفاء في تحدٍّ مصوِّبةً أنفها نحوه: بالطبع، وإلا ما كنت طلبت منك الإذن بالحضور، وكنت انصرفت بمجرد رؤيتي الباب مغلقاً.

كما لو كانت كلماتها ضاعفت من غروره، ها هي طالبة بنت ناس تعلن على الملأ تمسّكها بحضور محاضرته، هكذا كان يظن. اقترب منها رمضان وواجهها في تحدٍّ، محدِّقاً في وجهها، قائلاً بينما ينتزع نظارته الطبية، كما يفعل كلما أراد الإمعان في وجه محدِّثه: كلام جميل، لماذا لم تستيقظي مبكراً وتحرصي على الحضور، مثل كل زملائك الجالسين أمامك، قبل دخول أستاذك؟

لم تردّ وفاء. احتبست أنفاسنا ونحن نرقب المشهد. كنت أشعر أنّ المواجهة صعبة، لكنني عاجز عن التدخل. كرهت رمضان والتاريخ الذي يدرِّسه؛ صرت أرى كلّ المؤرخين، على شاكلته، كريهين، ووددت لو ألكمه في أنفه. فجأةً أشار رمضان بكفِّه تجاه القاعة، لتدخلها، فخطت وفاء شامخة، كما لو كانت "نفرتيتي" تخطو واثقةً عقب إعلان "إخناتون" ديانة "التوحيد" وانتصار "آتون" على

"آمون" وكهنة طيبة. كانت على ملامحها ابتسامة انتصار لم يلمحها رمضان. توجّهت نحو صف المقعد الذي كنت أجلس فيه بجوار مجموعة من أصدقائنا، إلا أنّ رمضان استوقفها فجأةً: "لحظة يا آنسة، هنا في الصفوف الأولى"، وهو يشير إلى الصفوف المواجهة لمنصّته.

واصل رمضان المحاضرة، بينما وفاء تومئ لي برأسها وترسل نظرات مبتسمة كلما ابتعد رمضان عنها أثناء إلقائه المحاضرة، وما إن انتهت ساعتها الثقيلة حتى هبّت وفاء متّجهةً نحوي، فاستوقفها رمضان مرة أخرى بقوله: "يا آنسة، عاوزك فى مكتبي دقائق".

٧٣

لا يتمتع أساتذة قسم التاريخ فى كلية الآداب برفاهية المكتب الخاص، فهم يتشاركون حجرة تتوزّع فيها مكاتبهم، ويحتسون فيها قهوتهم الصباحية، أو يستقبلون فيها أحد ضيوفهم، يعاني كلٌّ منهم من ضياع لحظة خصوصية ما في المكتب، فهم كثيراً ما يلتقون، فتشتعل بينهم مناقشات تاريخية سقيمة تنتهي إلى لا شيء في النهاية، لكنني مع ذلك كنت أشعر فى عقلي الباطن أنّ رمضان يتمتّع بحياته الجنسية داخل هذا المكتب؛ البعض يردّد قصصها همساً، وعلناً، لكن هذه القصص دائماً لم تذكر الأماكن التي يزاول فيها رمضان هذه الممارسات، لكنها دائماً مع عدد من طالباته. فرّاشون يتداولون قصصاً عن طالبات يجلسن على مكتبه، ويضعن ساقاً على ساق، بينما يدخلون عليه ليقدّموا له قهوته. لا

يشعر رمضان بالخجل فيعمد لسحب يديه من على سيقان الفتاة، بل يسند كوعه على فخذها. يخرج الفراش مستاءً، وهو يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، اسمه رمضان إزاي دا بس". وقصص أخرى يتداولها الجميع بانتظام، جنباً إلى جنب مع تدريس مواد قسم التاريخ المختلفة. حتى في مادته لم يكن رمضان حذراً؛ فهو دائماً يخلط "الهلفطة" و"العبث" بالحقائق التاريخية التي يتناولها في مادته. منه انتقلت إلي عدوى كراهية التاريخ والزعماء، فهو يسخر من أشدّ اللحظات التاريخية ازدهاراً، ويتهكّم عليها كل لحظة بمناسبة أو بدون. في إحدى المحاضرات كان يتناول ثورة المصريين ضد الوالي العثماني "خورشيد باشا" مستعيناً بمقتطفات من "الجبرتي"، أسهب رمضان في السخرية من شيوخ الأزهر الذين قادوا الثورة ضد الوالي الظالم، ثم سلّموا البلد إلى "صول" من بلدة "قولة" يسمّى "محمد علي"، كما وصفه رمضان، حيث وقف يومها كأنه ممثل على المسرح، وأخذ يضحك بينما يقول: "عمركم شوفتوا ناس تعمل ثورة وتروح مسلّماها لأقرب "شاويش"! يا أمة ضحكت من غبائها الأمم! احنا مش محتاجين نهتم بالتاريخ، هو لوحده كفاية، يقتل فيكم أي كرامة، يمكن واحد فيكم يبقى زعيم، أو ممكن تكونوا زي اللي ركب الحصان وراح "عابدين" وقال: "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا"، وكانت آخرته القعاد على القهوة، واللي يمرّ به يمسّيه ويصبحه تريقة".

رفع رمضان دفتراً بيديه، جهّز فيه فقرات من "الجبرتي"، وقرأ: "وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي، وقالوا له: إنا لا نريد هذا الباشا

حاكماً علينا، فقال: ومن تريدون؟ قالوا له: لا نرضى إلا بك، تكون والياً علينا. فامتنع أولاً، ثم رضي، وأحضروا له "قفطاناً" وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبسوه إياه".

ثم يرفع بصره إلينا، ويعيد ارتداء نظارته الطبية، بينما يقول: نحن لا نتعلم أبداً من التاريخ، على الرغم من أنّ فيه قصصاً كثيرة ممتعة ومشوقة، بس اللي يقرأ.

٧٤

ذهبت وفاء مرغمة إلى مكتب رمضان، الكل يعرف ما يطرأ على من تدخل بقدميها هذا المكتب النجس، وكيف تلتهمها الأقاويل بصرف النظر عما فعلته داخله. اعترضت طريق وفاء بينما كانت تمضي نحو مكتب رمضان، وقلت في غضب: "رايحة فين؟" ضحكت وهي تحاول أن تطمئني قائلةً: "جرى إيه، أنا بنت ناس".

تراجعت. نعم هذا صحيح، وفاء بنت ناس، المسألة هنا ليست متعلقة بأخلاقها وحدها، التي ستحميها في مواجهة غرائز رمضان المنفلتة دائماً، بل بالتناسق الذي يجمع رمضان على الرغم من الموبقات التي يرتكبها نهاراً جهاراً، ووفاء، التي تنتمي لعائلة لن ترحّب بصعلوك مثلي أن يقترن ببنتها، لكنهم يرحّبون برمضان على قذارته وسمعته الملطخة. تراجعت، ووفاء تبتسم وتمضي في شموخ، تحافظ على ثبات خطوها، ورفعة قامتها. تراجعت، وغادرت الكلية طوال الشهر الفائت الذي تعرفت فيه إلى نادية واحترفت معها تدخين

"الحشيش". نادية أقرب إلي بكثير من وفاء؛ هذه الحقيقة يجسدها أنّ نادية ليس لها أب استشاري في شركة عملاقة تشيد المدن الجديدة، ولعلّ والد وفاء هو من يشيد العقارات التي يعمل فيها جيراني الثلاثة... أليست الدنيا صغيرة؟

٧٥

دفعتني وفاء برفق وهي تقول: سرحان فين؟...

كنّا لا نزال نجلس على المصطبة الأسمنتية المواجهة لقاعة المحاضرة. رفعت بصري تجاه الطابق الذي يحوي مكتب رمضان، وأنا أقول: رمضان كان عاوزك ليه؟

تحاشيت نظرات عينيها التي صوَّبتها لائمةً نحوي وهي تقول: يعني حضرتك مهتم؟ لو مهتم فعلاً كنت سألت. أنا نزلت من عنده لقيتك اختفيت. رحت فين يا مراد؟

التفت نحوها منفعلاً: كنت باشتغل، طبيعي أن أكون غايب في الشغل...

رمقتني بنظرةٍ عاتبة وهي تراقب انفعالي المباغت الذي لم تتوقعه. أشحت بنظري عنها، ورمقت باب المحاضرة المغلق. ظهرت علامات الحيرة على وجهها، ثم قالت: لا أعرف سر انفعالك، أنت بالتأكيد خمنت أن رمضان لن يجرؤ على أن يعاملني مثل صديقاته. كل الحكاية أنه سمع من أحدهم عن بابا، طبعاً أنا استبعدت أنه يطلب مقابلتي كى أحجز له "فيللا" في مدينة من المدن الجديدة التي يبنيها

بابا. قلت له حضرتك تقدر تجيب الإعلانات وتتصل تحجز بنفسك اللي انت عاوزه.

تعجّبت مما تقول. نظرت نحوها نظرات مرتابة. الفارق الكبير بيني وبينها يحول دون أن أصدقها، على الرغم من أنني لا أملك أن أفعل شيئا آخر، فإذا لم أصدّقها يمكنني ببساطة أن أدقّ رأسي بأي حائط. ليس بيننا أي شيء يلزمها الالتزام بي، وإذا شاءت الانقطاع عن الكلية أو نقل دراستها إلى جامعة أخرى، أو حتى مقاطعتي، فستفعل ذلك في لحظة دون أن يطرف لها رمش، لكن تعلّقها بي كان يحطّم هواجسي تلك. قالت وهي غائبة عن الأفكار التي تضطرب في رأسي: شيء عجيب أن يتجرّأ، وهو أستاذ كبير في الجامعة، ويطلب من طالبة عنده أن تساعده فى حجز فيللا، مجنون!.

قلت ساهماً: ليس مجنوناً. طبعاً هو تعمّد أن يباغتك بمعرفته معلومات عن أبيك، وتجرّأ أن يطالبك بالتدخل، ليس من أجل فيللا طبعاً، غرضه الحقيقي شيء آخر.

قالت في استنكار: يتجوزني؟ بعيدا عن شنبه... دا معفن.

فوجئت بالكلمة، إذ لم أسمعها تتلفظ بمثلها من قبل، على الرغم من بساطتها، بحكم تخطّيها حاجز اللاإباحية، لكنها وصف يليق بي أكثر من رمضان، على الأقل هو أستاذ جامعي، يمتلك وظيفة مرموقة، راتباً حكومياً كبيراً، مكانة ووجاهة اجتماعية، وسيارة بولونيز موديل ٩٠، وهاتف محمول نوكيا ٦١١٠، فيما لا أمتلك أنا سوى كارت "ميناتل".

٧٦

أنا طمّاع، خائب، أقضي شهراً أتعلّم ممارسة الجنس مع نادية وتدخين الحشيش، وأفكّر في وفاء وأغار عليها لمجرد أنّ رمضان بدأ يحاصرها ويحاول لفت أنظارها والاقتراب منها. ألا يمكن أن يكون قد تاب وقرر التوقف عن ملاحقة الطالبات وحصارهن في مكتبه؟ كلا، لا أظن، فرمضان لا يمكن أن يكون قد قرر فجأةً أن يكون أستاذاً جامعياً محترماً. لكن ماذا لو كان يفكر في الارتباط بوفاء؟ إنها غنيمة حقيقية، بنت ناس، جميلة، ملامحها لا توحي بالظمأ الجنسي، على الرغم من فتنتها، كما لا تعكس شهوة متأججة مكبوتة، على الرغم من امتلاء خصرها وتناسق ثدييها الباديين أسفل ملابسها الأرستقراطية، ومظهرها الجاد وخطوتها المتعجلة الصارمة، وليس بها ما يشي أنها تبحث عمّن يطفئ نارها على الرغم من أن جسدها يطفو منه عبقها الأنثوي، تضحك بصوت خفيض، تحضر المحاضرات، وتنصرف على عجل، ولا تجلس أبداً في "الكافتيريا" أو أي منطقة منزوية من المناطق المحيطة بكلية الآداب، وربما لا تخطو داخل الكلية مع أيٍّ من زملائها، سوى هناء وأنا. رمضان بالتأكيد راقبها أيامٍ ونهارات متعددة، مثل الصقر، من خلف نافذة مكتبه، - كنت أفكر وأردّ وأتحدّث ويعلو صوتي بكل هذه الأفكار، وبينما كنت أغادر الجامعة من باب "تجارة" لاحظني كثيرون وأنا أكلّم نفسي، فآثرت الابتعاد والإسراع عائداً إلى شقتي، وأنا لا أعرف أنّ نادية قد تردّدت عليها أربع مرات خلال النهار، ثم جاءت للمرة الخامسة بعد وصولي بساعة، فدلفت إلى "الحوش" الضيق الذي أظلم تماماً نتيجة غروب الشمس.

مظهر نادية كان ملفتاً، خاصةً مع ارتدائها فستاناً ضيقاً أكمامه قصيرة حابكة. إنها الوجه النقيض تماماً لوفاء، الوجه الشعبي الذي يليق بي ويليق عليّ. صعدت بجرأة حسدتها عليها سلالم العمارة التي أقطن فيها، على الرغم من معرفتي أنها ليست المرة الأولى التي تزورها، كنت قد لمحتها من الشباك الصغير المطل على الشارع، كنت أفتحه بالصدفة عقب عودتي إلى الشقة لتهويتها، فوجدتها تدلف إلى العمارة، ظننتها قادمة إلى جيراني الثلاثة، فالتصقت بالباب وحدّقت في العين السحرية المواجهة لشقتهم. كان السكون يطل منها. لم أتصور أن بابي هو وجهة نادية. ظهرت فجأةً واحتلّت ملامحها العين السحرية، ودقّت بابي بتوتر وسرعة، بينما تلتفت لتحملق في شقّة جيراني، كما لو كانت تخشى أن يفاجئها أحدهم. فتحت الباب بسرعة فانسلت إلى شقتي، للمرة الأولى، وأغلقت خلفها الباب كمن يواري سرقته.

٧٧

"أوف... كنت فين؟..."

هكذا هتفت نادية في ضجر وسأم، بعدما احتوتها شقتي، خلعت صندلها وطوّحته إلى ركن الصالة، كما لو كانت في شقتها، وجلست مجهدةً على المقعد "الفوتيه" الملاصق للباب، كنت قد اشتريته من أحد باعة الأثاث المستعمل، هيكل خشبي بائس، اصطحبته إلى ورشة الانتريهات، وعملت عليه يومين، أهداني صاحب الورشة قماش

تنجيده و"اسفنجة"، ليحتضن مؤخرة نادية بكل دفء الآن. رمقت صندلها الذي تدحرج بجوار حذائي، بعدما خلعته منذ دقائق، ثم قلت والانفعالات الفرحة بعودتها سريعاً تمتزج بكلماتي: "خير... كنتي بتدوري عليا...؟".

رمقتني بنظرة ضاحكة قبل أن تقول: "بدور عليك؟ أنت عارف أنا جيت لك النهاردة كام مرة، أربع مرات، ياراااااااااجل، كنت فين؟" ترددت وأنا لا أعرف كيف يجب أن أحتفل بها، لم يكن في ثلاجتي القديمة أي شيء ممكن أن أقدمه لها، كانت هناك "تلقيمة" بن عتيقة استعمرها السوس. نهضت متظاهراً أنني سأقدم لها شيئاً، بينما أقول: "كنت في الكلية... تشربي إيه...؟".

هبت فجأةً صائحة: "ولا حاجة، لازم نروح شقتي، نكمل قعدتنا هناك، قبل ما جيرانك السو يرجعوا، أنا مش عاوزة أشوف وشوشهم العكرة، يلا بينا".

اتجهت نحو صندلها بنفس الحماس ودسّت قدميها فيه، بينما أنا متسمّر في مكاني فرحاً بعودتها المباغتة وإلحاحها كي ننتقل إلى شقتها، وقلقاً من ظهورها المفاجئ بعد اختفائها الصباحي المر. لم تتركني للتفكير، جذبتني من أصابع يدي وهي تقول: "يلا".

٧٨

ينتظرنا صبي الكباب على عتبة شقتها، كان يجلس على الدرج، مواجهاً الشقة، محدِّقاً في سقف السلم، وبجواره يستقر كيس كبير

يحوي ما قدرته ثلاثة كيلو جرامات من الوجبة المحببة إلى قلبي التي تناولتها في حياتي مرتين أو ثلاث، إحداهما حينما ظفر صاحب الورشة بطلبية "انتريهات" ضخمة من إحدى ورش دمياط، وكان مع الصبي كيس آخر يحوي عشرة أرغفة خبز وعلب طحينة وسلطة خضراء. تحركت أمعائي، ارتجت داخل جسدي كأنها حبيسة تطلب الحرية، بينما نادية تدسّ أصابعها في كيس نقودها لتلتقط ورقة بخمس جنيهات دفعت بها إلى الصبي الذي ظلّ يحدق في صدرها، مثل المرة السابقة، على الرغم من أنها كانت ترتدي بلوزة حابكة هذه المرة، شعرت أنه يكمل بخياله ما حجبته "البلوزة" فمنحته نادية شخرة مماثلة للشخرة السابقة وهي تقول في دلال: "مالك يا واد".

قطف الصبي الورقة النقدية من كفها ولاذ بالفرار، فأطلقت نادية ضحكتها الساخرة. حين دلفنا إلى شقتها اتجهت من فورها لتتخفف من ملابسها، ودعتني لأحذو حذوها، فخلعت بنطلوني وظللت جالساً أمامها بلباسي الداخلي الأبيض. عادت ترتدي قميصَ نوم وردي اللون، حابك على لحمها، شفاف، تفوح منها رائحة عطرٍ أنثوي مغرٍ، انتصبت بغتة، بينما تنحني على المائدة فاندلق ثدياها خارج فتحة صدر القميص الواسعة، فأعادتهما كما لو كانت تعيد خصلة من شعرها سقطت أثناء انحنائها. أخذت ترصّ قطع الكباب والكفتة، ورائحتهما تتصاعد وأبخرتهما تندفع نحو أنفي، متحررةً من أسر لفة الكبابجي المحكمة التي احتفظت بحرارتهم. دسّت قطعتين من اللحم داخل رغيف ومدت أصابعها به نحوي، فالتقطته منها في لهفة، خاصةً أنني لم أتناول لقمة طوال جلستي مع وفاء.

جلست نادية في مواجهتي، وقضمت لقمة من رغيف مماثل أعدّته على عجل، وقالت بابتسامة واسعة: "تحب تشتغل معايا؟".

أثارت فضولي بسؤالها، ها هي ورقة التوت الأخيرة تسقط عن نادية. ابتسمت قائلاً في ترقب: "أي حاجة معاكي مش محتاجة لسؤال".

لم أعرف لماذا تسرّعت وقلت ذلك. ضحكت مبتسمةً في ثقة وقالت وهي تمضغ لقمة أخرى من رغيف الكباب: "أنت رايح جامعتك بكرة...؟".

لم أستطع الربط بين الجامعة والعمل الذي تعرضه عليّ، قلت: "أه... خير أوعي تكوني بتشتغلي في الجامعة".

هوت ضحكتها المسرسعة، ونهضت عن مائدة الكباب العامرة بعدما تركت رغيفها الملفوف على قطعتين مسنوداً على علبة الطحينة، مضت إلى حجرتها، ثم خرجت منها إلى المطبخ، وعادت تحمل طبقاً وولاعة وإحدى سجائرها، أفرغت تبغها في الطبق، ثم فردت ورقة "بفرتها" عليه، واستلّت قطعة حشيش بين أصابعها، ودسّتها في قطعة "سلوفان"، وقرّبت منها ذؤابة لهب الولاعة، ثم فضتها في الطبق وفركتها مع التبغ، وأعادت رصّ الخليط في ورق البفرة، ثم برّمتها حتى صارت ملفوفة، وقربتها من شفتيها ولحست بلسانها جوانبها، وهي تحدق فيّ بنظراتها المغوية، بينما أتابع أصابعها بسرعة وانبهار. بللت بشفتيها أطراف السيجارة لتضمن التصاقها، وأشعلتها بسرعة وجذبت منها نفساً باستمتاع، قبل أن تمدّ يدها نحوي قائلةً: "دا اللي انا بشتغل فيه في الجامعة".

الأيام التي قضيتها مع نادية، سواء في الفراش أو بين الدخان المتصاعد من سجائرنا، كانت تفصح عن مكنونها أكثر مما كانت ترويه هي بنفسها، ربما طريقتها في تدخين الحشيش ولفّ سجائره كانت ترسم شخصيتها كاملة مكتملة أمامي، لكنني كنت منبهراً، عاجزاً عن التأمل والتحديق في صورتها الكاملة، الغامضة أحياناً، "البغددة" التي ترفل فيها كانت تشعرني أنها تمارس نشاطاً سريّاً كبيراً حصرته فقط في ممارسة الدعارة مع المقاولين الكبار، لكن حتى أي مومس لا تحتمل تناول وجبات الكباب التي كانت تتناولها نادية بهذا الشكل، أو حتى صواني الطعام التي تطهوها في الأيام التي لا نتناول فيها الكباب. لم يخطر ببالي قط أنها تتاجر في الحشيش، أقصى ما تصورته هو أنها تحصل عليه من أصدقاء حميمين مثلما تحصل على الكباب، صحيح أنها تلف السجائر بمهارة تحسد عليها، لكنني لم أتصور أبداً أنها اكتسبت خبرة أخرى، خبرة التجارة في الصنف. بدأت أسأل نفسي أسئلة طفولية من نوعية "كيف تتحمّل مخاطر نقله وتوزيعه والتعامل به؟". لم تنزلق هذه الأسئلة إلى لساني كيلا أثير سخريتها. ظللت أحدّق فيها بعيون خاوية، ساهمة. بدأت سجائر الحشيش تفعل معي مفعولها، الخدر اللذيذ الذي بدأ يتسرب من عقلي إلى حدقات عيني، بدأتا تتسعان وتحدّقان دون أن يطرف لهما رمش. كانت بسمة نادية آخذة في الاتساع وهي ترمقني بنظرة منتصرة، فيما كنت أنا أسترجع تراث الأفلام العربية القديمة، أشكال تاجرات المخدرات، نادية كانت أفتن كثيراً، معظمهن بدينات، يعملن مع رجال غلاظ أشداء متجهمي الملامح، أما نادية فهي

في الثلاثين من عمرها، فتية الجسد والملامح، جلد وجهها ورقبتها مشدودان، لا يحوي جسدها ترهّلاً جلدياً واحداً، من يراها تسير في شوارع السادس من أكتوبر يظنها زوجة أحد مقاولي البناء الذين يعملون في المدينة أو عشيقة تاجر من تجار الأسمنت والزلط والطوب الأحمر، لن يتخيلها أحد تاجرة حشيش. كنت أجذب أنفاساً من السيجارة وأقضم قطع الكباب في نفس الوقت، كأنني أخشى إهدار كل متع القعدة. يتوهج رأسي بالأفكار، بينما هي ترمقني في شغف وفضول كأنها تنتظر كلمتي القادمة، فمنحتها الكلمة التي تنتظرها، بعدما التقطت أنفاسي: "ملعوبة... ولا كان يخطر على بالي أنك بتشتغلي في الموضوع".

قاطعتني مصحِّحةً: "الصنف"... وصمتت.

قلت: "أيوه، بس الموضوع مش سهل، لو جرى حاجة هتبقى مصيبة، أنا عمري ما دخلت قسم أو وقفني أمين شرطة أو ضابط".

جذبت من أصابعي سيجارة الحشيش، كما لو كانت تعاقبني على ما تفوّهت به، جذبت منها نفسين ونفثت دخانهما، وقالت وسط الدخان: "أنت عارف عندي كام سنة...؟"

قلت: "٣٠..."

قالت واثقة وهي تهز رأسها إيجاباً: "مظبوط.. أنا باشتغل في الحشيش من وأنا عندي عشر سنين، عمري ما حصل لي حاجة، ولا هيحصل".

اصطنعت ضحكة وأنا أمزجها بقولي: "انتي محظوظة"...

قالت جادة: "ولا حاجة بتحصل، مش مسألة حظ، دا كيف الكل، الكل منقوع فيه ومغروز، زي الميّة والهوا، حد يقدر يستغني عنهم؟... محدش، ولا الحشيش كمان".

توقفت عن تناول الطعام متفرّساً في ملامحها. كانت تتحدث للمرة الأولى بجدية لم أعهدها فيها، خداها كانا يرتجفان على الرغم من ذلك، شفتاها ترتعشان في لحظات الصمت بين مقاطع كلماتها، لم يكن على ملامحها أي أثر من آثار الكذب أو التردد أو الانفعال، تنطلق كلماتها بهدوء يتناسب مع مفعول الحشيش الذي بدأ يسري في جسدها، فتأهبت عضلات وجهها، ونفرت عروق رقبتها، وتصلبت حلمتا ثدييها أسفل قميص النوم الشفيف، تنطلق جملها متراصة الكلمات، ناعمة، قوية، مثل ملاءات السرير المفروشة حديثاً. تقول نادية: "انت فاكر أي قوة على الأرض تقدر تمنع الحشيش أو تصادره مثلا؟ دا كأس وداير على الجميع، الكل بيشربه، وفيه اللي بيغرف بإيده، في قعدة الحشيش الكل موجود، من أول المأمور لحد الغفير، ومن أول الرئيس لحد أصغر وزير، الكل يحبه ويفضله على عيل من عياله، الناس تنكره بس في قعداتها الرسمية، في الإذاعات، في التلفزيونات، لكن أول ما يستفردوا بنفسهم، وفي غرف نومهم، بيعترفوا بفضله عليهم، لولاه محدش يقدر يستحمل ساعات الشغل الطويلة، ذل وقرف المديرين في الشغل، همّ البيت، والمرتّب اللي مش بيكمل الشهر، لولاه ما اتعدلت حياتهم ولا استحملوها ولا صبروا على مشاكلهم، أنا مش بهتش عليك يا حبيبي".

تقول نادية: "وعيت وعندي عشر سنين، أمي كانت بتحاول تبيعني في سوق "محلة مرحوم"، عارف ساعتها، الدنيا كانت مولعة مظاهرات، ضرب نار في الخلق، والبلد كانت عاملة زي الطبق اللي بنفرد فيه، بس بدل ما هو طبق مسطح كدا، ومفرود، كان عمّال يتكسّر حتة حتة، نار هنا، مظاهرات هنا، ناس بتضرب نار هناك، وناس تانية يتقبض عليها هنا، الخلق خافت من رفع سعر الحشيش بعد رفع سعر العيش والسكر والزيت والرز، عارف مين اللي سند الريس ساعتها؟ تجار الحشيش، آه تجار الحشيش هم اللي سندوا الحكومة، وشدوها من أزمتها، زي ما انت بتشد نفسين كدا من السيجارة أو من الشيشة، التجار اتفقوا، واجتمعوا مع ناس كبار، أخدوا الأمان مقابل أنهم يطمنوا الناس على مزاجهم، الحكاية دي عمرك ما هتقراها في أي كتاب من كتبك، ولا هيحوكوهالك في الجامعة، بس دي حكاية أكيدة، بص في كتب التاريخ بتاعتك وحاول تكمل الحكاوي، هتلاقيها مفكوكة، ناقصة "صامولة" تربط المفاصل، هي دي "الصامولة" اللي انا بقول لك عليها، انا متربية مع تجار حشيش".

ثم اعتدلت في جلستها، ونحت أطباق الكباب التي كانت لا تزال ممتلئة، تطاير الجوع داخلي مثل "السبرتو"، ثنت نادية ساقها اليمنى أسفلها وهي تقول: "لمّا الناس خرجت في الشوارع، وبدأوا يكسّروا ويسرقوا المحلات ويضربوا البوليس واللي بالك فيه دا، خرج الريس وقال دي انتفاضة حرامية، اللي حصل إن نزول الأسعار مش هو اللي هدّا الجو، ولا انتشار الدبابات وعساكر

الجيش ساعتها، بالعكس، وفرة الحشيش هي اللي لمّت الليلة، مش مقتنع؟ بلاش، بص يا سيدي، إيه أول حاجة بتحس بيها بعد أول نفسين...؟ مش طاقة حب وتسامح هايلين...؟ هو دا بالضبط اللي حصل يومها، الناس لولا الحشيش كانت ممكن تولع الدنيا، ويمكن الريس كان طار، زي ما الملك طار، خصوصاً إن الدوائر بتلحم وبترجع على صاحبها، الكلام دا هو أصل الحكاوي، أبصم لك عليه بالعشرة، دا مش رغي سياسة، لكن الحقيقة الأصلية اللي محدش يقدر يعترف بيها في الجرايد اللي كتبوا فيها التراجع عن قرارات رفع الدعم، ياسلام! هو دا بقى اللي خلى الناس تهدأ! دي الخلق كانت على باب قصر عابدين، وراس الريس كانت هتطير لولا الحشيش. بلاش دي، هحكي لك حكاية تانية: كان فيه وزير زمان اسمه أحمد رشدي، عارفه دا؟ دا كان وزير نضيف، ومكانش ناوي يلايمها، عمل عملة فظيعة، زي عملة رفع الدعم عن العيش والدقيق والسكر، بس صاحبنا دا كان عاوز يرفعه عن المخدرات، قعد يلمّ في التجار ويقطع رقابيهم ويعبيهم في السجون، سعر الحشيش ضرب في السماء، وشدّ وراه كل اللي بالك فيه، هيروين بقى وكوكايين وأفيون، الدنيا ولعت، جوزي إبراهيم كان ساعتها عسكري في الأمن المركزى، وصاحبنا كان شادد السلخ على بتوع المخدرات، بأنواعهم، مكانش عاتق حد، قلّب الباطنية وجاب عاليها واطيها، حزّم التجار، وقفشهم، ودخل كل الفيران جحورها، الباطنية اللي كانت عايشة أزهى عصورها، الله يرحمه السادات، شافت أسود أيامها في عهد الوزير دا. طبعا الحكاية دي مش هتقدر تكدبني فيها،

دي كانت على يد جوزي إبراهيم. طلبوا منهم في المعسكر أنهم يخرجوا يكسّروا ويدبدبوا ويجيبوا عليها واطيها. هرسوا شارع الهرم، كسروا فنادق لامعة وعربيات مركونة على الجانبين، وقطعوا الشارع، وشوية شوية كانوا هيعلنوا جمهورية الأمن المركزي. طبعاً دي حكاية مفبركة، والبلد اتحزمت في ثواني، والغرض كان كسر "مناخير" الوزير اللي ركّع الكبار وعكنن على مزاجهم. راخر برضه ماكانش صاحب مزاج، عارف، التجار الكبار دوروا على أي ملقف، لا كان بتاع نسوان أو حشيش أو هيروين، أو حتى غاوي سلطة، كان مستبيع، مخلص، وشريف. المهم، القرش أياميها وصل ١٥٠ جنيه، وما أدراك ١٥٠ جنيه سنة ١٩٨٦، مصيبة، الكبار حذروا الوزير: أنت هتفوق الناس، الناس لو فاقت هتفكر، ولو فكرت هتناقش، ولو ناقشت هتدور على اللي ليها، ومش هنخلص. أصر الوزير على عناده، ورفض نصايح زمايله في الحكومة. التجار الكبار برضه استنجدوا بيهم، بعد ما قعدوا في بيوتهم زي الولايا. انت فاكر تجار الحشيش دول قليلين؟ انت لو ركزت، هتلاقي كل بتوع الداخلية اللي قبل رشدي، واللي بعده، كانوا شاغلين نفسهم والبلد والخلق بحكاية الإرهاب دي، وآخرتها الحكاية اللي انت عارفها دي، اللي حصلت فى المعبد بتاع الأقصر. المهم، انكسرت مناخير رشدي، وطار من الوزارة، وآدينا أهو، عايشين ميت فل واربعتاشر، حتى الوزير الجديد كمان مجبش سيرتنا بأي سوء، الراجل بتاع أمن دولة، واسمه ما شاء الله على مسمى، "حبيب" وهيكون حبيبنا إن شاء الله".

٨١

تبوح نادية بما تسميه القصص الأصلية التي لم أدرسها فى الكلية لمنهج التاريخ، التاريخ الذي لا يكتبه المؤرخون، التاريخ الحقيقي الذي يتعالى عليه كتبة السلاطين ويزوّرونه إلى ما يرغبون فيه. تؤكد لي نادية برواياتها عبث وبهتان المجلدات المحفوظة في دواليب الدولة الرسمية. تنطق لي نادية بما لم تنطق به هذه الكعوب الأثرية الضخمة؛ تنطق نادية بما لم تنطق به الصفحات التي نطق أصحابها فيها بقصص على هواهم، و لم يجرؤوا على تدوين الحقائق، احتفظوا بها في صدورهم، بعضهم أخذها معه في قبره، وبعضهم الآخر لم يزل يكتمها ويتجرع كل صباح كؤوس "الواين" أو "الويسكى" لينساها، ليطردها من ذهنه، لكنها تظل معلقة مثل ميدالية ثقيلة أو هلب سفينة غارقة، وتأبى أن تنمحى بالسهولة التي يتجرّعون بها كؤوسهم، تتسرّب الحقيقة من ألسنتهم التي تثقل رويداً رويداً مع امتداد ساعات الشرب والسكر، تتسرب من عقولهم ذات ليلة، في بار خافت أو سيئ الإضاءة، أو في جلسة سهر تجمع القادة المتقاعدين، وقد انفضت عنهم التشريفات، ونسيت آذانهم أبواق حرس الشرف، أو عزف موسيقى استقبال خاصة، وتبقى الحقيقة معلقة مثل شمس تأبى أن تغرب، أو نجم يعند كي لا يأفل. تتسرب كلمات نادية إلى عقلي المخدَّر الذي اكتنفته أشباح أدخنة الحشيش كأنها قطرات ندى تجمعت ذات صباح على خد أسفلت أسود قذر. كان حديثها المتصل يدفع بأجفاني للتثاقل والتهاوي، كما لو كانت تمارس معي تنويماً مغناطيسياً بجمل سحرية. انتظمت عبارات نادية،

وظهر فيها تأثير الحشيش؛ هكذا يأتيك الحشيش بما تحب: إذا شئت أن تطير فوق السحاب وجدت أطرافك وقد تحولت إلى أجنحة كثيفة الريش، وإذا شئت أن تنام نوماً عميقاً نمت نصف اليوم دون انقطاع. تتحدث نادية كما لو كانت تقرأ من كتاب عبد الرحمن الرافعي؛ تكتب ما لم يكتبه المؤرّخ؛ تتحدث أفضل من رمضان في أوج تألقه في المحاضرات بالكلية. زال عجبي من نفور طلبة المدارس من مذاكرة تاريخهم: من أين لهم أن يفسّروا أسباب هذا النفور؟ كدت أسأل نادية عن محمد علي وانقلابه على شيوخ الأزهر ونفيه لعمر مكرم: هل يا ترى الخلاف كان بسبب نسبة الباب العالي من أطنان الحشيش التي يجب أن يقوم الوالي بتوريدها إلى الاستانة؟ أي نوع حشيش كانت تحتكره عاصمة الدولة العثمانية آنذاك؟ هل هو الحشيش اللبناني الذى ينمو بوفرة فى مزارع القنّب بجبال لبنان، أم هو الحشيش المغربي الذي تجلبه قوافل التجارة الآتية من أقصى الغرب؟ لماذا قتل محمد علي المماليك؟ لماذا جمعهم فى حفل صاخب بالقلعة ليجهز عليهم بالخناجر والبنادق؟ من دسّ السم للملك فاروق فى منفاه الاختياري؟ من قتل المشير عبد الحكيم عامر؟ هل مات عبد الناصر مسموماً، أم ارتفع ضغطه؟ متى تلتئم جراح صفحات التاريخ، وتكتمل حكاياتها، وتظهر حقائق جديدة تسدّ الثغرات والحفر العميقة الموجودة فى كل صفحة؟ من يجلب "الصواميل" التي بحوزة نادية لربط مفاصل كتب التاريخ وكعوب مجلداتها الأثرية؟.

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

أعلى دكّانه كتب هذه الآية القرآنية، مكان اللافتة، وأسفلها تدلت ملازم دراسية تتبع كلية التجارة والحقوق وغيرها، وعلى الباب وقفت فتاة سمراء محجّبة، دميمة الملامح، ترتدي رداءً حابكاً، تقف ملتصقةً بماكينة تصوير مستندات، تزاول عملها في آلية، وعيناها يرسلان نظرات ساهمة إلى أول الحارة المطلة على شارع "بين السرايات"، كأنها تترقّب شيئاً ما، تلتقط الملازم والكتب والدفاتر المطلوب تصويرها، وترفع غطاء ماكينة التصوير، وتدسهم داخلها كأن أصابعها مزودة بقرنية خفية، تحدّق في ما بينها من صفحات، وتعرف ما يجب عليها أن تفعله، تمرق لمبة الماكينة على سطحها مطلقةً بسرعة ضوءها الذي ينعكس على وجه الفتاة السمراء، فكأنها تطبع صورة وجهها مع كل صفحة من الصفحات التي تقلبها أصابعها في سرعة ودربة، كعلامة مائية، في خلفية الفقرات الدراسية التي تكتظ بها. نظراتها كانت مثبتة على مدخل الحارة الذي ولجته، متّجها إليها، حسب الوصف الذي وصفته لي نادية لدكان زوجها إبراهيم سالم الذي يمارس فيه نشاطاً خفياً هو تصوير المستندات وبيع أوراق الملازم والكتب الجامعية المصورة لطلاب جامعة القاهرة المواجهة لمدخل الحارة. إبراهيم كان يستخدم المحل كعتبة إلى غرزته التي أطلقت عليها نادية تسمية "البدرون"؛ هنا يمارس إبراهيم نشاطه السري المشهور به وسط المنطقة وروادها وزبائنه المخلصين الذين يجيدون كتمان أسراره ويرشدون مريديه إلى "البدرون".

على باب الحارة وقفت أمام شابٍّ ملتحٍ يرتدي جلبابا أبيض، ويمارس هو أيضاً تصوير المستندات.بماكينة تفوحُ منها رائحة "البيروسول" أو الجاز المميز الذي تعمل به ماكينات التصوير الرخيصة المنتشرة أمام الجامعة. سألته عن إبراهيم سالم فتفرّس فيّ مليّاً وهو يقول: "عاوز حشيش...؟".

تسمّرت و لم أعرف بمَ يجب أن أرد. أومأت نفياً أولاً، ثم إيجاباً، بينما أبلع ريقي. أشار نحو الحارة، فتقدمت معطياً ظهري لشارع "بين السرايات" وبوابة كلية التجارة، المطلة على الشارع. شعرت أنني أودّع عالماً، بينما ألج عالماً جديداً، عالماً نما وتربّى بالقرب من الجامعة، بينما هؤلاء الأساتذة يقفون في قاعات محاضراتهم يكرّرون بكرات مناهجهم، فيما تعلو كركرات الجوزة والشيشة مغطيةً على أصواتهم. تقدمت خطوات في الحارة، ونظرات الفتاة تتابعني، تمسحني من أسفلي إلى رأسي، مثلما تمسح لمبة ماكينة التصوير ما يعلوها من صفحات. تقدّمت نحوها فارتعشت شفتاها بغمغمات لم أستطع تمييز ما تقوله من كلمات، تمتمات خافتة، بدت كتعويذات ساحرة عجوز شمطاء في معبد للسحرة، انقطعت بغتةً حينما واجهتها وارتفع صوتي قائلاً: "عم إبراهيم موجود؟".

٨٣

سلّم درجاته حجرية متهالكة، أصعده في تأنٍّ إلى شقة إبراهيم سالم الواقعة في الطابق الأول من البيت القديم المواجه لمحل التصوير الذي

تقف فيه الفتاة. كان البيت على يسار الداخل إلى الحارة. صعدت بعدما ندهت الفتاة بصوت متحشرج غليظ يتفق مع دمامتها: "يا عم إبراهيم، يا عم إبراهيم... افتح للدولاب".

لم أفهم ماذا تعني "افتح للدولاب"، هل تستهزئ بي مثلاً أم أنها "سيم" ما أو شفرة طمأنة؟ تفرسّت في ملامح الفتاة بعدما نطقت بالجملة فلم ألحظ بسمة سخرية أو شيئاً يدلّ على الاستهزاء؛ كانت ملامحها جامدة، نظراتها ساهمة، لا تحدّق في ما تفعله، بينما أصابعها مستمرة في تصوير الملازم بحرفية. الغريب أيضاً أنني لم ألحظ طلبة يقفون بانتظار ما تقوم بتصويره، مما جعلني أظن أن ما تفعله الفتاة ليس إلا تمويهاً الغرض منه مراقبة مدخل الحارة المفضية إلى بدرون إبراهيم، "ناضورجية" من الآخر. صعدت إلى باب الشقة، كانت أصوات شارع "بين السرايات" قد خفتت تماماً، طرقت الباب ففتحه شاب أسمر الملامح قصير القامة يرتدي سلسلة فضية حول رقبته وفانلة سوداء بحمالات، وتفوح منه رائحة عرق مقبضة، وتبدو ذراعاه العضليتان وقد انتشرت فيهما حروق وندبات بنية اللون. حدق فيّ متفرّساً، فسألته بتردد: "عم إبراهيم سالم موجود...؟".

رمقني بريبة وبغض غير مبرّر، قبل أن يقول: "آه، خش"...

وقفت ملياً و لم أنفّذ أمره الذي حمله إلى أذنيّ صوت أجش خشن. غاب الشاب في ظلام الشقة، فظللت واقفاً لا أعرف ماذا أفعل، شعرت كأنني سأخطو إلى هاوية، ستبتلعني، فتراجعت خطوة إلى الوراء، محتمياً ببصيص ضوءٍ من النهار. ارتفع صوتٌ أجشّ آخر

من الداخل يقول: "مين يا مسعد...؟".

ردّد الشاب بصوتٍ أكثر غلظة: "يا عم أنا اعرف ضيوفك منين...؟".

ظللت واقفاً، بينما خطوات ثقيلة تقترب من فوهة الباب، ثم امتدت أصابع نحو زرّ الإضاءة التي كشفت فجأةً صاحب الخطوات الثقيلة. كانت المرة الأولى التي أرى فيها إبراهيم سالم: كتلة ضخمة من العظام واللحم، جسد وافر بالصحة، بنيان ثقيل عريض يتوارى كله أسفل جلباب يشبه إلى حدٍّ كبير جلباب "الجزارين"، لكنه كان نظيفاً، تفوح منه رائحة عطر قديم، عكس رائحة عرق مسعد المقبضة، توزّع لحم إبراهيم سالم على جسده الممتلئ، رقبته ممتلئة باللحم، سمرة بشرته لم تُخفِ جرحاً غائراً يمتد بطول صدغه الأيسر. لاحظ التصاق نظري بجرحه فضحك وهو يقول: "ما تخافش مني، أنا مش شُكلي وبتاع خناق، الجرح دا ختم معسكرات الأمن المركزي يا سيدى، الله لا يرجعها أيام، أيامكم أنتم أحسن إن شاء الله... تفضل". ثم امتدت كفه بأصابعها الممتلئة وربتت على كتفي ودفعتني إلى الداخل فى رفق، ثم خطا بجسده العريض ليتقدمني إلى الشقة.

تفرّست في تضاريس المكان: ممر طويل تكدّست في جوانبه "أجولة" الفحم الذي ظهر من ثغرات بعضها. مرق إبراهيم بصعوبة وجسده يحتك بها، فيما مرقت أنا بسهولة محاذراً لمسها. الأجولة كانت ممتدة إلى السقف، فشعرت أن أحدّها سيسقط فوق رأسي بغتةً. قادني إلى حجرة واسعة يؤدّي إليها الممر، وتطل عليها حجرة

أخرى جلس فيها مسعد على فراش صغير يتّسع لشخص واحد. جلس إبراهيم سالم على كنبة فوتيه صغيرة تتوسّط الحجرة، وأشار نحو الفوتيه المواجه له، فجلست. قال، ونظراته مثبتة على عيني، وجرح صدغه يتحرك مع حركات شفتيه: "أهلا بيك... أنت طالب في الجامعة إن شاء الله...؟".

شعرت بحرصه على أن يختم كل كلامه بكلمة "إن شاء الله". بادلته النظر وأنا أجيبه بسرعة تخوّفاً من أن يستفزّه فضولي في تأمل المكان: "أه، كلية الآداب، قسم التاريخ...".

هزّ رأسه وهو يرمي نظراته إلى حذائي فجأةً، كأنه يتفحصني من "ساسي لراسي"، ثم تراجع بظهره إلى الخلف وقال: "كتّر خيرك على الواجب اللي انت عملته مع نادية... دا واجب محترم مش هنساهولك، أنا بحب الجدعان وولاد الأصول، هي حكت لي على كل حاجة، وقالت لي على أخلاقك العالية، وإنك شاب محترم، وعاوز تاكلها بالحلال، انت شرّفتنا".

لم أفهم ما يقوله، فهززت رأسي محاذراً الانزلاق بكلمة توردني المهالك. بالتأكيد نادية قصت عليه قصة أخرى، غير لقاءاتنا الجنسية المتكررة. هزّ رأسه وهو يمدّ رقبته نحوي، حتى كدت أشعر أنها ستنفصل عن جسده، وواصل الكلام، وجرح صدغه يتحرك مع شفتيه، كأنه يؤيد ما سيقوله: "أنا مشارك في القهوة اللي جنب شركة "كازروني" بتاعت السجاد، اللي فى وش مصنع البيرة. عمرك قعدت عليها...؟".

يزوّدني إبراهيم بهاتف محمول، إريكسون ٦٨٨ (أو ستة تمانيتين)، هذه هي تسميته الشائعة فى ذلك الوقت. كان التليفون مستعملاً، على الرغم من صدوره قبل عامين، عام ١٩٩٦، يحوي ٩٩ خانة لتسجيل الأسماء، ونغماته "مونوفونيك"، وعلى الرغم من حجمه الكبير، بالمقارنة بأنواع تليفونات "نوكيا" الصادرة حديثاً، إلا أنني شعرت بالسعادة لأن إبراهيم زوّدني به، هذا هو هاتفي المحمول الأول. لم يكن عليه أي أرقام. حذّرني إبراهيم بينما يدسّه في يدي من أن يغافلني أحدهم ويسرقه مني، قال لي: "نمرته عزيزة عليَّ، خلّي بالك منه، ما يغيبش عن عينك، لو تحب تربطه بسلسلة في بنطلونك شغال، المهم احرص عليه، نمرته مع أساتذة جامعة، وطلبة زمايلك من كل الكليات اللي حواليك".

لم أبدأ العمل مع إبراهيم منذ لقائنا الأول. احتاج الأمر منه عدة لقاءات وجلسات معه في البدرون، الغرزة التي تعلو الشقة التي استقبلني فيها للمرة الأولى كانت خافتة الإضاءة. ترددت على البدرون، على الرغم من أنه لم يكن "بدروناً" بالمعنى الحرفي للكلمة، لأتدرب على عمل "الديلر" أو "الدولاب المتحرك". الآن فهمت لماذا هتفت الفتاة السمراء التي تقف في محل التصوير بقولها "افتح للدولاب". كان اسمها صفاء. لم أعرف كيف عرفت أنني جئت لأعمل مع إبراهيم سالم في هذه المهنة. نادية كانت قد مهّدت لي أن مهمتي ستنحصر في تلقّي تليفونات على المحمول من الطلبة الراغبين في شراء أصابع الحشيش (الصنف)، معظمهم داخل الجامعة، لذلك

يحتاج إبراهيم سا لم طالباً أميناً مثلي يثق فيه، ووجهاً غير معروفا للأمن أو للحرس الجامعي، يمنحه التليفون المحمول، ويكون دولابه المتحرك بين الكليات. لم أعرف ماذا حدث للدولاب الذي كان قبلي، لكن ما عرفته هو أن مسعد، الشاب الذي استقبلني للمرة الأولى، لا يصلح أن يعمل في هذه المهمة، فشكله سائق ميكروباص، كما تتهكم عليه نادية. لكن لماذا شكرني إبراهيم عندما التقاني أول مرة؟ ظلّ السؤال مكتوماً داخلي، أنسى طرحه على نادية التي لم أعد ألتقيها منذ بدأت العمل الجاد مع إبراهيم. أحمل خمسة "صوابع" حشيش في جيبي العلوي، أدخل الجامعة بأمان، متأبّطاً أجندة المحاضرات وكتابين، والتليفون المحمول في جيب بنطلوني "الجينز" الذي اشتريته من أول مكافأة دسّتها في جيبي أصابع إبراهيم الغليظة، بينما يقول وجرح صدغه يرتعش: "عاوزك تتشيك، أحنا ضيوفنا مش أي كلام، وزمايلك برضه مش لازم يحسوا أنهم بيتعاملوا مع أي حد، لما يشوفوك زيّك زيّهم هيشخللوا جيوبهم، محدش هيطاوعه نفسه يقاوحك في الوهبة، عيش".

٨٥

اشتريت بنطلون جينز و"برفان" رخيص وقميص داكن اللون لا يشفّ جيبه أصابع الحشيش التي أضعها داخله، بينما أمرق بثقة إلى الجامعة في الصباح، ابتعدت عن الكلية، وانتقيت ظلالاً قريبة إلى كافتيريا كلية التجارة. لم أكن أعرف متى سأتلقّى الرنين المنتظر،... ألو أيوا

عاوزين من "الجوكر"... ألو... ألو... ألاقي معاك آخر شريط لعمرو دياب...، ألو.. إيه أخبار ملزمة القانون الجنائي، عاوز أربع ملازم من محاضرات تانية تجارة قدام مدرج العيوطي. هل حقاً كنت آمناً مطمئناً وأنا أدخل الجامعة بهذه المصيبة في جيبي؟ هل كنت أقدّر حجم الخطر الذي بدأت أخطو فيه، أو حجم الوحل الذي بدأ يلتصق بقدمي؟ ربما لم أكن أفكر في أنه وحل. كانت نظرات عيني الساهمة، المترقبة لباب الجامعة، مع الداخلين والخارجين من الطلبة، أشكال وألوان، المتعجلين منهم أو المنتظرين لزملائهم، تتدحرج رويداً رويداً إلى أصابع الحشيش الراقدة في جيبي، غير عابئة بما يدور في نفسي. مرّت أيام لم أرَ فيها وفاء ولم أخطُ بقدمي عتبة الكلية. كنت أجلس بجوار مدرجات "التجارة"، لا أعرف لماذا اخترت هذا المكان، هي أكبر كليات الجامعة وأكثر مكان يحتضن تجمّعات مختلفة: طلبة سلفيون يجلسون في رحاب المسجد الصغير المجاور لمدرج "العيوطي"، وآخرون يتحلّقون مثل الذباب حول "الكافتيريات" المختلفة التي تبيع ألواناً مختلفة من الأطعمة. أحد محلات "الكشري" الشهيرة افتتح كشكاً له داخل الجامعة، وكان الزحام حوله شديداً. ظللت أرمق أصابع الحشيش وأتفحص شاشة التليفون الصامتة دوماً، كنت متأكداً من أنه مفتوح وليس مغلقاً، فلماذا لا يرنّ؟ هل طال غلقه بعدما تركه "الديلر" السابق فظنّ الزبائن ومريدو حشيش عم إبراهيم أنه لن يعود لفتح الهاتف؟ ربما، كل الاحتمالات كنت أقلّبها في رأسي، بينما أبراج المحمول القريبة من الجامعة تحمل إلي المكالمة القادمة التي قطعت خيط أفكاري مع رنين الهاتف الرتيب.

٨٦

"لا تذهب أبداً إلى زبائن بعد منتصف الليل. اللي عاوز يحشش يتفضل هنا... في البدرون، يشرفنا ويآنسنا...".

الكلمات كانت لعم إبراهيم، كان يقولها بينما جرح صدغه يكاد ينتفض غضباً بعدما جئته بمصيبة ثقيلة، وجهي كان قد تورّم من الضربات التي تلقيتها تلك الليلة الغبراء التي ذهبت فيها استجابةً لرغبة أحدهم، هاتفني وطلب "صباعين" حشيش، بمائة جنيه، كان فخ، نجح صاحبه في استدراجي، خاصةً أنه حدّد لي منطقة "أبو قتاتة" التي لم أسمع عنها من قبل، على الرغم من كوني أحد المترددين عليها بكثرة. طلب مني لقاءه بجوار كوبري المشاة المطل على قسم شرطة "بولاق الدكرور". في البداية ترددت عندما حدّد لي المكان، قلت له في توجس: "قصاد القسم، طب خلينا الناحية التانية، قصاد مصنع الأهرام بتاع الفيروز"، فردّ عليّ الصوت في حدّة: "ياعم هو فيه، احنا هنخطفك، تعالى قابلنا مطرح ما احنا عاوزين، وهنشوفك، وهنكرمك في وهبتك".

انتهت المكالمة، ولم أعرف ما يتعين عليّ فعله، فكرت في مهاتفة "عم إبراهيم" واستشارته، خاصةً أنّ الموعد الذي ضربه لي المتصل كان في العاشرة مساءً، وهو ما سيجعلني أتأخر في العودة إلى أكتوبر، وهو ما يمكن أن ينجزه مسعد، لكنني تراجعت عن الاتصال، وقررت خوض غمار المغامرة وحدي، توهمت أنني يجب أن أزرع الثقة في قلب إبراهيم سالم، لكن الحقيقة أنني ذهبت إلى المشوار مدفوعاً بطمعي، من قال إن الطمع يقلّ ما جمع، هذه العبارة ليست صحيحة،

ففي أول مشوار تلقيت علقة ساخنة من ثلاث "بلطجية" استولوا مني على ٥ أصابع حشيش والعدّة "الإريكسون" وكادوا يجردونني من ملابسي. لم أفلح في مقاومتهم، خاصةً أنني عندما تظاهرت بالشجاعة والقوة هوت قبضاتهم على وجهي بلا رحمة، كأنهم يتدربون في ساحة شعبية، أولاد الكلب. ذهبت إلى إبراهيم والدماء تقطر من كل سنتيمتر في وجهي، فتلقّاني فزعاً وأدخلني بسرعة شقته التي استقبلني فيها أول مرة، كان واضحاً أن هناك عدداً من الضيوف يجلسون معه في "البدرون"، كان يرتدي جلباباً أبيض فضفاضاً، كأنه عائد من الحج أو من العمرة، ورائحة عطره القديمة تفوح منه. حاذر الاقتراب مني أو أن تتلطخ أناقته بدمائي؛ بسط ساعده بين جسده وجسدي ليحول دون الاقتراب منه. تماسك ولم يظهر لي أي غضب، لكنه كان في داخله مفروساً تهبّ منه رياح الغليان، خاصةً أنّ كلمات انزلقت منه من نوعية: "إيه اللي ودّاك بس؟ يا عم انت شغلك جوا الجامعة، أي ابن وسخة يكلمك قول له مش بطلع برا. كدا برضه يا مراااااااااااد...".

كان يمطّ اسمي بطريقته الريفية العتيقة، صدغه ارتعش أكثر من مرة، بينما يستخدم زجاجة عطره في إطلاق بخّات قليلة على وجهي المصاب، قبل أن يعطيني عدة مناديل "كلينكس" لم تستطع إيقاف نزيف الدم. شعرت بضجره وضيقه عندما قال: "باقولك... بص معلش المرة دي، مش عارفين نعوض التليفون إزاي، كدا برضه، مش تخلّي بالك؟ المهم روق دلوقتي، وريح الجتة، عندي ضيوف مهمين فوق، أخلصهم وانزل لك، ما تروحش. هتروح إزاي كدا وانت

مضروب بالمنظر دا؟ معاك فلوس ولاّ نفضوك على الآخر؟".

٨٧

ما الذي جعلني أذهب بعد الحادث إلى إبراهيم سالم؟ كنت أظن أن هذا هو أفضل الحلول، خاصةً أنه لن يطمئن بسهولة لضياع المحمول الذي أوصاني بربطه بسلسلة إلى بنطلوني، لكنني أخطأت خطأً فادحاً، فإبراهيم سالم لم يهمه ما وقع لي، بل ظل يردّد طيلة الليلة، بعدما انتهى من ضيوفه بالبدرون، "يا خسارة فلوسك يا إبراهيم"، دا أنا لسه مديك العدة يا بني، طب الحشيش وعوضنا على الله، يطفحوه بالسم الهاري، أجيب منين العدة دي، والشريحة اللي عليها نمر أساتذة محترمين؟ كدا يا مراااااااد!".

كانت آلام وجهي تمزقني، ضربات البلطجية الثلاثة بدأت تدقّ وجهي مرة أخرى بعدما هدأت عضلات جسدي الساخنة، وقت المشاجرة لم أشعر بآلامها بفضل الإدرينالين الذي أفرزه عقلي في عروقي و"خضة" مواجهة الأسلحة البيضاء التي شهرها الأشقياء الثلاثة في وجهي، كل هذا جعلني لا أشعر بالضربات التي كانت أشبه بخبطات عشوائية في زار. كلمات إبراهيم سالم اللائمة هي الأخرى زادت الوجع، خاصةً أن الدماء التي سالت من فتحات أنفي ومن جرح غائر في حاجبي الأيسر ضاعفت من الصورة المشوشة، فلم أستطع تحديد معالم إبراهيم سالم بينما كان يتباكى، والضوء الخافت للشقة ضاعف من الصورة الباهتة، خاصةً أن جسد إبراهيم الضخم

ظل يروح ويجيء وهو يردد: "إيه اللي ودّاك يابني؟ إيه اللي وداك يا مراااااااااد؟ أنا طلبت منك تروح لزبائن برا جامعتك وكليتك؟ كدا برضه، انت كنت طمعان فيا ولا إيه...؟ الله يخرب بيتك يا نادية ويخرب بيت اليوم اللي شوفتي الفقري دا فيه، كان لازم تنقذها يا اخويا من الشارع، كنت تسيبها مرمية كلاب السكك تنهشها، يخرب بيت معرفتكم انتو الجوز".

من بين حومة غضب إبراهيم سالم التقطت ما قالته له نادية عن طريقة تعرّفها بي، ظللت متأثراً بأوجاعي دون أن ألفت نظر إبراهيم لتنبّهي المباغت لما تلفّظ به لسانه للتو، فيما ظل هو يروح ويجيء مثل الكلب السعران، قبل أن يختفي بغتةً في حجرته ويعود مرتدياً جلبابه كالح اللون الذي استقبلني به. هزّ قبضته الضخمة في وجهي وأنا أظنها ستهوي على صدغي لتكمل ضربات البلطجية الثلاثة، لكنه كان ينتفض بينما يقول: "يالا يابنى،.قوم روح لحالك، ما تورنيش وشك هنا تاني، انت طلعت "فافي"، يالا يا حبيبي، روح لحال سبيلك".

٨٨

في هذه الليلة التي عدت فيها محطّماً زارتني نادية، كانت تبدو مثل راقصة انتهت من أداء فقرتها في ملهى ليلي درجة عاشرة: وجهها يبدو مجهداً، مرهقاً، بقايا قطرات عرق خطت مسارات فوق جبينها وعلى خديها؛ مساحيق مكياجها باهتة؛ مظهرها كان سيئاً؛ لكنها مع ذلك مرّت بشقتي، كأنها كانت تعلم بمصابي أو خيبتي. لا أعرف كيف

علمت بما حدث: هل هاتفها إبراهيم؟ هل عاتبها بقسوة وطالبها أن تسوّي معي مسألة المحمول المفقود؟ هل ستطالبني نادية بأن أوزّع الحشيش مجاناً لسداد ثمن المحمول لإبراهيم؟ لكن كيف تأتمنني على الحشيش بعدما تسببت بحماقتي في ضياع المحمول الذي يحوي أرقام زبائن إبراهيم؟ أي عرض تحمله لي نادية في جعبتها؟

استقبلتها بوجه لم يتعافَ من إصاباته، بل تورمت كدماته. ظلّت تحدّق فيّ بنظرات لم أستطع تفسيرها. أحاطت بعيني انتفاخات عجيبة إثر لكمة من لكماتهم، لكن ذلك لم يمنع دموع عيني التي طفرت فجأةً. كنت أشعر بالوحدة والضياع، كأنني محاصر، اجتاحني سعال عنيف فجأةً رجّ رئتي، كأنني كنت أدخن سيجارة حشيش مخلوطة بحنّة ولبان دكر منتهي الصلاحية. تقدّمت نادية مني، وأحاطتني بلحم ساعديها؛ احتضنتني بقوة، وملأت أنفي برائحة عرقها المختلطة بروائح التبغ والحشيش وعطرها الأنثوي الرخيص. علا نشيجي؛ بكيت كما لم أبكِ من قبل، كأنني ولدت الآن من رحمها، وكأنها تربت على مؤخرتي ليتضاعف بكائي، كانت نادية الآن مثل قابلة طيبة فاجأتها رقة الجنين الوليد.

٨٩

– هذه حركات مسعد.

قالتها نادية وهي تضع المزيد من الكمّادات فوق وجهي الذي تحوّل لون جلده إلى الأزرق من أثر ضربات البلطجية. كانت نادية تطببني

في شقتي، فوق فراشي الصغير الذي وضعت بجانبه طبق صفيح كنت أحتفظ به من زمن على أمل أن آكل فيه يوماً، لكنّ هذا لم يحدث فكساه الصدأ. ملأته نادية بالماء، وأخذت قطعة قماش عثرت عليها في مطبخي واستخدمتها كضمادة لوجهي المحطم. كانت ملامحها متوترة مجهدة متصلبة، هي الأخرى. لم تحدّثني عمّا قاله إبراهيم سالم لها، فقط نطقت الكلمتين وصمتت. كنت أشعر أنّ وراءها أخباراً ليست سارة: هل طلب منها أن تعثر على طريقة توظّفني من خلالها بالسخرة لردّ حق التليفون الضائع؟ لم تتلفظ بكلمة منذ أن عانقتني على باب الشقة، فقط ظلّت تضع على وجهي الضمّادات، قبل أن تلقي نظرة متأففة على غطائي البائس، ثم نهضت مغادرةً الحجرة، والشقة كلها. ظللت راقداً، لم أقوَ على ملاحقتها من النافذة لأسألها عن أسباب مغادرتها أو حتى لأشيّعها بنظرة أخيرة، لم أعرف إن كانت ستعود مرة أخرى أم لا. أغلقت أجفاني، تدحرجت رويداً رويداً في موجات متتالية من النعاس، جذبت غطاء فراشي القديم، كنت أشعر برعشة تجتاحني في سائر أنحاء جسدي، وبآلام شديدة في عظام كتفي، على الرغم من أن وجهي استأثر بالحجم الأكبر من اللكمات. شعرت أن الغطاء غير قادر على مواجهة التغيرات المنتشرة في أنحائي، فألقيت بنفسي في دوامة النعاس التي اتّسعت موجاتها وابتلعتني.

٩٠

لا أعرف كيف جلبت نادية هذه الأغطية الكثيرة التي نشرت في

جسدي الدفء فجأةً، فأغرقتني في غفوة لا أعرف كم استمرت.
كيف دخلت الشقة؟ كيف عادت ومعها هذه البطاطين الوثيرة التي استيقظت فوجدتها تعلوني، والوسائد النظيفة التي تسند رأسي، والملاءات ناصعة البياض التي وضعتها عند رأسي في انتظار استيقاظي لتستبدلها بالملاءات القذرة التي كنت أنام عليها بصحبة عشرات الحشرات التي كنت أشعر بخطوها بجانبي على الفراش، كأنها عقدت معي اتفاقاً أن تتركني أنام في سلام مقابل ألاّ أغير الملاءات؟ كانت هناك جلبة فى الشقة، أصوات في المطبخ وفي الصالة. رفعت الأغطية الكثيرة فوجدتها ألقت بغطائي المهترئ على الأرض ومزّقته إلى أكثر من خرقة كي تستخدمها في مسح بلاط حجرة نومي. كانت الحجرة نظيفة للمرة الأولى منذ استعمرت الشقة منذ سنوات، تفوح منها رائحة عطرة. حرّكت ساقي اليمنى بصعوبة، وجدتها غيرت لي ملابسي التي كنت أرتديها عندما فتحت لها الباب متورّم الملامح، كستني بيجامة نظيفة كستور، صوف المحلة. كان واضحاً أنها لم تنسَ شيئاً. نهضت بينما قدميّ ترتعشان من أثر التيبس. أسفل سريري وضعت نادية "شبشباً" جلدياً جديداً. كنت أتحرك فى شقتي حافياً. لماذا تفعل معي نادية هذه الأشياء؟ لماذا تكسوني ملابسَ جديدة، وتحضر لي من شقتها وسائد وبطاطين وملاءات نظيفة؟ من ساعدها أصلاً على جلب هذه الأشياء؟ وضعت أقدامي في الشبشب، تحركت به بصعوبة في البداية، لعدم اعتياد أصابعي الخطو إلاّ حافياً، خرجت من غرفتي فهالني ما رأيت.

كانت شقتي القذرة، التي اعتدت العيش فيها طوال السنوات السابقة، تتضوع بعبق جديد، نادية في منتصف الصالة تقف مرتديةً جلباباً خفيفاً تعقد ذيله حول خصرها، كاشفةً فخذيها، وبجوارها "جردل" ممتلئ بماء أسود يشفّ عن كمّ القاذورات التي امتصّتها خرق المسح من بلاط شقتي الذي مسحته نادية بهمّة واقتدار. كانت تعطيني ظهرها الممشوق، مدندنةً بأغنية، وفي يدها خرقة من خرق الغطاء الذي كنت أتدثر به. العرق يسيل على وجهها، منحدراً على رقبتها ومؤخرة رأسها، بينما تعتصر الخرقة في الماء وتعاود مسح ركن من أركان الشقة التي فاحت أخيراً برائحة جديدة غير رائحتها السابقة. كنت مبهوتاً، بينما أتقدّم نحوها، فالتفتت إلي على أثر سماعها خطوات "الشبشب"، وقالت مبتسمةً ابتسامةً حانية: "إيه بس اللي قوّمك؟ أنت جسمك نحيل، محتاج راحة، روح يا حبيبي ريّح الجتة"...

لم أقوَ على الحديث، ريقي كان ناشفاً، ظللت أحدّق في ما تفعله بدهشة، وعادت هي إلى تلقائيتها، مواصلةً مسح البلاط. عدت مرة أخرى إلى الغرفة، لكنني مررت بالمطبخ، كانت تفوح منه، للمرة الأولى، روائح طعام تنبعث من فوق ثلاث حلل، على بوتاجازي الصدئ القديم، أدخنة عبقرية نفاذة كانت تضوع في المطبخ لأول مرة بقوة، كان المطبخ يشبع من الطعام ويرتوي قبلي، شعرت أنّ نادية استعمرت روحي، دخلت وانتشرت وامتدت بها وصارت هناك بكلّ طرف من أطرافي.

٩١

أمام طبق الشوربة الساخنة، والفراخ الطازجة المسلوقة التي طهتها نادية، كشفت لي كيف دبّر مسعد سرقة التليفون المحمول، بينما تنزع جلد الفراخ المسلوقة عن قطعة الصدر، وتضيف إليها الملح والفلفل، قبل أن تضعها أمامي في طبق الشوربة. قالت: "مسعد حقود وفاشل، ومن زمان بيحاول ينال ثقتي، لكني عارفه معدنه كويس، معدن نجس، فلزه مضروب، وصايع وضايع، لا يعرف سوى ملاعبة عضوه، لذلك كان من الطبيعي أنه يكرهك، ويتربّص بك، أنا المحقوقة، كان لازم أحذرك".

كنت صامتاً، بينما كلماتها تتدفق، مئات الأفكار تتصارع في رأسي، أتناول طعامها، ممتنّاً لها، لكنني لم أعبّر عن هذا الامتنان بكلمة شكر واحدة، ظللت مطبقاً فمي منذ استيقظت ووجدتها قلبت معالم شقتي، كان في داخلي شيء يدعوني للاستمرار في لعبتها، وأشياء أخرى تصرخ فيّ بالتراجع، خاصةً بعد العلقة الساخنة التي تركت معالمها في وجهي، وهاهي تفتح لي عشّاً جديداً من أعشاش الدبابير التي أقحمت نفسي فيها. سألتها في تردد، بينما أتأمل جلبابها المتّسخ من آثار تنظيفها للشقة: "ليه بيكرهني مسعد؟ أنا قابلته مرة واحدة بس، دا موضوع محيرا".

لم تجب، ظلت تتأملني، حدقت في عيني المتورمة، بينما أصابعها تعمل بسرعة، مزيلةً الجلد عن قطعة جديدة من الفراخ وتدسّها في طبق الشوربة الذي طفت على سطحه بذور جوزة الطيب والحبهان. قالت بصوت بدا قادماً من أعماق صدرها: "زي ما قلت لك، فلزه

مضروب، أنا رفضت الاعتماد عليه في ترويج الصنف في الجامعة، كما رأيته، عربجي، وطلبة الجامعة بحاجة لابن ناس".

انهمكت في الأكل وأنا لا أعرف ما السؤال الذي يجب أن أقذف به حصارها لي، لم تمهلني، مالت نحوي فلفحني عطرها رغم اتّساخ جلبابها وعرقها الذي سال من مشقّة المجهود، فحانت مني نظرة نحو فلقة نهديها البضّة، فهمست وهي ترفع وجهي لتواجه نظراتي بنظراتها: "مراد، لن أضغط عليك، انت حبيبي، سأبعد عنك إذا أردت، لكن صدقني، لن أتخلى عنك، ولن أورطك في مصيبة، أنا بحبك، وواقفة معك، وسأحميك، أعرف حاجتك لأشياء عديدة، وسأحققها كلها لك". ثم اعتدلت وواجهتني بنظرة لائمة، بينما تستطرد: "أما إذا لم تصدقني فلن أرغمك على شيء، سأخرج للأبد".

ظللت صامتاً، كنت أشعر بلهجة وعيد في كلماتها، تهدّدني للمرة الأولى منذ تعرفي عليها، بماذا تهددني بالضبط؟ ظللت أقلّب كلماتها في رأسي، تهددني بمقاطعتي أم بعدم تناول الحشيش أم بالحرمان من الثراء الذي ستغرف منه لي؟ أرتشف رشفات من الشوربة الساخنة، محملقاً في الطبق، وأنا أشعر بأعصابها تتوتر، قبل أن تتحرك في عصبية نحو حجرة نومي لترتدي ملابسها. راقبتها من خلف الباب بينما كانت تخلع جلبابها المتّسخ وتلقيه محتدةً أرضاً، وتقف عاريةً بينما تفرد ملابسها، ثم ترتديها في حزم، وتغادر الحجرة وهي تطفئ نورها، ثم أقبلت نحوي، وأنحنت على رأسي فقبّلتها، قبل أن تهمس: "تركت لك الفلوس اللي سرقها منك مسعد، واستردت منه التليفون، ما

تشيلش هم الحشيش المسروق، إبراهيم لن يسألك عنه أو يلومك إذا عدت".

ثم اعتدلت واتّجهت نحو باب شقتي بخطوات واثقة، فوضعت الملعقة في طبق الشوربة وهتفت بينما أحدّق في ظهرها: "أرجع إزاي وهو طردني طردة الكلاب؟ دا قال لي غور مش عاوز أشوف وشك تاني!".

٩٢

عند الباب توقفت نادية على أثر ندائي، توقّفت وخمنتُ أنها تبتسم ابتسامة انتصار، التفتت نحوي وابتسامتها التي توقعتها تتّسع، اقتربت مني وجلست أمامي قائلةً: "إبراهيم مالوش دخل في موضوعنا، أنا الآمر الناهي فيه، الحشيش ملكي، إبراهيم له ملعب تاني، منهمك فيه، ومش من حقه التحكم في ملعبي، هو بيساعدني أحياناً لأنه محتاجني، أحنا زوجين، تفاهمنا على كدا، قسمنا حياتنا على اللي يخليها تستمر، هو بيكافح في سكته، وانا كمان بكافح في سكتي، وعليه، ما تشيلش هم إبراهيم، هو جوزي، وأنا عارفه ألمه إزاي".

لماذا أتردد في تقرير مصيري بعد ما قالته نادية، أنا مجرد مجرم شاب من جيل ضائع جاء في المنتصف بعد الذين سبقوه ووضعوا له العصا في العجلة، فتعثر وضاعت أحلامه وبات عليه أن يقرر بنفسه، خاصةً بعدما خدعه المؤرخون وأبدلوه آلاف القصص الزائفة التي لا تسمن أو تغني من جوع، منحوه آلاف المجلدت التي تحوي حكايات مسلية

وشعارات جوفاء، مثل الطبول أو علب الصفيح، تصدر ضجيجاً بحكم خلوها من الحقيقة. الحقيقة مصمتة، كتلة خرسانية صلبة، أساس متين، تمنحني نادية الفرصة لأعرف الحقيقة بنفسي، عبر طريق "الديلر"، أليس هو القادر على أن يتواجد في كل المجالس ويتّصل بكل الرتب، من الغفير حتى اللواء، إما أن أعتلي سلا لم هذا الطريق أو أظل كما أنا الآن حبيس علب الصفيح.

٩٣

يستقبلني إبراهيم سا لم كأنّ شيئاً لم يكن، يرتدي جلبابه الأبيض الواسع الذي كان يرتديه ليلة الاعتداء علي بواسطة بلطجية مسعد، فتح لي الباب واحتضنني فجأةً ببسمة عريضة ارتعش لها جرح صدغه، قبل أن يقول: "أهلاً أهلاً يا مراد، اتفضل يا غالي".

كان الظلام يغلّف كلّ شيء، إنارة خفيفة تحاول أن تتسرب، وسط هذا الستار المظلم، لتبدده بلا أمل. كانت رائحة أجولة الفحم تختلط برائحة جسد إبراهيم الذي يستخدم عطراً رخيصاً لا يستطيع مقاومة رائحة جسده التي تقترب من رائحة التبغ والحشيش وعنصر ثالث أقرب إلى السبرتو. أجلسني في بهو شقته ثم ربت على ركبتي في حنو قائلاً، بينما جرح صدغه يرتعش: "حقك عليا يا مراد، أنا عارف إن مسعد شاب "سوّ"، لكني محتاج الأوساخ في شغلي، حقك عليا، عموماً الموبايل رجع، ولا كأنه ضاع منك، أما الأرقام فمعظم أصحابها ضيوفنا الليلة".

لم أفهم شيئاً من عبارته الأخيرة. قادني من يدي إلى البدرون، الشقة التي تعلو شقته، إحساس بالريبة كان يتعاظم داخلي بعد كلماته المرحّبة، كأنني أُساق إلى فخ، وكانت ريبتي في محلّها، فما إن ولجت البدرون حتى تعرّفت على أحد ضيوف إبراهيم ، وتسمّرت بعدما تعرفت عليه: كان رمضان، أستاذي في الكليّة.

٩٤

كان يجلس مقرفصاً على الأرض، بجوار آخرين احتلوا جميع المقاعد، فبدا أقرب إلى الخادم الذي ينتظر طلبات الأسياد ليلبّيها صاغراً. مسعد كان يطوف على الباقين بعيدان الجوزة، تلتهب على قمتها قطع الفحم المعمّرة بقطع الحشيش، الدخان فوق الرؤوس، وفي أيديهم كؤوس الأنخاب. المشهد أقرب إلى الاحتفال منه إلى قعدة غرزة عادية. لم يكن رمضان صاخباً كما تعودت عليه في المحاضرات، أو متكبّراً، متعالياً. رأيته ضئيلاً، بحجمه الحقيقي، أو حجمه الذي أحب أن أراه فيه. تذكرت بغتةً وفاء وزيارتها له في مكتبه. كيف تحطّم بهذا الشكل؟ ومتى أصبح من روّاد بدرون إبراهيم؟ انتبهت على كلمة الأخير بينما كان يدفعني متأبّطاً ذراعي نحو القعدة قائلاً: "مساء الفل يا حضرات، سهرتنا عامرة إن شاء الله".

ردّ الجميع تحيته بجمل متتابعة، تقليدية، آلية، متثاقلة، لم أستطع تمييز ما يقولون، نظراتي تسمّرت على رمضان الذي شعر بلفحها، فحانت منه نظرة تجاهي، ثم أحنى رأسه بعدما لم يسترعِ انتباهه أي شيء في،

حتى ولو بالشبه، كانت أمامه نصف زجاجة بيرة. تجاهلني إبراهيم متّجهاً إلى رجل منتفخ الكرش، أبيض البشرة، وقد شابها احمرار من التدخين والشرب. انحنى إبراهيم على كفّه السمينة، المكتظة بخواتم ذهبية، وقبّلها في خنوع، فانتقل تركيزي بغتةً إلى الرجل الذي كانت ملامحه تزغرد بثقة واسعة، كأنه صاحب المكان. ظللت واقفاً متسمّراً، أراقب إبراهيم الذي يصغي بصمت للرجل الذي يحدّثه وهو يرمقه بنظرات آمرة، فيما تفوح في المكان رائحة كحول أقوى من تلك التي تفوح من جلباب إبراهيم. تراجعت لأسند ظهري إلى الحائط في نفس اللحظة التي غادرت فيها نادية الحجرة فجأةً، كأنها خرجت من فتحة في الأرض.

٩٥

فوجئت بوجودها، كما فوجئت بوجود رمضان، وقفت بجواري هامسةً: "مش قلت لك إني مش هسيبك، مش هتكون لوحدك أبداً". ثم التفتت نحوي محدّقةً في عيني بنفس النظرة التي حدّقتني بها في شقتي قائلةً: "هبقى معاك، حتى وأنت في الجامعة".

أشرت ضاحكاً نحو رمضان وأنا أقول: "مصدّقك، أرى أمامي أهم واحد في كليتي".

رمقتني بنظرة حذرة ثم ابتسمت: "بيدرّس لك؟".

أطلقت ضحكة مدوية لفتت أنظار الحاضرين نحوي، بما فيهم رمضان نفسه، فخفضت صوتي قائلاً: "مش مهم المادة اللي بيدرّسها

لي بالكلية، المهم أنه الآن يلقنني جوانب جديدة من التاريخ، جوانب أسطورية".

لم تتعلق بي نظرات رمضان كثيراً بعد ضحكتي المدوية على الرغم من أنني ظللت أحدّق فيه بتركيز، كأنني أمعن في إشعاره بفضحي أمره، لكنه لم يعبأ. اقترب منا إبراهيم سالم، وتفرّس في زينة نادية وبهرجة مكياجها وثوبها الضيق الحابك الذي يبرز تضاريس ثدييها وخصرها، غمز لها مومئاً برأسه بإشارة تحركت على أثرها من جانبي باتجاه الرجل الضخم ممتلئ الكرش، فيما ربت إبراهيم على كتفي ربتة حانية قائلاً: "ليه ما بتشربش؟".

أفقت من شرودي بعدما اتجهت نادية تجاه الرجل، فحولت نظري مرة أخرى نحو رمضان وسألت إبراهيم في فضول: "ماذا يفعل هنا؟".

٩٦

"زبائني ناس محترمة"... يقولها إبراهيم واثقاً قبل أن يستطرد: "هو بيدرّس لك؟".

لم أضحك هذه المرة، قلت مرتاباً من ردّ فعل إبراهيم: "أستاذي في الكلية... أفضل من يدرّسون لي التاريخ".

ربت إبراهيم على كتفي في رضا قائلاً: "الدنيا صغيرة، مثل البدرون، كل ضيوفي أصلاء، مهندسون وأطباء، موظفون بنوك وبترول، ومحامون، رجال دين وقساوسة، شيوخ أزهر ودعاة ورجال

صالحين، أنا مش بأستقبل كل من هبّ ودبّ، هل ترى الرجل السمين الذي تتحدث معه نادية؟".

التفت مرة أخرى نحو الرجل الضخم ممتلئ الكرش. كانت نادية ملتصقة به في غنج، بل تقريباً كانت تجلس على فخذه الأيسر، تربت على شعره ومؤخرة رأسه بحنان، كأنه حيوانها الأليف. امتقعت عيني وارتعش قلبي بين ضلوعي: كيف تجرؤ على فعل هذه الأشياء أمام زوجها؟ بل كيف تجرؤ على ذلك أمامي؟ كان يبادلها الطبطبة والربت على خصرها وظهرها، وشفتيه تلهثان بينما يتحدث معها. انزلقت رغماً عني كلمات: "إيه اللي بيحصل يا عم إبراهيم؟".

فوجئت به يقول: "أنا راجل عملي يا مراد، زي سيجارة الحشيش المغمرة، الفرق بينها وبين السجائر العادية إنها بتعمل دماغ. أنا خبرتي بالدنيا ليس لها حجم، تقدر تقول إنها أطنان، والأطنان دائماً تطبّ كفة الميزان".

كانت نادية تنهض في هذه اللحظة، ممسكةً الرجل الضخم من كفه الممتلئة المكتظة بالخواتم المتلألئة، وتجره مثل الخروف إلى الحجرة التي خرجت منها، بينما تومئ لإبراهيم برأسها، ومنحتني ابتسامة واثقة متعجلة. لم أبادلها الابتسام، كنت مبتلاً، متثلجاً.

٩٧

هل هو مستنقع أم بدرون؟ ولماذا تدور بذهني هذه الأسئلة إذا كان الرجل يقف بجواري يحدثني عن الفرق بين الحشيش والسجائر

العادية بينما زوجته يمتطيها آخر. هل هي المرة الأولى التي تسقط فيها نادية هذا السقوط المخزي أم أن إبراهيم اعتاد بيعها والاتجار بجسدها كل حين؟ وكيف أسأل عن عدد المرات إذا كنت أنا نفسي امتطيتها من قبل، حتى مع علمي أنها متزوجة؟ هل هذا هو ملعبه الذي كانت تحدثني عنه: المتاجرة بعرضه وشرفه؟.

واقفاً، مصدوماً بإبراهيم الذي رأيت منه جانباً آخرَ للتو، بخلاف جانب تاجر المخدرات، وأنا لا أعرف أنني سأرى منه بعد لحظات جانباً ثالثاً هو حقيقته الكاملة. ظللت واقفاً أحملق في باب الغرفة الذي أُغلق منذ لحظات مبتلعاً نادية والرجل الضخم، كأنني أكتشف للمرة الأولى أنهم مشوهون على الرغم من أنني جئت إليهم بقدمي لأعمل "ديلر"، فلماذا تأخذني المفاجأة هكذا؟

ظللت محملقاً في الباب، فيما يقف بجواري إبراهيم كجوال فحم. تسمّرت نظراتي حيث اختفت نادية مع الرجل، متخيّلاً ما تفعله معه الآن: تتجرّد من ملابسها الحابكة الضيقة، لتنطلق تضاريسها حرة، أمام عيني الرجل المتقعتين، بينما ابتسامتها الواسعة تتّسع وهي تتقدم منه، تفوح من إبطها المنتوفة رائحة عطرة، ومن خصرها الضامر نسمات مسك، تجبر الرجل على تحسّس بطنها الملفوف، في شهوة وشبق، بأصابعه السمينة الكبيرة، كأنه لم يمسّ النعمة الطرية من قبل، سرعان ما ينحدر بكفه على أردافها العاجية، ويداعب، في غلظة، كهفها المظلم الذي يشعّ برائحة خاصة، رائحة ياسمين تتفنّن نادية في جلبه وطحنه ومزجه بالقرنفل ودهان ساقيها حتى حوضها به، فتظل فواحّة بالمزيج، وتأسر من يقترب بشباك ياسمينها. اقشعرّ بدني

بغتةً بهذه التفاصيل التي تخيّلتها على عجالة، فيما إبراهيم يبتعد عني نحو رمضان. ترنّحت في وقفتي وجلت ببصري في المكان، فلمحت نظرات متفحصة غاضبة ترمقني في حسد وتستنكر عليّ العودة مرة أخرى؛ كانت نظرات مسعد المتّقدة بالمقت والكراهية. هل كنّا أعداء في حياة سابقة غير تلك التي نحياها الآن؟ تهاويت جالساً مخمّناً أنني أُذكِّره بغريم قديم. كان إبراهيم يتنقّل بين ضيوفه موزِّعاً عليهم السجائر الملفوفة. ألصقت ظهري بالحائط آملاً أن يتناهى إلى أذني صخب وضحكات نادية المسرسعة. تأكلني الغيرة، نعم كانت الغيرة تلتهمني مثل حشرة تسللت أسفل ملابسي: نادية الآن تحت بغل يلهو ويعبث بجسدها ويرتع بعضوه الذكري في أحشائها. شعرت بالاشمئزاز تجاه إبراهيم الذي كان يضحك في هذه اللحظة مع أحد ضيوف غرزته بينما يجذب أنفاساً من سيجارة بين شفتيه. كانت الإضاءة خافتة في البدرون، تحول الجميع إلى ظلال أو قطط سوداء تلمع أعينها في الظلام، وعلى الرغم من أنني لم أقرب أي كأس أو أشد أنفاس من أي تعميرة، مما يوزعه إبراهيم في سخاء على ضيوفه، إلا أنّ تثاقلاً مريباً كان يضرب رأسي ويجبرني على التساقط رغماً عني. في هذه اللحظة طُرق الباب طرقات منتظمة فصاح إبراهيم في فرح: "الطلبية وصلت يا واد يا مسعد".

لم أفهم شيئاً، بينما ألمح مسعد ينهض من مكانه مسرعاً، على أثر إشارة صارمة من إبراهيم، ليفتح الباب متأهّباً. كانت عدة صناديق تحوي زجاجات بيرة متراصّة في فتحته حتى ارتفاعه، كأنّ من جلبها ظلّ يرتّبها ليسدّ بها مدخل البدرون قبل أن ينصرف. ظلّ مسعد ينقل

الصناديق إلى المطبخ، قبل أن يتذمر طلباً للمساعدة. التفت إبراهيم نحوي موجِّهاً نظرات آمرة مصحوبة بكلمات: "همّتك مع مسعد يا مراد، الطلبية تقيلة ومحتاجين نخزّنها قبل الفجر".

٩٨

أكثر من مائة صندوق بيرة وكراتين مكتوب عليها "براندى إيجيبت" و"نبيذ أوبليسك" ظللنا ننقلها إلى حجرة مظلمة، أطلق عليها إبراهيم اسم المخزن، داخل البدرون. كانت الكراتين تملأ بسطة السلم وعدة درجات به. لا أعرف من جلبها، وكيف رصّها بهذه الخفة في مواجهة البدرون. خلعت قميصي الجديد، وظللت أنقلها مع مسعد من السلا لم إلى المخزن. كانت العملية مرهقة، وظهر على وجهي التعب وعلى خطواتي التثاقل، وانقطعت أنفاسي وارتعشت ركبتاي من ثقل الصناديق التي كنت أحاذر إسقاطها أو إفلاتها من يدي، لكن ظلّ فضولى مستيقظاً: من أين أتت؟ هل هي خمور مهرَّبة أم مغشوشة يعمل إبراهيم على تخفيف تركيزها وإضافتها إلى زجاجات أخرى؟ هل يعمل إبراهيم سا لم فى غشّ الخمرة إلى جانب عمله فى الحشيش والمخدرات؟ و لم لا، الشيء لزوم الشيء كما يقولون. لم تمنعني حيرتي من مواصلة نقل الصناديق فى صبر وأناة كبغل يرغب فى طاعة صاحبه إلى ما لا نهاية، لا أعرف لماذا؟ هل أرغب في كشف أسرار إبراهيم، أم أرتمي فقط فى أحضانه بعدما وجدت نفسي فى عالمه، ما هي المكافأة التي أتوقّعها؟ إذا كانت نادية نفسها في فراش شخص آخر

الآن، يمتطيها ويهرسها بلحمه البدين ويطأ روحها مثل الدابة التي لا حول لها، بينما راعيها يسلّمها لسيف الذبح، لماذا سلّم إبراهيم بكل بساطة زوجته إلى الرجل ممتلئ الكرش؟ من هو؟ ما نفوذه، إذا كان له نفوذ؟ وما سلطانه على إبراهيم؟ هل له علاقة بصناديق البيرة والنبيذ والأوبليسك والبراندي التي ننقلها الآن إلى المخزن الرطب المظلم؟ وإلى أين ستتجه هذه الصناديق مرة أخرى؟

٩٩

آخر ما أتذكره من هذه الليلة هو إصابتي بدوار شديد بعد الانتهاء من نقل صناديق البيرة والنبيذ، داخل مخزن البدرون، شعرت أنني أخلو فجأةً من روحي، آلام شديدة فى عضلات ساعدي، وفي أظافري، كأن روحي تتسرب عبرهما مغادرةً جسدي من أصابعي. هل يمكن للروح أن تتجزأ إلى عشرة خيوط تنسحب من الجسد من خلال الأصابع، أم أنها تغادر في قافلة واحدة، من الفم، أو تنقسم إلى سحابتين تنطلقان من العينين؟ كنت متعجّباً من قدرة البدرون على استيعاب الصناديق الكثيرة التي نقلناها إلى المخزن، كأنه جراب حاوٍ يتّسع لتخزين وابتلاع المزيد والمزيد، إضافةً إلى كونه غرزة صغيرة لعلية وسفلة ضيوف إبراهيم.

لا أتذكر متى خرجت نادية من الحجرة بعد مضاجعتها الرجل ممتلئ الكرش، آخر ما أتذكره أنني كنت مستلقياً على أريكة قديمة، في مواجهة باب الحجرة الذي انفتح وأطلّت منه نادية تتأبط ذراع

الرجل الضخم كأنهما عروسان في ليلة دخلتهما. بين صحوي ومنامي لمحتهما يتّجهان، أمام إبراهيم وضيوفه، نحو باب الشقة. هبّ إبراهيم مودِّعاً ومحتفياً كأنّ المرأة التي يغادر بها الرجل لا تخصّه، ليست امرأته، كان يردّد عبارات: "إيه يا بلك، ما بدري، لسه الليلة طويلة، دا حتى الطلبية لسه واصلة، طيب مع السلامة، شرفتنا".

استيقظت وسخونة الجو تلسعني، لا أعرف متى نمت، وكيف غبت عن الوعي بهذا الشكل. كان المكان خالياً، الشمس تضرب جدران الحجرة والشقة، وتسخّن حجراتها. الحر أسال عرقي غزيراً، كيف صارت الشقة خانقة هكذا وبالأمس كانت رطبة وحرارتها معقولة! نهضت، تفحصت الحجرة، لم يكن البدرون، كانت الشقة التي أسفلها، بالتأكيد حملني هو ومسعد وطرحوني هنا. تفحّصت المكان في ريبة، حجرة مسعد خالية، أجولة الفحم مكدّسة كما هي عند الباب، بحثت عن زر الإنارة، أضأت اللمبة النيون أعلى حوض الوجه بالحمام الذي كان ضيقاً، نظيفاً، على نافذته الصغيرة علّق مسعد ملابسه الداخلية البيضاء المصفرّة، فتحت صنبور الماء ووضعت رأسي أسفله. هطل الماء بغزارة، شعرت مع ملامستها رأسي برغبة مفاجئة في التبوّل، استدرت وفتحت "سوستة" البنطلون، مواجهاً قاعدة الحمام، شعرت بآلام مباغتة مع قطرات الماء الأولى التي انطلقت مع بولي، تأوهت، بينما باب الشقة يفتح ويدخل منه مسعد.

ظل واقفاً محدِّقاً في ظهري بوقاحة، حاولت إغلاق الباب فى وجهه فدفعه بقدمه متحدّياً، ثم أطلق ضحكة مستهزئة، وهو يمضي

نحو الصالة، مصطحباً لفة خمّنت أنّ بها سندوتشات، خاصةً بعدما فاحت منها رائحة شهية. تذكرت أنني لم آكل منذ صباح أمس، أغلقت سوستة البنطلون ووقفت فى الممر الضيق مواجهاً أجولة الفحم. جلس مسعد في الصالة وفتح لفة الطعام، فقلت في خفوت: "فين عم إبراهيم؟"

لم يرد، انهمك في تناول السندوتشات، كانت رائحتها الزكية آخذة في الانبعاث بعدما تصاعدت أبخرة منها دلت على احتفاظها بسخونتها وطزاجتها، عبرت الروائح الشقة إلى أنفي فازداد هياج مصارين معدتي. كان مسعد في هذه اللحظة أشبه بسائق ميكروباص فعلاً، كما يحلو لنادية أن تصفه، جلس وقد انتهت ورديته فقرر أن يكافئ نفسه بوجبة ساخنة وكوب شاي، مع الفارق أن عربة الميكروباص لم تكن هناك. كيف التقطه إبراهيم ليعمل معه في الحشيش والخمور؟ كنت واقفاً محدِّقاً فيه بنظرات غيظ، بينما معدتي تعوي من الجوع، فيما يأكل هو في نهم، متجاهلاً نظراتي، لا يفتح فمه إلا ليحشر فيه محتويات السندوتشات. هنا فُتح الباب مرة أخرى، ودخل إبراهيم.

١٠٠

تجاهل إبراهيم وقفتي المحتارة أمام مسعد، اقتادني من يدي إلى حيث يجلس الأخير قائلاً بينما يضع حقيبة سوداء على الأرض: "معلش يا مراد، خوفنا نصحيك، تتعب منا، خصوصاً إننا كنا مشغولين قوى

إمبارح، أنت بتطب كدا لوحدك، يارااااااجل، المهم، كلت ولا مسعد طنشك؟"

دفع مسعد عقب كلمته بساندوتش من فتات وليمته، قائلاً بصوته الأجش: "أكله أهو".

نظرت إلى الساندوتش الذي دفعه نحوي. لم ينتبه إبراهيم إلى غلظة مسعد، دس كفّه في جيبي وأخرج المحمول، العدة الإريكسون، كأنها لم تسرق، مد يده بها نحوي قائلاً: "خد يا بطل، ربنا يقويك، مستنيك شغل كتير، وكله جوا الجامعة، وما تشيلش هم".

تناولت العدة ونظراتي متعلقة بالسندوتش الذي بدا مقززاً رغم رائحة الطعام الشهية. فوجئت بإبراهيم يخرج من جيبه مائة جنيه ويدسّها في كفّي قائلاً: "خد.. بركة إمبارح".

لم أفهم ما هي بركة سهرة أمس التي يقصدها، لم أسأل، كان عواء جوعي يصم أذني ويلجم شفتي ولساني، شعرت أنني لو فتحت فمي سأعوي بدلاً من الكلام. قال إبراهيم: "أي حد يطلب منك الصنف عدّي الشارع وخده، وأرجع بيه، عشان المصيبة المرة دي تبقى حنينة، ما تكونش واوة جامدة، العدة نعوضها، إنما الحشيش، حرام".

انطلقت نحو أول عربة فول تقف في مواجهة الجامعة، وقفت أتناول عليها الطعام بشراهة، حانت مني نظرة نحو الجامعة بينما أقف بجوار عربة الفول وأصابعي مغموسة في الأطباق، كانت وفاء تقف في مواجهتي تماماً تحدّق فيَّ مصدومة غير مصدّقة هيئتي المزرية. فقط الآن انتبهت إلى أنني لم أرها منذ شهرين على الأقل. كان شعري أشعثاً، وملامحي مجهدة تبعث على الرثاء. اقتربت مني وفاء بحذر،

ممتقعة الملامح، كانت ملابسي ملتصقة بجلدي وعرقه، قميصي خارج البنطلون، حتى لا أعرف كيف أرتديته بعد نقل صناديق البيرة. صاحت وفاء بعدما وقفت في مواجهتي بجوار عربة الفول: "مراد، معقولة! كنت فين الفترة دي كلها؟ مش مصدقة عيني".

لم أجد ما أقوله، كلماتها كانت بالنسبة إلي تحمل أكثر الأسئلة التي يصعب علي الإجابة عنها، ظللت صامتاً، أمضغ الطعام وأملأ معدتي، لعلي أجد طريقة للهرب من حصارها لي الآن. اقتربت وشفتاها ترتجفان من الصدمة، وحاجباها يتحركان إلى أعلى، بينما نظراتها لم تزل تحمل استنكاراً. قالت: "شهرين بعيد عن الكلية، خير؟ إيه اللي جرى لك؟"

١٠١

كأنّ نادية ووفاء وجهان لعملتين مختلفتين، وجهان دون ظهر، تختفي نادية فتظهر وفاء، يختفي الوجه الشرير فيظهر الوجه الطيب، فيعاود الجانب الشرير الظهور، ممسكاً بعنقي، ويجبرني على الانحناء نحوه، مصرّاً على انتزاعي ممّا أنا فيه، هكذا كنا نجلس أنا ووفاء داخل الكلية، منذ آخر مرة جلست معها، قبل أن يعتدي علي بلطجية مسعد ويجردوني من المحمول. كيف يتّسع الزمان هكذا ويهرول مع نادية، بينما يتوقف ولا يمرّ حينما أعود مرة أخرى إلى عالمي الأصلي؟ هل يلعب الحشيش دوراً؟ هل يساهم في سرقتي؟ لكنني هذه المرة لم أكن مخدّراً، بالعكس، كنت مضروباً، مريضاً، راقداً في الفراش أغلب الأوقات.

لم تكفّ وفاء عن إلقاء الأسئلة، كنت أجيبها إجابات مقتضبة، غير مقنعة، كنت أعمل في الورشة، كنت بحاجة لمصاريف كثيرة، صاحب الورشة كان لديه عمل كثير، لم أشأ أن أخذله، إلى آخر هذه الحجج. ظلت وفاء ترفع حاجبيها وتخفضهما، عطرها الرقيق الثمين كان يلفحني، هذا عطر حقيقي وليس عطراً رخيصاً مثل عطر نادية، عطر وفاء كان يحتضنني كفقاعة مسك ناعمة، غلالة شفافة رقيقة، كانت تجلس بقربي، تتأمل هيئتي الرثة، تحاول أن تتوغل بنظراتها داخلي لعلها تكشف سري، كانت تقول: "مراد.. أنت مهمل جداً في حق نفسك، المهم دلوقتي هو مستقبلك، مش مهم الفلوس، مستقبلك هو اللي هيجيب لك فلوس، وفلوس كتيرة قوي".

ارتسمت داخلي ابتسامة ساخرة، كنا نجلس داخل الكلية على مقعد رخامي في مواجهة باب أحد المدرجات. قلت باهتمام: "شوفتي الدكتور رمضان النهاردة؟"

تعجّبت من تغيير الموضوع، ظنّته محاولة لتجنب حديث أكرهه، لكنني كنت مهتماً به بعد لقائي معه أمس في البدرون. لم تجب وفاء، بينما كنت أتفحص مبنى الكلية لعلي أرى رمضان قادماً من أي اتجاه. عدت إليها بعد استمرار صمتها، كان على وجهها تبرّم وحنق، فيما كنت في داخلي أشعر بالمسافات التي تفصلني عنها، كأنها سراب يعترض طريقي إلى اكتشاف حقيقته، سحابات غائمة تعيقني عن الإمساك بها، تضللني، حسدت رمضان ألف مرة، فهو يستطيع الاقتراب منها، وفي نفس الوقت يستطيع أن يكون عربيداً، مؤرّخاً، وماسح جوخ، يستطيع أن يكون صهراً لأعتى العائلات ثراءً، ووغداً

في أكثر المواخير انحطاطاً. اقتربت مني وفاء أثناء شرودي قائلةً بهمس: "مراد، ما لك؟ انت ليه بعيد وغايب عني؟ ليه مش مصدق إن...

١٠٢

أسابيع وشهور مرّت دون أن أرى نادية منذ غادرت البدرون مع الرجل البدين ممتلئ الكرش، أسابيع وشهور، أتقنت العمل، تحولت إلى "ديلر" محترف، أتردّد يومياً على البدرون لأخذ أصابع الحشيش بعدما أتلقى اتصالات من طلبة وموظفين بالجامعة: فرّاشون في بوفيهات مكاتب عمداء وكليات، عاملون فى محلات وكافتيريات داخل الحرم الجامعي وبجوار القبّة وقاعة الاحتفالات الكبرى؛ عالم هائل من البشر يدخّن الحشيش ويدمن لفّ سجائره ويشتريه كأنه يشتري شريط مسكّن من "الأجزخانة". فوجئت بكمّ اتصالات غير عادية أتلقّاها من معارف إبراهيم سالم داخل الجامعة، خصوصاً مع توغّل الشتاء، كأنّ "السطلان" يعين مدخّني الحشيش، ضمن ما يعينهم على تحمّل البرد. ذهبت مرات عديدة إلى مكاتب عمداء كليات بالجامعة، لم أكن أتصور أن أدخل مكاتبهم في غيابهم، بعدما سمح موظفوها وفرّاشوها بدخولي. كان المتّصلون متنوعين، شباب يعملون في هذه المكاتب، سكرتارية ومحاسبون، أو موظفون كبار عواجيز، مديرون وفراشون، بعضهم كان بخيلاً ويجادل بشدة في ثمن "الصباع" بلغة سرية لم أدركها في البداية، أحدهم هتف في وجهي: "أشتري ٤ رزم ورق بتمانين جنيه، ليه يعني، حاشيين الورق إيه، جلد نمر؟"

باغتني بلغة "السيم"، فأجبته ببرود: "مش هتلاقي غير عندنا ورق ٨٠ جرام أصلي، ولو هتغامر، تبقى بتضحي بمزاجك، في شغل نظيف".

فوجئت أنا أيضا بطلاقتي في المحاورة والمناورة والعبث بأوتار "السيم" الجديد، كنت مرهقاً، بينما أدخل هذه المجادلات، خصوصاً مع عمال البوفيه الذين كانوا يتاجرون هم أيضاً في الصنف مع زبائن لم يتوصلوا إلى رقم محمول إبراهيم سالم، و لم يلتقوا بدولابه المتحرك في الجامعة، هؤلاء كانوا أصعب من الموظفين، خاصةً أن بعضهم كان من مناطق شعبية محيطة بالجامعة، مثل بولاق وأبو قتاتة والكيت كات وإمبابة، وكانوا يضطرون لمهاتفتي حينما يستعجلهم أحد زبائنهم، فتبدأ بيني وبينهم مساومات شاقة وحادة كنت أظل فيها بارداً على طول الخط، خاصةً مع تحذيرات إبراهيم لي ألاّ أُرخّص من الحشيش الذي بحوزتي، لأنني إذا تنازلت سوف يشك فيَّ زبائني ويدركون أنه مخلوط بالحنّة، وهو فعلاً كان كذلك، كان حشيش إبراهيم سالم مخلوطاً بالطرق التقليدية، بالحنّة واللبان الدكر، و لم أعرف هذا السر إلا مع عودة نادية المفاجئة في تلك الليلة الماطرة من شهر ديسمبر، كان بحوزتي "صباعين" حينما عدت متأخراً من أحد مشاوير توصيل الصنف لشلة طلبة كانت تسكن بالمدينة الجامعية، المقابلة للجامعة والمجاورة لبدرون إبراهيم. صعدت درجات المنزل القديمة، طرقت الباب، كانت هناك أصوات صخب واحتفال، لم أستطع أن أتنبأ بأسباب الأصوات المرتفعة، فتحت نادية الباب على غير عادتها، كانت تقف مرتدية ملابس لم تلبسها من قبل، بلوزة حابكة شتوية

على صدرها، من صوف ناعم فاخر، و"جيب" ضيقة قصيرة من قماش غالي باهظ الثمن كما يوحي شكله وطريقة تفصيله، وحذاءً جلدياً (بوت) طويلاً يصل حتى أسفل ركبتيها، كانت على ملامحها ابتسامة فرحة وهي تفتح الباب من أثر أجواء الصخب التي سمعتها، حينما رأتني اتّسعت ابتسامتها وتقدّمت نحوي مهللة وعانقتني قائلةً في فرح: "مراد، وحشتني، إزيك يا حبيبي".

عانقتها، متنفساً عطراً جديداً أخّاذاً يفوح منها، ودفئاً بين صدرها ينبع من بلوزتها الثمينة. كانت أربعة عيون تتابعنا بينما نتعانق على الباب: عينان غاضبتان لمسعد وعينان مبتسمتان لإبراهيم.

١٠٣

كانت نادية تلمع وتبرق، كأنها صارت أخرى غير تلك التي عرفتها: مكياجها متناسق، رقيقا، غير مكياجها المفرط الذي كانت تضعه من قبل، تصفيفة شعرها كانت مختلفة، امتدت إليها أيدٍ خبيرة فصبغته صبغةً ذهبية لم أرها من قبل على شعرها الأسود، أساور ذهبية على معصميها وسلسلة ذهبية رقيقة تنتهي بدلاية ذهبية ثمينة تمتد على بلوزتها بين نهديها المدببين حتى حذائها الجلدي الأنيق، وتنورتها الصوف القصيرة – كل شيء يشي بأنّ أصابع ما امتدت إليه بالتعديل والتطوير، أصابع مكتظة بخواتم ثمينة، وتنتهي بجسد يمتلئ كرش صاحبه. كنت لا أزال أعانقها عناق شقيقين لم يريا بعضهما منذ سنوات، شعرت بالحرج مع تحديق مسعد ونظراته المتقدة لها ونظرات

إبراهيم الأبوية السمحة كأنه يرى زوجته تعانق شقيقاً لها. لم أستطع أن أفهم هذه المشاعر: من أين يجلب التعاطف مع من يضاجعون زوجته؟ هل لهذا علاقة بمشاركتي أياهم في بيع الحشيش؟ هل صرت منهم بعدما وضعوا في جيبي الصنف وائتمونني عليه؟ هل هذا يجعل منا عائلة كبيرة الآن؟ واجهتنى نادية بعد فترة من العناق، همست في وجهي بنظرة حب وسعادة كبيرة: "وحشتنى".

ابتسمت في حرج، فجذبتني من كفي إلى الداخل وهي تغلق الباب، وتقدمت وهي تحرص على الإمساك بأصابعي وتحسّسها في شوق، وابتسمت ابتسامتها الواسعة بعدما صرنا واقفين في الصالة بين مسعد وإبراهيم، قائلةً: "كويس إن مراد جاء، كنا حنحتفل من غيره".

ضحك إبراهيم وهو يربت على كتفي قائلاً: "كدا كدا هياخد نصيبه، بس مش قادر أقولك قد إيه مراد طلع شاطر، قرب لوحده يبيع نصف طن حشيش جوا الجامعة في شهرين بس".

ضحكت نادية ضحكتها المسرسعة، فيما تجمدت أنا من الدهشة عقب كلمة إبراهيم: نصف طن حشيش! أنا نقلت داخل الجامعة نصف طن حشيش؟ أخرجتني نادية من المفاجأة وهي تربت على صدري قائلةً وضحكتها المسرسعة مستمرة: "أنا كلمتي ما تنزلش الأرض، قلت أنه أحسن واحد نعتمد عليه في الجامعة، وما كدبش ظني".

ظللت واقفاً، وعبارات الثناء والمديح تتطاير بينهما، قبل أن يلتفت إبراهيم إلى مسعد قائلاً: "بمناسبة إتمام الصفقة، لازم نفرقع لنا واحدة نبيت أباركة، أو عمر الخيام، تحبي إيه يا روحي؟".

يستأذنها بينما مخزنه ممتلئ. قالت نادية في دلال بينما تتراجع وتجلس لتضع ساقاً على ساق: "لا يا حبيبي، نبيت أباركة إيه، أنا مش بشرب إلا الغالي، ثم أنت لسه ضارب لك عمولة قد كده على قلبك، إيه يا هيمة، خليك نزيه".

ضحك إبراهيم ضحكته المتحشرجة التي اهتزّ لها جرح صدغه، قائلاً: "على رأيك يا روحي، هنحوش الشرب لمين، هات يا مسعد أغلى إزازة ويسكي من الصندرة، في صحة مصنع البيرة".

١٠٤

"أنا إمبراطورة أرض البيرة، أنا لست حشاشة، أنا جمرة نار ستلتهم كتب التاريخ والجغرافيا، أنا سلطانة أرض البيرة، لماذا لا أتوج على عرش هذه القلعة إذا كانت أسوارها قد خضعت لي ودانت". لا أعرف كيف تسللت هذه الكلمات إلى ذهني، كيف تراصت هكذا كأنشودة قديمة في كتاب الموتى وبُعثت على لسان نادية، لم أعرف ترتيب الأحداث، كأنني ولجت مقبرة فرعونية مهجورة وقرأت نصوص اللعنة، فدهمتني غفوة وسقطت من حالق، سقطت بعد أول كأس. كانت الخمر مرة، مذاق حار، كأنني أتجرّع ماء نار مغليّاً، إلا أنني تجرّعتها خشية أن أُتَّهم مرة أخرى ب"الفافي"، ولكنني هويت. كانت أصابع نادية المعتنى بها جيداً قد امتدت لي بكأس يحوي سائلاً وردي اللون، تأملت أظافرها التي كانت تبرق بفضل الباديكير والمانيكير اللذين غيّرا من معالم كفها وجعلا أصابعها أكثر لمعاناً ورقّة. تناولت الكأس وارتشفت

منه رشفات قليلة لم تلبث أن أصابت لساني باحتراق. جرّبت أن أسكب محتويات الكأس في جوفي دون أن أمرّره على لساني، فجأةً غامت الدنيا، لا أتذكر ما حدث تحديداً، انقلبت على ظهري كأنني سقطت في حفرة رغم أنني كنت أجلس على الكنبة، اندلق الكأس بجوار رأسي الذي تألّم من قوة السقوط. حينما استيقظت وجدت نفسي على كنبة أخرى، في شقة غير شقة إبراهيم، كانت كنبة وثيرة، فخمة، في بهو شقة ضخمة تطلّ على النيل من إحدى شرفاتها، وعلى كوبري جامعة القاهرة من الشرفة الأخرى، كيف انتقلت إلى هذه الشقة؟ تحسّست رأسي وأنا أغمغم أين أنا؟ ومن هي إمبراطورة أرض البيرة التي كانت تردّد أنها ليست حشّاشة، بل سلطانة. كانت تلك آخر عبارات شعرت أنني سمعتها قبل عبارة إبراهيم: "في صحة مصنع البيرة". ظللت واقفاً في بهو الشقة محتاراً لا أعرف من جلبني إلى هنا، وكيف أدخل محمولاً على الأكتاف شقّة لم أطأها من قبل. ظلت الأسئلة تعصف برأسي، فجلست مرهقاً من إعصار الأفكار. كانت الشقة واسعة أنيقة في أثاثها، على أرضها سجاد سميك، طراز عربي فاخر، على الحيطان تابلوهات فنية كبيرة في أطر ذهبية، لوحات طبيعية، لنهر النيل وشروق الشمس والأهرامات والقاهرة القديمة، بجوار شاشة تلفاز حديثة معلقة على الحائط بإحكام. ظللت محتاراً من تيه الأفكار حتى سمعت باباً يُفتح، التفت نحو مصدر الصوت، حيث طرقة طويلة تنفتح على بهو استقبال الشقة التي استيقظت ووجدت نفسي فيها، كانت نادية قادمة من هناك تخطو في روب منزلي من الفرو، شفاف، يكشف مفاتن لحمها الأبيض. كانت تترنّح من بقية

نعاس، شعرها الذهبي يتدلى خلفها كتاج أميرة أو سلطانة.

١٠٥

عانقتني وهي تجلس قائلةً بكلمات ناعسة: "معلش أني سيبتك نايم في الصالة، مقدرتش أنقلك للأوضة".

صفعتني كلماتها بحيرة مضاعفة. قلت: "إيه الحكاية؟ أنا مش فاهم. شقة مين دي؟ وأنت كنت مختفية فين الفترة اللي فاتت؟".

ابتسمت وقبّلتني بحنان أم قبل أن تقول وهي تربت على كتفي: "هفهمك... أنا عندي ليك أخبار حلوة جداً".

تناولنا الطعام بصمت، كانت ثلاجتها تحوي أفخر أنواع الجبن التي لم أرها حتى تباع في محلات البقالة العادية، واللحوم الباردة واللوز وعين الجمل والمشمشية والقراصية المغموسة في العسل وأنواعاً أخرى من الأطعمة الشهية أثارت تعجبي، وكتمت دهشتي منها، خاصةً علب الفول المستوردة وعلب الجمبري المسلوق والبارد التي رصّتها بهدوء على المائدة، كأنها تعتاد تناولها يومياً على الإفطار. ظللت فاغراً فمي، كالأبله، دون أن أتناول شيئًا، فيما مدت هي نحوي فنجان شاي صينياً، مثل أميرة من القصر الملكى، وتناولت سكيناً مسحت به قطعة جبن على سطح "توست" محمص قرّبته نحو فمها وقضمت منه قضمة رقيقة، وهي ترمقني بنظراتها المغوية التي كانت ترمقني بها بينما تلفّ لي سيجارة حشيش في شقتها بأكتوبر.

لم تتحدث كثيراً، تحثّنى على تناول الطعام الشهي، تصبّ لي

كوباً من اللبن الساخن وتضع فيه ملعقتين من العسل، تقلبهما معاً، تقترب مني، تقول بابتسامة واسعة: بعنا مصنع البيرة، شركة الأهرام للمشروبات بقت ملكنا. أنا أخيراً بقيت ملكة.

١٠٦

إنها حياة طويلة، كان "البيع" هو العامل المشترك في معظم مراحلها، بدأتها نادية منذ كانت طفلة صغيرة في العاشرة تبيعها أمها في سوق البلد، ثم لم تلبث أن باعتها فعلاً لإبراهيم سالم، نجل الحاج سالم الذي رضي أن يتزوج أمها لتكون ممرّضته نهاراً وراعية فحولة أبنائه ليلاً وخادمة غرزة مزاجهم، لكن وفاة سالم عقّد الأمور، فقد صار وجود الأم محرّماً في المنزل، مع ثلاث شبان يافعين بالغين تطلّ الرجولة شرسة من أعينهم. تزوجت نادية من إبراهيم وهي طفلة، ولم تفارق وأمها منزل الحاج سالم. أمام عينيها كان زوجها يواقع أمها، ثم يواقعها، جنون يفضي إلى هستيريا، دوائر عديدة لم تستطع نادية أن تتخلص منها، مثلما لم تستطع أن تتخلص من ذكرى ليلة دخلتها الأولى، جاء زوجها بهمجية راغباً في فضّ بكارتها، بنهم جنسي وشبق مستعر ليس له حدود، ثم لم يلبث أن غادر فراشها إلى فراش أمها ليلة عرسها. لا تزال كلمة إبراهيم تتردّد في سمعها، حينما خرج إلى أمها قائلاً: "ضيقة ومصعباها عليا وعليها من الوجع،... أحبك أنت يا واسع يا أبيض".

هزمتها أنوثة أمها من حيث لا تدري، هزمتها بفحولتها الجسدية

التي كانت تعتني بها كل ليلة، مئات الليالي قضتها تراقبها بينما تدهن جسدها بآلاف الكريمات والدهانات ومستحضرات التجميل، وفي النهاية تنجح في جذب زوجها من فراشها بقوة آلاف الموجات المغناطيسية. منذ تلك الليلة تكره نادية زوجها إبراهيم، لم تتخيل أن مصيرهما سيتعقد ويشتبك في ضفيرة واحدة حتى هذه اللحظة الحاسمة، اللحظة التي صارا معاً في درب واحد، نحو الثراء المباغت بفضل عمل إبراهيم في مصنع البيرة، بشارع بين السرايات، الذي تديره شركة الأهرام للمشروبات.

تقول نادية: "ولا كان على بالنا حاجة من دي تحصل، كنا اتنين ضايعين، إبراهيم كان مجرد عسكري أمن مركزي لقى نفسه في الشارع بعد حادثة بشعة سنة ١٩٨٦، خدعوا العساكر وحاولوا يقتلوهم، خلوهم يطلعوا يكسّروا ويخرّبوا بحجة أن رواتبهم ضعيفة، إبراهيم كان عارف المؤامرة وتفاصيلها لأنه كان همزة الوصل بين الضباط الكبار الملاعنة، المأمورين بتدبير خروج العساكر، إبراهيم كان العسكري اللي هيّج زملاءه في المعسكر بشائعة مدّ سنوات التجنيد، ولك أن تتخيل: هاج العساكر بفضل قوة إقناع إبراهيم، اندفعوا من معسكراتهم مثل طوابير النمل التي لمحت من بعيد قالب كبير من السكر بحجم جهاز التلفزيون، لكن إبراهيم لم يتوقع أن المؤامرة تمتد لكل المعسكرات، كنا لا نزال في بيت الحاج سالم في "محلة مرحوم"، هربنا منه، وبعدها بعشرة أيام اتسرح إبراهيم من الأمن المركزي، القاضي الذي حقق في القضية بصّ في وشه ووشوش آلاف العساكر مثله، وشوش متربة، قبل أن يطلقهم جميعاً، لكن إبراهيم تسلّم

شغل محترم في شركة البيرة، كانت أحسن مكافأة، الدنيا زهزهت، أنت تعرف، الذين يعملون في هذا المصنع كأنهم سافروا الكويت، مرتبات كبيرة للفرّاشين وملاحظي الصهاريج ومسؤولي التعبئة والنقل والتوزيع، بالإضافة طبعاً للفنيين العاملين بمعامل تكرير الشعير. أول مرتب قبضه إبراهيم كان ٥٠٠ جنيه، في عزّ الرخص".

١٠٧

فجوات كثيرة تركتها نادية فى قصتها، تفتح ثغرات تعبر منها آلاف علامات الاستفهام بسرعة الصوت، منها، مثلاً، كيف استطاع إبراهيم سالم أن يقنع أحدهم ليستخدمه جاسوساً له داخل الشركة والمصنع، ومعاونته حتى تتم صفقة خصخصة المصنع، كما تمت في العام الذي التحقت به بالجامعة، فبراير ١٩٩٧، نفس العام الذي تعرفت فيه على نادية، بينما زوجها في طريقه لأن يكون ضلعاً في أكبر عملية نهب؟ لم تقل نادية أن المصنع صار نهيبة لإبراهيم منذ دخله للمرة الأولى في الثمانينيات، دخله عاملاً وقرر أن ينهبه نهباً منتظماً، قبل أن يكون أداة نهبه الكبرى، عام ١٩٩٧، طوال السنوات السابقة على هذا التاريخ استأجر إبراهيم شقة مجاورة بشارع بين السرايات، وحوّلها إلى غرزة يهرّب إليها الخمور والبيرة من المصنع، ويلتقي تجار الخمور والمستودعات ليقايضهم على البضاعة، هكذا لمدة عشر سنوات، منذ تعيين إبراهيم بالمصنع وحتى تعرفه على وكيل المشتري عام ١٩٩٧، الذي هو بالمصادفة قائده في المعسكر، ضابط الأمن المركزي الذي

دبّر مؤامرة خروج جنود الأمن المركزي للإطاحة بأحمد رشدي، عدو تاجر الصنف الأول، وكبار رجالات الدولة آنذاك. قصص نادية لم تتضمن تفاصيل تهريب الخمور والبيرة إلى الغرزة أو البدرون، لكنها كانت تفاصيل يمكن استنتاجها بسهولة، خاصةً بعدما ساهمت ذات مرة في نقل صناديق البيرة إلى مخزن البدرون. كان من السهل استنتاج عمليات النهب المستمرة التي أجراها إبراهيم في موقعه كعامل مخزن بشركة الأهرام، فقط اكتفت نادية بالاعتراف أنّ رجل الأعمال الكبير قد اشترى المصنع بـ ٣٠٠ مليون جنيه، والذي اندلعت ضده احتجاجات العمال بمجرد تسريب قصة خصخصة المصنع. تقول نادية: "هذه مشكلتنا الحالية، فالعمال يعرفون أن طريقهم مع الباشا أسود، بدون علامات هدّئ السرعة، رغم أنه وعدهم بمرتبات جيدة، هذا هو دوري أنا وإبراهيم، المفروض أننا نقنع العمال بمصلحتهم، مصلحتهم في البيع. الحكومة فعلاً قبضت، لكن المشكلة في الاحتجاجات والإضرابات المستمرة والزوابع التي يتفنّن العمال في إشعالها، هذه فرصتنا يا مراد، مستقبلنا كله في إتمام البيع، هل تعرف كم سيكون نصيبنا؟ لن تصدق".

١٠٨

لم أجلس أنا والدكتور رمضان، أستاذي في التاريخ، على نفس المقعد إلا في البدرون، كان دائماً يجلس في مقعده خلف المنصة بالمدرج، يرتفع درجتين، بينما كنت ووفاء وكثيرون ننصت إليه

بينما يروي متهكّماً إخفاقات ثورة ١٩١٩ ونفي قادتها واصطياد المصريين مثل الذباب برصاص الإنجليز، كانت داخل رمضان رغبة في الانتقام مما يدرّسه، كأنه يكره تلك القصص، ويسخف من خلافات القادة والزعماء، يتحدث عنهم كأنهم مخمورون تشاجروا في بار مظلم حول أعداد الكؤوس التي تجرّعوها وقد أنستهم الخمر الفاسدة عددها. في محاضرات رمضان كنّا نتلقّى نوعاً آخر من التاريخ، المسموم منه، المحلّى بالقشدة والعسل. لماذا لم تتحدث كتب التاريخ باستفاضة عن الصراع بين سعد زغلول وعدلي يكن في أعقاب ثورة ١٩١٩؟ لماذا لم نعرف حكايات ما دار بينهما في باريس؟ لماذا أخفوا عنا انقسام الأمة بين السعديين والعدليين؟ هل يجب أن أكون طالباً في التاريخ، يدرسه على يد رمضان، أكثر المؤرخين كراهيةً لمادته، لأعرف هذه الحقائق التي لم نسمع عنها قبل قذفنا لحيواناتنا المنوية في الإعدادي؟ كل الذي أخبرونا به في الكتب المدرسية أن سعد زغلول، مفجّر ثورة ١٩١٩، نبي الوطنية الذي تمّ بعثه إلى الأمة، لكنها لم تتحرر فعليّاً، وظلت أعواماً تغلي، وارووا عنّا الحقائق، واستحوذ عليها رمضان وغيره من المؤرخين، فانتهى به الحال إلى بدرون إبراهيم سالم مداوماً على تجرّع خمرته الفاسدة المهربة وسجائر حشيشه اللبناني. كنّا في هذه الليلة نجلس سوياً على نفس الكنبة. لم يكن مشغولاً بنظراتي المتفحصة، بل كان مشغولاً بكأسه. كنت قد عدت من شقة نادية الجديدة المطلة على كوبري الجامعة، والتي ابتاعها لها قائد إبراهيم السابق بمعسكر الأمن المركزي، الرجل الذي صار ممتلئ الكرش

ومندوباً لمشتري مصنع البيرة. لم تفصح نادية عن حقيقة دوري في اللعبة التي تشارك فيها زوجها لإجهاض وتصفية محاولات الاحتجاجات المستمرة داخل المصنع المطل على جامعة القاهرة، بقدر ما كان المصنع يبدو من خارجه مثل قلعة حربية هجرها قادتها وجنودها بعدما سلّموا مفاتيحها وحصونها للغزاة، بقدر ما كانت تحتفظ بهيبتها، خاصةً مع صمود قلاعها، عبر برجين، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، وتجاورهما "طابية". كل هذه الأشياء لم تخفِ طويلاً صراعات لا حصر لها بين فريق إبراهيم والفريق الآخر الرافض بيع المصنع وخصخصته، الفريق الأكبر الذي ظل يقاتل من أجل بقاء الشركة في حضن الحكومة، وبقاؤهم فيه، صراع من أجل البقاء: بقاء إبراهيم وبقاء الآلاف وعدم قطع أرزاقهم. هل يحتاج إبراهيم درساً تاريخياً عن المصنع حتى يكون حريصاً، بينما يهدمه بمعاوله لينتزعه من ملاّكه الحقيقيين، العمال، كما انتزعته دولة العسكر من قبل من ملاّكه الأصليين، المستثمرين البلجيك الذين شيّدوه، ليصبح فيما بعد أقدم منشأة صناعية في العالم لم يطله الدمار الإداري الذي طال عمر أفندي ومحالج القطن وغيرها من الشركات العملاقة التي طالها التأميم، فلماذا ترغب دولة العسكر الآن في طرحه للبيع والتخلص منه؟ "ما هو شغال وبيكسب"، قالها رمضان مازحاً، وقد أدار النبيذ رأسه، فقال إبراهيم: "يا دكتور، أحنا بلدنا كدا، تمسك الكسبانة، وتحلب فيها، تحلب فيها، تحلب فيها، لحد ما ينشف ضرعها، وتتقلب خسرانة، هو أنت مش عارف؟".

١٠٩

لم يستسلم رمضان، واجه إبراهيم بنظرات زائغة ليست لمؤرّخ في مكانته، بل لحشاش يساوم صاحب الغرزة على "قرش حشيش"، بينما يقول: "بص يا إبراهيم، أنت ورجل الأعمال اللي في ظهرك ما تعرفوش قيمة المصنع دا، طالما التاريخ هيتكلم يبقى تسكتوا وتخلي نادية تعمل لنا أحسن تعميرة، أنتم بتدمروا البلد، أنا عارف أصلك وفصلك يا هيمة، انت واللي زيك يا دوبك تشيلوا طوب وتطلعوا بيه السقالة، صدقني، الحاجة الوحيدة اللي مصبراني على مؤامراتك طيبة قلبك، لولا أني عارف إنك محتاج القرش كنت شربته كله".

ثم أطلق ضحكة مجلجلة وهو يترنّح، فابتسم ابراهيم بسمة ماكرة لم يرتعش لها جرح صدغه، ثم قال: "بص يا دكتور... ماليش فيه، بصراحة المصنع يخبل، حكاية، يرد الروح، لولا أني بخرج منه، وأشوف البني آدمين اللي زيي وزي حضرتك، كنت قلت إننا في أوروبا، والله يا مراد لو دخلت مصنع البيرة، تحلف أنك في بلد تانية، مكن إيه، صهاريج ضخمة، تنكات، معامل تكرير، حتى الشعير، مش بيدخل في أشولة، بيتنقل على سيور، الأجانب اللي بنوا المصنع حفروا لها مجاري في أرض المصنع تمشي فيها آلياً، كل دا كوم والأنفاق والخنادق اللي في بطن المصنع كوم تاني، ما تعرفش إيه حكايتها، نزلت في واحد منها لقيت مالوش قرار، كأنها سراديب في الأهرامات، والرئيسي اللي في مدخل المصنع بنستعمله لتخزين تنكات التخمير، بيقولوا أن الأنفاق دي كانت خنادق للإنجليز استخدموها في تخزين السلاح، كانت المظاهرات في مصر مش بتبطل، وكانوا بيحتاجوا

لنقل عتادهم كل شوية، على الرغم أن المصنع اتعمل في ازدهار معامل تكرير الخمور والبيرة، أيام الخديوي عباس حلمي".

ضحك رمضان بعد سيل المعلومات التاريخية المتدفقة من فم إبراهيم، والتفت نحوي فوجدني محدِّقاً فيه ببلاهة، فقال: "إبراهيم بيشتغل من عشر سنين، وطبيعي يعرف أصله وفصله، بس اللي ما يعرفوش أن مصانع الكحول ومعامل تكريرها كانت زمان بتفتح زي أكشاك السجائر المنطورة في كل ناصية، اليومين دول، الله يخرب بيت وشوشكم العكرة، بلد كانت زمان مليان مصانع، واتقلبت عشش وأكشاك سجاير".

ثم أسند رأسه إلى مسند الكنبة، قبل أن يقول...

١١٠

أُنشئ مصنع البيرة في "بين السرايات" عام ١٨٩٧، قبلها بأعوام كان رجل الأعمال اليوناني المسيو تيودور كوتسيكا قد أنشأ في طرة مصنع كحول ضخماً، اختفى المصنع وبقيت المنطقة تحمل اسم صاحبه، وكان إنتاجه أول الأمر لا يتجاوز ٣٥٠ ألف كيلو في العام، وتحول كوتسيكا إلى أكبر محتكر للسبرتو وأغنى أغنياء الجالية اليونانية آنذاك، وكان احتكاره للسبرتو سبباً في ازدهار صناعة الخمور، وكان مسيو بولانكي قد افتتح بالإسكندرية معمل تكرير الكونياك والروم عام ١٨٨٤، ثم لم يلبث كل من بولاناكي ورجل الأعمال اليوناني جناكليس أن احتكرا إنتاج النبيذ والكحول، حيث كان جناكليس يمتلك شركتين هما

"الكروم والكحول المصرية" و"الحدائق والكروم المصرية"، ودخل نشاط إنتاج البيرة البنك البلجيكي الذي أنشأ شركة "بيرة كراون" بالإسكندرية وشركة "بيرة الأهرام"، وكان من أهم مصانع البيرة التي انشأته شركة "بيرة كراون" هو ذلك الموجود في "بين السرايات"، وتولّته شركة مساهمة بلجيكية مقرّها في بروكسل ومركز إداراتها بالإسكندرية، وحمل المصنع في البداية اسم "معمل بيرة التاج"، كنت أتطلع فى هيبة إليه بينما أمرق بجواره كل صباح متّجهاً إلى الجامعة، بعدما عرفت أصله وفصله، أتفحص برجيه العتيقين، أتخيل رجال حراسة عتيقي الطراز يعتلون قمتيه ويحرسونهما في دأب من أعداء مغيرين. لماذا ينتهي الحال بهذا المصنع الشامخ إلى نادية، متوجةً بتاج السلطنة والإمارة على أرض البيرة؟ كانت شركة الأهرام للمشروبات قد بنت في مواجهة المصنع مبنىً قبيحاً أشبه بعلبة الكبريت، ليس في عمارته أي إبداع، حوى داخله مكاتب الموظفين والإداريين، فيما يقف المبنى ببرجيه في مواجهة علبة الكبريت، متحدياً الزمن ومتحدياً محاولات إبراهيم التي تزامنت مع إتمام عامه المائة، عام ١٩٩٧، نفس العام الذي تمّت فيه خصخصة الشركة وبيعها إلى رجل أعمال، انزلقت نادية بلسانها واعترفت أنه صديق لنجل "الراجل" الكبير.

١١١

كانت واجهة شركة الأهرام المطلة على الجامعة تحمل لافتات دعاية لمشروبات بيريل وفيروز، تتنفس المنطقة كلها رائحة الشعير الذي تتم

تسويته على مهل وتكثيفه داخل صهاريج البيرة الضخمة. لم أكن قد دخلت المصنع بعد، كنت لا أزال مكلّفاً بنقل أصابع الحشيش الأفغاني إلى شلل الطلبة العابثين ومجموعات الفرّاشين الدؤوبين على ممارسة الإتجار به، وكذلك مجموعات الموظفين الواهمين الباحثين في قرش الحشيش على "كيف" عبثي. من أين سيتحقق هذا الكيف ومسعد يدأب على خلط كميات الحشيش الخام ببذور الحنة وجوزة الطيب؟ كنت على دراية بهذا العبث، على يقين من أن أصابع الحشيش التي يزودني بها مسعد مغشوشة خصيصاً كي يغضب عليّ عملائي وأتعرض للضرب. صحيح أن هذا لم يحدث، لكن مسعد كان يتمنى أن يحدث، أما نادية فقد امتنعت، منذ انتقالها إلى عشيق جديد، قائد زوجها السابق في المعسكر، عن أن تتصل وتطمئن عليّ. ما هذا العبث؟ كيف أغار عليها لمجرد أنها لم تعد تستقبلني مثلما كانت الحال في شقتها بأكتوبر؟ كيف أغار وزوجها يعلم أنها مع الرجل الذي كان قائده يوماً في المعسكر؟ من لديه أصل وفصل قصة العلاقة بين هذا المثلث، إذا كانت نادية لم تقصصها لي بعد، فمن سيفعل؟ من؟

١١٢

حاصرت صفقة خصخصة المصنع آلاف الاحتجاجات والاعتصامات والإضرابات التي اندلعت داخل شركة الأهرام للمشروبات. اندلع غضب العمال والموظفين والفنيين الرافضين لبيع المصنع وتشريدهم في الشوارع بمجرّد تخلّي الحكومة عن الشركة وعنهم. كانت هتافاتهم

الغاضبة تقتحم غرف وقاعات محاضراتنا القريبة منهم، خاصةً أنّ آلاف الشباب الناشطين في الحركات السياسية قد انضموا إليهم وساندوهم في هتافاتهم. من الصباح لمحت هؤلاء، تعاونهم فتيات ناشطات يحملن لافتات احتجاجية أمام الجامعة بجوار سور شركة مصنع البيرة، وحناجر الغضب تصدح بالهتاف ضد خصخصة المصنع. لم يكن رمضان سعيداً بالمظاهرات الغاضبة التي تسبّبت في تعطيل المرور بشارع "بين السرايات"، إضافةً إلى التشويش على ما يقول داخل "السكاشن" والمحاضرات، فصبّ نيران سخريته على المتظاهرين الغاضبين من أجل أقواتهم. كان يقول أحياناً في محاضراته عبارات لا يفهمها أو يلتقطها غيري، كأن يقول: "عسكري أمن مركزي يستطيع أن يهدّ حائط التاريخ" أو يقول: "اقتصاد أمة يمكن أن يتحكّم فيه "غرزجى""، أو أن يقول: "كل المظاهرات التافهة اللي انتوا شايفينها دي عمرها ما هتحوق ولا هتجيب مع نظام قوي بيوفر لشعبه كل حقوقه، إيه يعني مصنع "اتباع"، الدنيا خربت، يتقفل الشارع، تقف الحياة، الدنيا تتشل، كل العمال اللي طلعوا في المظاهرات دي مدفوع لهم وقابضين، والعيال "الهتيفة" اللي واقفة معاهم "خولات" وبيسخنوا فيهم عشان يتلزقوا في الحريم اللي بيطلعوا معاهم، قال إيه، ناشطين سياسيين، ولاد وسخة كلهم على بعضهم".

كان واضحاً أن رمضان قد نسي أو تناسى ما يدرّسه في كتبه ومجلدات التاريخ، فكل ما يلقّنه يقول إنّ كل المظاهرات الغاضبة التي تجتاح الشارع تجدي في النهاية، إنه حكم التاريخ الصارم، فكيف يتجاهله رمضان، وكيف يزعم أن أصوات "الهتيفة" ستذهب سدى؟

التاريخ قاس، صارم، لا يعترف إلا بمن يهتفون، هتافاتهم وشعارات احتجاجاتهم، وحتى رسوماتهم على الحيطان، قادرة أن تُسقط الأنظمة وأن تزلزل العروش. كل هذه الأصوات التى يسخر منها رمضان هو أول من يعلم أنها لن تذهب سدى ولن تبتلعها الآذان الجوفاء، بل سيكون لها صدى، لأن صفحات التاريخ أقرب إلى الطبول، تظنها أوراق خشنة لكنها تحتفظ بالأصوات وتردّدها للآجيال القادمة.

كنت حريصاً في هذه الأيام على متابعة هذين المشهدين: سخرية رمضان المستمرة من مظاهرات عمال مصنع البيرة، والمظاهرات نفسها. علامات الغضب والسخط كانت مرتسمة على وجوه العمال المنفعلة المتشنّجة، وشاركهم الاستياء المارّة وأصحاب السيارات التي أوقعها حظها العاثر في التوجّه إلى "بين السرايات" وقت مظاهرات عمال مصنع البيرة التي كان يتعيّن على إبراهيم التصدّي لها وحده، وامتصاص غضبهم، وتفريقهم، لكن كيف سيفعلها إبراهيم؟ كيف سينجح في هذه المهمة الثقيلة؟ فوجئت به هذه الليلة يتّصل بى، كنت قد وصلت شقتي بأكتوبر، جاءني صوته، محتدّاً غليظاً، يصرخ فيّ قائلاً: "تعال فوراً، عاوزك ضروري، مزنوق فيك".

كانت عباراته متشنّجة، فقدرت أنّ مصيبة قد وقعت، خصوصاً بعد مشهد المظاهرات المتأججة الغاضبة. تسارعت ضربات قلبي، بينما كنت أهرع في عزّ البرد، نسمات ثلجية تصطدم بوجهي وتخترق مسامه، فركت شعري لأشعر بالدفء، رفعت ياقة البالطو الشتوي الجديد الذي اشتريته من الوكالة، انتظرت، متألماً من البرد، مقدم أول ميكروباص متّجه إلى الجيزة، ظهرت أضواؤه من بعيد، وأنا

لا أعرف هل سيمر بشارع بين السرايات فعلاً؟ توقف السائق على مقربة، فهتفت: جيزة، فأومأ السائق إيجاباً دون أن يفتح فمه، كأنه يخشى، إن فتحه، دفقةً باردة. ركبت هرباً إلى الدفء، تعصف برأسي الأفكار: ماذا يريد مني إبراهيم في ذلك الوقت؟ هل أغضبه وجودي في شقة نادية مؤخراً؟ ضربت كل الاحتمالات في رأسي دون أن أجد تفسيراً لحدّة صوته، حتى وصلت بين السرايات، كان يقف على مدخل الحارة المفضية إلى محل تصوير المستندات الذي يديره كواجهة لأعماله، كان بجواره مسعد واقفاً متثلّجاً من البرد، واضعاً يده في جيبه. هتف بيّ إبراهيم فجأةً: "مستعجل قوي على المرواح يا مراد، اصبر يا جدع لما نخلص شغلنا، إيه حكايتك".

لم أفهم شيئاً، هل استدعاني هذه المسافة ليؤنّبني على انصرافي دون إذنه، ثم إنني أنصرف كل يوم دون أن أخطره. وجدته يقول: "تعال معايا، خليك هنا يا مسعد لحد ما نخلص".

تحرّك إبراهيم عدة خطوات إلى الإمام، باتجاه مصنع البيرة وبوابة شركة الأهرام، ظللت متجمداً في مكاني، فالتفت نحوي إبراهيم هاتفاً بحنق، بينما جرح صدغه يرتعش: "مالك متسمّر ليه... اتحرك".

١١٣

قطعنا شارع "بين السرايات" في جنح الظلام وبرد الشتاء، إبراهيم يتقدّمني بحماس، يعرف وجهته جيداً، وأنا أتبعه بقلق، متحيّراً، تنتابني الهموم وتعصف بي الانفعالات، أضغط على الأرض بقوة،

كأني أحاول ضبط دقات قلبي. هتف بي إبراهيم فجأةً عندما صرنا على بعد خطوتين من بوابة الشركة: "بص يا مراد، أنت شكلك ابن ناس، بس غلبان، عشان كدا ما كانش ينفع استعين بمسعد في الشغلانة دي، علاوة على أنه معروف بالنسبة للشخص اللي احنا رايحين نقابله، الواد دا عامل لي فيها زعيم وهو اللي مهيج العمال، وواقف في زوري بالعرض، ومكلعكع السبوبة، أنت مالكش دخل باللي هعمله، عليك تسمع وتشوف، وأنا معايا رجالتي هيساعدوني".

ازدادات ضربات قلبي وارتعشت أوصالي بعد عبارته الأخيرة، أدركت أننا مقبلين على أمر مخيف، مرعب. كان المصنع يطل علينا وسط الظلام، مثل عملاق يتوكأ على عصاه من العجز، تجمّد بلعنة تاريخية فظل مهيباً يبعث سطوته على من يقترب منه، يطلّ السواد من برجيه العتيقين وأحجاره التي تشبه أحجار قلعة صلاح الدين، الفتحات الطويلة في واجهته تشبه مغازل المقاتلين، مدخله المقبّب يوحي بقرب خروج موكب السلاطين الفاتحين. على البوابة الحديدية كان ينتظر إبراهيم غفير ملتحف بشال من الصوف، على جلباب من قماش ثقيل من القطن، هتف به إبراهيم محيياً، كأنه لا يدخل مقر الشركة عند منتصف الليل، تأمّلني الغفير، بينما أمرق خلف إبراهيم الذي مضى في طريقه، واثقاً، نحو المبنى الإداري الذي يواجه مبنى مصنع البيرة العتيق، صعدنا طابقين، ومضينا نحوة حجرة في آخر ممر مضيء. طرق إبراهيم باب الحجرة ودخل. وجدت شاباً يجلس خلف مكتبه، منهمكاً في عمله، بادٍ عليه إرهاق السهر، لكنه تسمّر فجأةً عندما دخل عليه إبراهيم حجرته، فانتفض ليستعيد قوته فجأةً، طارداً

علامات التعب والإرهاق، مغمغماً في توجس وهو يرمقني بحذر: "خير يا إبراهيم! إيه اللي جابك الساعة دي؟".

لانت عبارات إبراهيم فجأةً، بعد لهجته المحتدة معي، ووجدته يقول في خنوع: "خير يا أستاذ أحمد، خير إن شاء الله، أنا بس حبيت أعرفك بالشاب الغلبان دا، اسمه مراد، خريج جامعة القاهرة، زي حضرتك كدا، صدقني بادور له على شغل لأن أمه تبقى بنت عمتي، عارف يا أستاذ أحمد، الحكومة خلاص، بطّلت تشغل الولاد، ولا كأنها مسؤولة عن رجالتها، الشاب الغلبان دا كل أمله يبقى زي حالاتك كدا، موظف كبير".

قاطعه الشاب، وقد هبّ غاضباً من خلف مكتبه، صارخاً في إبراهيم وملامحه ترتعش: "بص يا إبراهيم، أنت تاخد قريبك وتطلعوا برا، أنت فاكر الحركات دي هتخيل عليا، أنا عارف علاقتك الوسخة باللي اشتروا المصنع، ما تحاولش تقنعني بقى أن الحكومة وحشة ومش بتعين الغلابة والكلام الفاضي دا، الغنوة دي مش هتخيل عليا".

لم يتراجع إبراهيم. ظللت صامتاً، واجماً، غير متوقع أن يقحمني في مسألة بيع المصنع بهذه الطريقة. اقترب إبراهيم من الشاب قائلاً: "يا أستاذ أحمد، أنا جبت لك الشاب دا عشان أقنعك أن فيه شباب كتير قاعد مش لاقي شغل، حضرتك هنا تمام التمام، بتحرّض الناس تتظاهر، لو تقدر تتوسط للغلبان دا أنا هبطل أقنع الناس بالبيعة".

تطاير رذاذ لعاب أحمد في وجه إبراهيم بينما يصرخ فيه مرتعشاً من الغضب: "أنت وسخ، وأنا بلّغت عنك البوليس، والبيعة هتقف يعني هتقف، ولو على جثتي".

هنا برقت عينا إبراهيم ببريقٍ مخيف وهو يقول ببطء كلمات ارتعش لها جرح صدغه وقلبي بين ضلوعي: "يبقى على جثتك يا أستاذ أحمد بك".

١١٤

كانت رائحة عرق الشاب النفّاذة تنبعث منه، بينما نحمله معاً وننزل به من مكتبه، بعدما قفز إبراهيم على مكتبه بغتةً وهوى على رأسه بهراوة ثقيلة تشبه الهراوات الميري التي يستخدمها جنود الأمن المركزي في فضّ المظاهرات وضرب المتظاهرين، كان إبراهيم يحملها بين طيّات ثيابه المهلهلة، لذا كان إخفاؤها سهلاً، و لم يلمحها الشاب حينما دخلنا عليه مكتبه، وحتى لم يلمحها حينما استلّها إبراهيم بخفة وسرعة، بينما ينقضّ عليه، معتلياً مكتبه، واطئاً بقدميه الضخمة أوراقه، وهو يهوي على جمجمته بعدة ضربات سريعة كالصاعقة، أطلقت عظامها أصوات مخيفة، بينما تتحطم أسفل وقعها، اقشعرّ لها بدني وانقبضت معدتي، كان صوت جمجمته وهي تتحطم كصوت لوح خشب ينكسر بقوة أو قرقعة سقف مسلح بينما ينهار. تهاوى جسد الشاب مثل جوال فحم، وقد انطبقت عيناه فجأةً، رمقه إبراهيم في غلّ، كأنه لم يكتفِ بقتله. تراجعت إلى الخلف فالتصقت بظهري بالحائط، مصعوقاً مما رأيته: إنسان قتل للتو! لماذا اصطحبني إبراهيم في هذه التجربة المريعة؟ لماذا جعلني شاهداً على جريمته؟ ظللت واقفاً مبهوتاً غير قادر على استيعاب ما فعله بالشاب. كان الزرقان يلوّن

وجهه في هذه اللحظة، وجهه الذي كان ينبض بالحماس والقوة والفتوة والتحدّي والصرامة، هاهو يخلو من كل هذه المعاني ويحلّ محلها الزرقان، زرقان وشحوب الموتى. انحنى إبراهيم متوتراً على الشاب يتفحّصه، كأنه يتأكد من موته، كان يضربه بخبرة جندي أمن مركزي لم ينسَ يوماً تدريباته القاسية التي تلقّاها في معسكرات التعذيب. هتف فيّ بصوتٍ أجش: "مراد، تعالَ ساعدني، حننقله على التنكات".

١١٥

كنت لا أزال متسمّراً بجوار الحائط، هواء بارد يجتاح الحجرة يجبر جلد وجهي على غلق مسامه، بينما إبراهيم يحمل الفتى، معاوداً الصراخ في لأتحرك ومعاونته. تحركت ببطء، شاعراً بدوار يكتنف رأسي، أمسكت الفتى من ساقيه، بينما إبراهيم يحتضنه من ظهره ويطوّقه من أسفل إبطيه، كنت أشعر ببرودة قارصة في ساقيه، كأنّ أطرافه ستنطق وتضربني انتقاماً لمقتله، تلومني أنني لم أدافع عنه، لم أمنع عنه شر إبراهيم المستطير. ما أدراني أن ذلك سيحدث، كل شيء تطور بسرعة خاطفة: المناقشة التي لم أتوقعها، إقحامي فيها بوصفي شاباً غلباناً، ثم قتل الفتى ليُخرس صوت المعارضة التي تقف في وجه بيع المصنع والشركة وتهدّد مصلحة إبراهيم ونادية وقائده السابق في المعسكر؟ كنا نغادر بالفتى محمولاً بيننا مثل الذبيحة، متّجهين نحو مدخل المصنع العملاق، بدا قاتماً، يموج بأشباحٍ ينتمون إلى العصور

الوسطى، برز في هذه اللحظات مسعد والغفير، أشار له إبراهيم بصرامة قائلاً: افتح لي البوابة.

كان صدري قد بدأ يلهث من ثقل الشاب، جثة، إنها جثة، لم يعد مجرد جسد ينبض وتتحرك أعضاؤه، كما كان منذ دقائق، استكان كل شيء داخله، فثقل بغتة، أطلقت حشرجات متقطعة من صدري، من عناء حمل أطراف الشاب، فهتف إبراهيم في مسعد: "شيل معانا".

امتدت قبضتا مسعد ودفعتني في غلظة، ملتقطةً بسرعة ساقي الفتى، فيما لمحت الغفير يهرع نحو مدخل المصنع ليفتح بوابة أخرى لم ألحظها بسبب الظلام الذي سرعان ما احتوانا بينما ندلف إلى قلب المبنى العتيق، وجدت نفسي فجأةً في ساحة واسعة سقفها مرتفع، مبنى المصنع ضخم من الداخل كأنه رحم امرأة شارفت على الولادة، تراصت في هذه الساحة صهاريج عملاقة تمتد بينها أنابيب ومواسير كبيرة كأنها مجموعة من الرئات، مررنا بينها إلى حيث "درابزين" حديدي يؤدّي إلى مهبط سلم، كان ذلك أحد مداخل الخنادق والأنفاق التي تحدث عنها إبراهيم مع رمضان. هبطنا نحمل جثمان الفتى: ماذا سيفعلان به؟ هل ستنتهي رحلته الأخيرة هنا؟ تبعتهما في فضول وخوف وترقّب، كان المدخل قاتماً، هبطنا الدرج، رائحة "سبرتو" قوية غشيت أنفي، سعلت في البداية، بينما لم تظهر أية آثار للرائحة على إبراهيم ومسعد والغفير، اختفيا في باطن السلم، ظللت واقفاً متردداً قبل أن يتغلب علي فضولي وتبعتهم. كانت السلا لم تنتهي بخندق أسفل أرض المصنع يمتلئ بالأعمدة وصناديق كبيرة مستطيلة الحجم تفوح منها روائح مواد كيميائية مختلفة. شعرت أنني في معمل

كيميائي وليس في مصنع لإنتاج مشروبات غازية وروحية. كانت هناك فتحات في الأرض ومسارات ضيقة تدلّ على أنها مجاري لتصريف سوائل ما من الصناديق الضخمة التي وصفها إبراهيم بالتنكات، بينما يقترب من أحدها بجسد الفتى ويطلب من الغفير فتح غطائها، فاستجاب الغفير، ووقف إبراهيم ومسعد بجواره، انبعثت رائحة قوية، حارقة، سالت لها دموع من عيني. رفع إبراهيم جثمان الفتى ودفعه برفق في التنك، بدأت تنبعث أبخرة شواء واحتراق لحم بشري. أبعد إبراهيم وجهه متقززاً، محاذراً من تناثر قطرات من السائل. أدركت أن جسد الفتى يتعرض لجريمة تمثيل بشعة، بإذابته في مادة كاوية مركزة لا أعرف علاقتها بالمواد الخام المستخدمة في صناعة الخمور أو البيرة أو المشروبات الغازية. كان مسعد لا يزال ممسكاً بجزء من جسد الشاب، بينما إبراهيم يُغطِّسه في المادة الكاوية برفق، فيما وقف الغفير يراقب ما يحدث دون انفعال. كانت عيناي تدمعان، معدتي تنتفض وتتحرك بصخب وتوتر، أطرافي متثلجة، ركبتاي ترتعشان، وفجأةً انطلق بولي دون أن أقوى على حبسه، فوجئت بسخونته بينما يسير على جنبات قماش بنطلوني مبلِّلاً ساقي، لم أتخيل أن أبول على نفسي وأنا واقف يوماً، كانت لحظة إذابة الشاب تتمّ بثبات انفعال غريب من إبراهيم جندي الأمن المركزي، من أين جلب هذا الكم من الخسّة والقذارة؟

١١٦

لم أحبّ الكيمياء يوماً، لم أستطع أن أتخيّلها في حياتي، ماذا سيضيرني

إذا ما واصلت حياتي بدونها، هكذا كنت أغمغم دائماً في السنوات الدراسية التي أُجبرت فيها على تعلّم الكيمياء، شهور حاولت خلالها التفرقة بين الأحماض والقلويات: الأكسجين وثاني أكسيد الكربون والكبريتات والبيكربونات والصوديوم والبوتاسيوم، ألغاز، كلها كانت بالنسبة إلي ألغازاً ملعونة، خاصةً مع اضطراري لحفظ رموزها اللاتينية التي كانت أقرب إلى حروف هيروغليفية غامضة، مثل باقي الأساطير الغامضة التي ارتبطت بالكيميائيين الأوائل الذين كانوا يسمون "الخيميائيين"، وكانوا يستطيعون تحويل التراب إلى تبر.

لم يتطوع إبراهيم لحل ألغاز الكيمياء، بينما أقف مفزوعاً، في النفق الذي تحوّل إلى مقبرةً بشعة وساحة إعدام كيميائية لإذابة صوت المعارضة الذي يتصدّى لخصخصة وبيع المصنع، تعرض هذا الصوت للتو لعملية "كبرتة"، وهي إحدى مراحل صناعة النبيذ التي يتعرّض خلالها عصير العنب للتخلص من أنواع الخمائر غير المرغوب فيها، بإضافة ثاني أكسيد الكبريت إلى العصير، بتركيز ٥٠ - ١٥٠ جزء بالمليون، لكنّ إبراهيم دسّ جسد الشاب في تنك المادة المركزة، دون تخفيفها، لتصل إلى التركيز المطلوب لعصير العنب. انتهى الشاب تماماً، زال أثره من وجود المصنع والعمال الغاضبين المطالبين بحقوقهم. أشار إبراهيم للغفير فأغلق التنك، حريصاً على تجنب النظر لمحتوياته التي خمّنت أنّ عظام الشاب قد طفت على سطحها بعد تحلّل أنسجة جسده وخلاياه. كنت لا أزال مبللاً مرتعشاً، قبل أن أتهاوى على الأرض، وقد عجزت ركبتاي عن حملي. رمقني مسعد بنظرة محتقرة، كأنه شمّ رائحة بولي التي لم أجاهد لإخفائها، فيما التفت نحوي

إبراهيم هاتفاً في غلظة: "يالا يا مراد، أنت لسه هتقعد".

تمالكت نفسي ونهضت، لأتعثر مرة أخرى، لم تكن هناك رائحة لجثمان الشاب، كانت رائحة بولي طاغية على المكان، إلا أن إبراهيم لم يبدِ إشارة لتبولّي على نفسي، كأنه اعتاد الروائح القذرة، روائح السبرتو والعنب المتخمّر وغيرها، ملامح وجهه انبسطت، بعد انقباضها أثناء ضربه الشاب، تمدّد جرح صدغه كأنه استطال بغتةً وصار بطول وجهه. لمحته يتحسّس هراوته، صولجانه الذي زوّده به الأمن المركزى، لم أره يحمل سلاحاً على الرغم من دأب تجار الصنف على الاحتفاظ بفرد خرطوش أو قطعة آلي، لم أرَ هذه الأشياء بحوزة إبراهيم في تردّدي الكثير على بدرونه، كانت الهراوة سلاحه الأثير، منها يستمد الدفء والثقة، فيما بعد عرفت أنها كل ما تبقّى له من معسكر الأمن المركزي.

١١٧

انتصرنا يا نادية، انتصرنا،... انتصرناااااااااااا...

الكلمات كانت للرجل الضخم ممتلئ الكرش، كانت ملامحه البيضاء يشوبها الاحمرار إذا انفعل أو ضحك، كما كان يفعل الآن، بينما يحتضن نادية أمامنا من خصرها ويرفعها على كرشه عالياً ويدور بها، مثل طفلته، في بهو شقة كوبري الجامعة، كنا هناك نرتدي أزهى ملابسنا، أنا وإبراهيم ومسعد، أعدت نادية مائدة عامرة بمناسبة إخماد ثورة عمال مصنع البيرة بعد مقتل مفجّرها على يد إبراهيم وإذابة

جسده في تنك أكسيد الكبريت المركز. كان إبراهيم يجلس بجلبابه الأبيض الذي يرتديه أثناء المناسبات المهمة أو حينما يستقبل أحدهم في البدرون، فيما جلس مسعد منزوياً، بينما كنت أرتدي قيمصي الأسود وبنطلوني الجينز، مشغولاً بمراقبة من كان ضابطاً يوماً ما، ها هو صفحة منتزعة من كتاب التاريخ، لم يكتبها رمضان أو زملاؤه من المؤرخين، صفحة أحداث الأمن المركزي، هاهو الرجل الذي دبّر للإطاحة بوزير الداخلية ذات يوم، أو على الأقل الذي كان يأتمر بأمر المدبّرين الحقيقيين، كان تقدّمه في السن واضحاً، كرشه الضخم، جلد رقبته المتهدل، وعلاقته الحميمة بنادية التي لا يجاهد في إخفائها عن إبراهيم أو عنا. كنت أتأمّل ما يحدث، وأتذكّر مشهد اختلائهما في إحدى حجرات البدرون. كان الرجل يضحك، ويسخر من الشاب القتيل، ضحية إبراهيم، الذي انتهى مذاباً في جوف المصنع، بينما يجاهد لمنع خصخصته. كان كرشه الممتلئ يهتز بينما يتحدث ويربت على خصر نادية بعدما أجلسها على فخذه. كان يقول: "أنكت حاجة أن العمال، بعد ما الواد المفعوص دا اختفى، كشوا وانكمشوا، وراحوا عند رقية هانم، وخلصوا عقودهم الجديدة، خصوصاً بعد ما رقية هدّدتهم بإبلاغ أمن الدولة عنهم".

كانت نادية تربت على مؤخرة رأسه بحنان بينما تتفحصه في خلاعة، كأننا لا نشاركهم الجلوس في بهو الشقة، فيما الرجل يستطرد: "المهم أنّ الضربة القاضية بتاعتك يا هيمة أخرست الكلاب دول اللي افتكروا ليهم وزن وقيمة، مع أنهم صراصير نقدر نهرسها بجزمنا زي ما بنهرس أي واطي في البلد دي".

كان إبراهيم يومئ بخنوع دون أن يتحدث أو يرتعش جرح صدغه، فيما نطقت نادية بدلال: "مبروك يا حبيبي، ألف مبروك، لا تتخيل فرحتي عاملة إزاي، أكيد أحمد بيه مبسوط دلوقتي".

ضحك الرجل ضحكته التي يرتجّ لها كرشه الممتلئ، بينما يقول: "طبعاً، لا تتخيّلي حجم المكاسب التي اندلقت في كرشه، مصنع بالمليارات، وشغال وبيكسب، وإنتاجه بيصدر، يشتريه بـ٣٠٠ مليون جنيه، عارف يا هيمة، المصنع يملك ٣ حتت أراضي في ٦ أكتوبر مساحتها ٢٠٠٠ متر وحتة رابعة في العبور مساحتها أكثر من ٤ آلاف متر، بالإضافة لقطعة في برج العرب، ما أنت شغال في الشركة وعارف، كل دا كوم وماكينات المصنع وسياراته ومعداته وعماله كوم تاني".

١١٨

من اليوم التالي انهمك إبراهيم في العمل أكثر من ذي قبل، امتدت ساعات بقائه في مصنع البيرة حتى منتصف الليل، ساعات طويلة كان يترك فيها البدرون لمسعد يستضيف به من يشاء من الحشاشين و"الضّريبة". كنت أتردّد بانتظام على البدرون فأجد مسعد وحيداً به، وسط مرتادي المكان راغبي المزاج والتحشيش. كنت انقطعت أيام عن زيارة نادية في شقة كوبري الجامعة منتظراً أن تهاتفني على تليفوني المحمول، لكنني لم أتلقَّ سوى الاتصالات المعتادة من مدمني الحشيش داخل الجامعة. كان نظري معلقاً دائماً ببرجي مصنع البيرة،

محاولاً رصد التغييرات التي تطرأ عليه بعدما تحولت إدارته وتغيرت من الدولة إلى المالك الجديد، وبعد جريمة القتل التي ارتكبها إبراهيم داخله، الشيء الوحيد الذي طرأ عليه هو توقف مظاهرات العمال إلى غير رجعة. لم أكن أعرف أنه في هذه الأثناء كان يتمّ التخلص من كثيرين، بتصَفيتهم وإحالتهم إلى المعاش المبكر، بعد تورطهم في مظاهرات الغضب ضد خصخصة المصنع. كانت عملية التخلص من المشاغبين تسير على قدمٍ وساق انتقاماً منهم لاستجابتهم لتحريض الشاب الذي مات مغدوراً على يد إبراهيم الذي كان يعدّ لإدارة مشروع جديد داخل أنفاق المصنع وخنادقه أو سراديبه، حيث قتل غريمه. كان ذلك مشروع حياة إبراهيم الذي عاش عمره يحلم بتنفيذه، ولم يتوفر له مكان مبتكر صالح لإطلاقه. كان إبراهيم يتخوّف من ممارسة مشروعه في الشقق العادية التي يسهل مراقبتها وضبطها، خاصةً أنّ هذا النشاط يختلف عن نشاط المخدرات أو تهريب الخمور، فهو نشاط غير مأمون الجانب، وتدخل فيه ضغوط قوى دينية ترغم الأمن على محاصرته وتكبيله. فى البداية ظننت أنّ إبراهيم يدير شبكة دعارة بصدد التوسّع، أو يقوم بتسهيل تزويج القاصرات، لم أكن أظنه يستعيد، في خنادق مصنع البيرة، هذه التجارة من صفحات التاريخ. تكشف لي أمره بالمصادفة، جانب آخر من نشاط إبراهيم السري يزاوله منذ زمن بعيد، لكن بشكل غير منتظم، خاصةً أنه لم يكن نشاطاً مرصوداً في تلك الأيام التي كانت البلد منهمكة خلالها .بمعركة أمنية مع مدبّري الهجوم الإرهابي بالدير البحري في الأقصر، فخلال تلك الفترة استطاع إبراهيم أن يوطّد علاقاته مع زبائنه الذين

أقبلوا على بضاعته البشرية الغضّة البضّة، خاصةً بعدما استطاع أن يسخّر أنفاق المصنع ويعيد ترتيبها لصالحها لتكون مهيّئة لاستقبال العذراوات اللواتي يقفن في طابور العرض. أما الراغبون في شرائهن، فمن هنا يبدأ سر إبراهيم الأكبر.

١١٩

كان رمضان هو من كشف لي كل شيء، وللمفارقة كان هو المؤرخ الذي يكشف ما يشاء، وقتما يشاء، من ألغاز وأسرار التاريخ التي لم يعلمها أحد سواه. كنا جالسين متجاورين في البدرون، المكان الوحيد الذي يضمنا بهذا القرب ونجلس فيه بمحاذاة بعضنا البعض، عكس قاعة المحاضرة أو خارجها، حيث يكون هو الأستاذ، الذي يجلس متلبساً مهابة زائفة للمؤرخ، أو يراقب وفاء بينما تتحدث معي في أروقة الكلية، كأنه يستكثر علي هذه النعمة، نعمة قربها مني، فصار يجد في البدرون فرصة ليقترب مني على أتنازل له عنها، لكن سيرة وفاء لم ترد أبداً على لسانه في هذا المكان، كأنه يشعر بخطورة ذكر اسمها فى البدرون. كان يجلس مسترخياً، محدّقاً في كأس النبيذ الذي أعدّه له مسعد، وكنت قد أنتهيت من لفّ سيجارة حشيش في ورقة "بفرة أمريكاني"، وجلست أدخّنها باستمتاع، بعد يوم عمل مرهق داخل الجامعة قضيته في الجدال مع عمال البوفيه وبعض الموظفين من مدمني الصنف. كنت مرهقاً، عندما بدأ رمضان بالغمغمة بكلمات متعثرة يتحرك بها لسانه في بطء مثقل من أثر الخمر، كان يقول: "هم

في النهاية يبيعون، هناك من يبيع أرضه، وبعضهم يبيع مجلّداً أو مجلّدين من التاريخ، آخرون يعبّئون اللحوم البشرية في قوارير ويبيعونها أيضاً، مثل لبن الأطفال"، ثم التفت نحوي وحدجني بنظرة جامدة، متابعاً: "إبراهيم أمهر بائع لكلّ هذه الأشياء".

نظرت إليه في حيرة، كان ذهني مستغرقاً في نعاسه، لا يريد أن ينتبه على كلام جاد. فجأةً هبّ رمضان على قدميه مترنّحاً، بينما يقول: "أحلّ الله البيع وحرّم الربا، إنهم يقولون هذه الآية، بينما يبيعون ويبيعون ويبيعون، يبيعون كل ما يقف في طريقهم، باعوا المسلاّت والمآذن، باعوا كعوب مجلّدات التاريخ، باعوا النقوش على الجدران، ثم باعوا الحقيقة وقالوا إنّ الصدق منجي، وامتطوا ضمائرهم، ثم لم يكتفوا، كم قصة تاريخية مشنوقة انتهت بالبيع، محمد علي باع المصريين للباب العالي، الرفاق باعوا عمر مكرم لمحمد علي، محمد علي باع المماليك وذبحهم، حتى هؤلاء لم يقاوموا وباعوا البلد للسلاطين العثمانيين، ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ جاء من بعدهم أقوام باعوا هم أيضاً كل شيء، باع محمد علي طموحاته في دولة وإمبراطورية حتى يشتري الملك لأبنائه، ثم باع وباع وباع حتى أصابه الخرف وتحولت البلد من بعده إلى نهيبة، الكل يبيعها ولا أحد يشتريها، حتى القادة العظام باعوا بعضهم بعضاً، من أجل ماذا؟ رفاق عرابي باعوه، قادة الثورة العظيمة باعوها من أجل رئاسة وتشكيل الحكومة، والآن تلومون إبراهيم لأنه يبيع. بيع يا إبراهيم، بيع".

تدخّل فجأةً مسعد هاتفاً فيه بحدّة وصوته الأجش يرتعش بين

حبلي حنجرته بينما يقول: "جرى إيه يا دوك؟ ما تروق! أنت فاكر نفسك في الكلية، بتتكلم بالنحوي ليه؟ ما تنزل على الأرض كدا، وتضرب دا". ومدّ له سيجارة حشيش تتصاعد من فوهتها أدخنة نفاثة.

١٢٠

لم يفصح رمضان أكثر من ذلك، فقط أبطل مفعول سيجارة الحشيش التي كنت أدخّنها. انتبهت، وحينما انتبهت كان مسعد يدسّ رمضان في سيارته، نهضت مترنّحاً أحاول إحصاء عدد مرات كلمة "بيع" و"يبيع" و"باع" و"يبيعون" التي ردّدها رمضان في وصلته المترنّحة المخمورة. ماذا حدث له؟ وما الذي اعتراه؟ أحياناً يكون وغداً، يلعن المظاهرات ويسبّ المتظاهرين ويصفهم بالمآجورين، وأحياناً يصبح وطنياً، مهموماً على تاريخه وقضايا أمته. تحسّست التليفون المحمول، ضربت رقم نادية، كنت متعجلاً، مضطرباً، متورطاً، كمن وقع في حفرة، أسفل فراشه، إلى أين سينتهي مصيرى، مثل الشاب الذي أذابه إبراهيم في تنك المصنع أم مثل إبراهيم نفسه الذي تضاجع زوجته رجلاً ممتلئ الكرش كان ضابطا فيما سبق؟ كانت كل المصائر، سواء، تلوح مثل دوامة مظلمة في بحر تبخّرت مياهه وصارت طحالبه وأعشابه المرجانية مكوّنات متحف عتيق مهجور. هنا كان يوجد بحر عاصف امتصّت السماء أمواجه فتحولت إلى سحب محلّقة، معلّقة في أعمدة الريح، تنتظر إشارة

هبوط اضطراري. لم تجب نادية على اتصالاتي، فهرعت مغادراً البدرون، عدوت في الشوارع ليلاً، مثل خنفساء تتوقع السحق، وصلت إلى البناية، صعدت إلى الشقة، طرقت بابها بقوة، لم تفتح نادية الباب، هل توهّمت باباً آخر غير بابها؟ إنها شقتها، أين هي؟ أين؟

شعرت بالإنهاك، كان الحشيش والإعياء يتّفقان علي في هذه اللحظة، تهاويت جالساً، أسندت رأسي إلى باب الشقة. لماذا يستأثر رمضان وحده بالحقيقة؟ ألأنه مؤرخ؟ ولماذا أهتمّ بالحقيقة إذا كانوا قد تعمّدوا إخفاءها؟ احتفظوا بالتاريخ لأنفسهم ومنحونا الحكايات المسلية التي تتّسع لها حصص المدرسة. من يقوى على رواية القصص الحقيقية للأشياء؟ وهل تكفي حصة مدرسية من ٤٥ دقيقة لرواية كل التفاصيل؟ أين يقع التاريخ؟ إنه عند خطّي عرض وطول وهميين. ماذا تريد أن تكون يا مراد: حشّاشاً أم "ديلر"؟ يمكنني أن أكون "دولاباً". هل كان ذلك مكتوباً قبل ميلادي؟ هل كتبوا تاريخي قبل أن تدبّ قدماي على سطح الأرض؟ هل خدعوني عندما كانوا يعدونني دائما أنّ كل شيء سوف يصبح على ما يرام؟ فقط تخرّج من المدرسة، فقط انتهِ من دروسك، فقط أنهِ دراستك الجامعية. متى بدأوا خداعي بهذه الأكاذيب؟ هل دسّوها في حمضي النووي عندما كنت مجرد حيوان منوي يسابق أقرانه في مشوار طويل في سبيل بويضة؟ هل حقنوا رحم أمي فشربت ضمن ما شربت من غذاء تدليسهم، فولدت مشبعاً بآلاف القصص الوهمية عن المستقبل؟ أنا الآن بين طريقين: إما أن أكون حشاشاً أو قوّاداً.

– أي حقيقة اللي انت بتسأل عنها، ما أنت صاحي نايم واكل شارب رايح جاي معانا، فيه إيه يا مراد؟

لم تزل نادية قادرة على مساومتي، كانت تقول العبارة السابقة، بعدما عثرت علي نائماً على باب شقتها الفاخرة المطلة على كوبري الجامعة، كانت في مصنع البيرة، أرض البيرة التي صارت متوّجة عليها، سلطانة أرض البيرة. تقول نادية: "أخيراً نفّذنا حلمنا، المصنع ملكنا، وقبضنا عمولتنا، عمولة كبيرة يا مراد، الطريق كان صعب، لكن أخيراً وصلنا".

كنت أشعر بجفاف في حلقي، وبطعم الحشيش في شفتي. كانت ترتدي روباً منزلياً شفافاً يلتمع أسفله لحمها البض، صارت أكثر امتلاءً عن ذي قبل، ثدياها استدارا وامتلآ كأنها أخضعتهما لعملية تكبير. كانت تجلس أمام المرآة، فيما أستلقي أنا على فراشها الوثير لأول مرة، فأنا لم أدخل حجرة نومها من قبل. كانت تزيل مساحيق مكياجها عن لحم وجهها، قبل أن تستدير لتواجهني وعلى شفتيها ابتسامة أكبر من ابتساماتها الواسعة السابقة، بينما تقول: "أنت شوفت آخر مشهد في صفقة بيع المصنع، مشهد نهاية الولد المغرور اللي كان موقّف البيعة، وتستحق أنك تعرف كل حاجة. أحنا بدأنا موضوع خيري، إبراهيم نادم على ورطة الولد، عموماً قررنا نساعد اليتامى، البنات الغلابة اللي مش عارفة تتجوز. صدقني يا مراد المخاطر خلصت. أنا سمعت من مسعد عن "خطرفة" رمضان معاك، أنت كسرت عينه، المفروض أنه أستاذك، لكنك عرفت عنه

حاجات ممكن ترفده من الكلية".

ظللت صامتاً، متأملاً لعبة نادية، إنها تحاول صرف انتباهي عن شيء ما، بل توجهني نحو رمضان، على الرغم من أنه منذ أن تعرّفني في البدرون وهو يتعمد عدم الاحتكاك بي في الكلية، وإن لم يخفّف من نظراته المحاصرة لوفاء. قالت نادية: "رمضان يعرف بنات غلابة، يتامى، وبيطلب منا نساعدهن ونوفر لهن عرسان. فيها حاجة دي يا مراد؟ أنت تعرف فرحة البنت اليتيمة، المقطوعة من شجرة، لما تتجوز راجل يحميها من غيلان السكك، فرحة ما بعدها فرحة".

كانت محاولات نادية لإقناعي بنشاطها، هي وإبراهيم، تنسلّ إلى عقلي ببراعة صانع نبيذ صبور يتناول حبات العنب ويهرسها في هرّاسة الكروم قبل أن يعصرها في خزّانات مصنع البيرة الضخمة، ثم يضيف إليها الماء والجلوكوز والأحماض المعدنية المختلفة البالغ عددها نحو ١٣ عنصراً معدنياً، قبل أن يقوم بكبرتة الخليط ويدخله مرحلة التخمر الكحولي بإضافة خلايا الخميرة إلى العنب المهروس، ثم يحركهما معاً لإعادة توزيع القشور والمواد المعلقة به، لتشجيع خلايا الخميرة واستخلاص الصبغات الحمراء من القشور، قبل إيقاف عملية التحريك لتوفير الشروط الهوائية اللازمة لحدوث التخمر - كانت هذه الإرشادات مكتوبة بخط منمّق عتيق على لوح كبير في ساحة المصنع الذي كنت أدخله للمرة الثانية في أقل من شهر واحد؛ هذه المرة ليست لتصفية أحدهم أو إذابة جسده، بل لتهيئة المخادع للعذراوات اليتيمات اللواتي سيتم بيعهن في خنادق المصنع.

١٢٢

السماء لم تكفّ هذا الشتاء عن الهطول، كانت تمطر بغزارة، زخات الأمطار تبدو غاضبة، كنت أشعر بانفعال القطرات المتساقطة التي كانت تصفعني بعنف وسرعة بينما ألج مصنع البيرة الذي اكتسب نشاطاً مغايراً لنشاطه الصناعي المعهود، فخلال فترات الليل، من سيتصور أن خنادقه تشهد أكبر عمليات النخاسة؟ من يعرف غير السماء التي كانت أمطارها هذه الليلة تنتقم، محملةً بأتربة، ملوثةً بعماص العيون. كانت الأجواء في أنفاق مصنع البيرة أشبه برائحة البنج، كأن أنشطة إبراهيم ونادية السرية قد طبعت المكان بطابع غرفة العناية المركّزة، وأثارت الغضب في أنسجة السحب، فاهتزت بغتةً، مفلتةً ما تقلّه من مياهها التي هطلت بغزارة، كأنّ السحب تنكات مثقوبة أكلتها البارومة. إلى مصنع البيرة تدفقت من أسمتهم نادية باليتيمات، فتيات متهتكات تبدو على ملامحهن التهيّؤ المسبق لما سيكون، صقلن ملامحهن جيداً بالمساحيق والمكياج، وحبكن ملابسهن على كتل أجسادهن ليبرزن تضاريس بعينها تكون قادرة على جذب انتباه زبائن إبراهيم من مختلف نوعيات البشر، أسافلهم وأعيانهم، اكتسوا جميعا ملابس صوفية ثمينة، وفاحت عطورهم، تسبقهم إلى المكان. كان إبراهيم محقاً في الابتعاد عن تخصيص شقة فاخرة لتدبير اللقاءات، الشقق يسهل مراقبتها وضبطها والإيقاع بها، من الاشتباه في كثرة المترددين عليها، من الرجال والنساء، لذلك كانت أنفاق مصنع البيرة المكان الأمثل لاستقبال الراغبين في شراء العذراوات، البنات البكر اللواتي كنّ قادرات على انتزاع الصبا من دهن الشيخوخة.

عاونت إبراهيم ونادية في تجهيز النفق الواقع أسفل ساحة مصنع البيرة الرئيسية بأثاث بسيط يكفي لمعاينة المشتري للفتاة البكر قبل دفع الثمن، وكذلك يكفي لإقامة مزاد ينتهي، في معظم الأحيان، بالتوافق والتراضي بين الرجال الذين تنشب بينهم أحياناً خصومات بسبب ليونة وفتنة إحدى العذراوات.

جلب إبراهيم إلى المكان حجرة نوم من فراشٍ واحد وضعه بين عمودين في النفق، وأحضر "انتريهاً" كاملاً ووضعه على مبعدة من الفراش، في مكان آخر يقترب من السلالم الهابطة إلى النفق، فتحول المكان إلى صالة استقبال تشهد المساومات، فيما بدأت نادية بجلب الفتيات اللواتي كنّ يدخلن إلى المكان، بهدوء، واحدة تلو الآخرى. من يراهنّ من بعيد يظن أنهن عاملات أنهين وردية متأخرة في مشغل قريب، خاصةً أنّ إبراهيم قد زودهن بملابس عاملات نظافة منقوش عليها اسم الشركة، ولكن هل يعقل أن تكون هناك وردية ليل متأخرة لعاملات النظافة حتى هذه الساعات المتأخرة من الليل تعمل فيها بنات، شابات؟ هل كان يتوقع إبراهيم أن تنطلي هذه الحيلة الطفولية على الرائح والغادي أمام المصنع، أم كان يراهن ألا يتتبعه أحد؟

كان ينجح كل ليلة فى بيع أكبر عدد من الفتيات، ومن تتبقى منهن تكون في نظر نادية كالبيت الواقف، "بايرة"، تنتقل إلى الليلة التالية وتحظى بفرصة ثانية وأخيرة للعرض على الزبائن الجدد الذين كانوا يتوافدون أولاً على المصنع، فيستقبلهم إبراهيم بحفاوة صاحب مزرعة يستضيف تجار مواشي جاؤوا لشراء بهائمه، فيرتدي جلبابه الأبيض المضمّخ بعطره العتيق، ويجلسهم في "الانتريه"، بعدما يتقدمهم

عبر سلالم النفق، تتناثر تعليقاتهم الساخرة على المكان، كأن يقول أحدهم: "يخرب بيت شيطانك يا هيمة... من يفكّر يكبس على المصنع ويقبض على شلّتك دي؟ دا انت جن مصور" فيعقب إبراهيم ضاحكاً: "يا باشا، أنا معايا دعم أمني بيفكر ويخطط، هي الأفكار العظيمة دي كانت تخطر على بال والدتي إزاي بس؟"

يبثّ بكلماته الطمأنينة في نفوس زبائنه القلقين رغم ما يبدونه من ثقة، ويهددهم خلسةً بأنه مسنود ولا يهاب سطوتهم، فهو محمي الظهر، مثلهم تماماً، مدعّم بفكر أمني شيطاني لا يمكن أن يسمح بمداهمة المكان؛ من سيحرك قوة أمنية لمداهمة مصنع البيرة من أجل القبض على نخاس؟

أما يتيمات نادية فكن يتقاطرن بعد ذلك، تفصل بين كل واحدة والأخرى ربع ساعة، يدخلن المصنع بعد الاطمئنان أنّ العيون غافلة عن حركتهن، يمرقن من بوابة الشركة الضخمة، ثم يخلعن في ساحة المصنع ملابس عاملات النظافة التي زوّدهنّ بها إبراهيم، ليتلألأن في ملابسهن الضيقة، الحابكة، المثيرة للعاب الرجال، يهبطن بدلع وخفة سلّم الأنفاق، تسبقهن طرقعة خطواتهن، فيبدأ ضيوف إبراهيم في التململ والانتباه والترقّب، تلتفت رقابهم إلى أصوات العذراوات القادمات. كانت ليلتي الأولى في خنادق العذراوات مثيرة، لم أستطع نسيانها رغم مرور هذه السنوات وتحول المكان إلى أطلال خربة كأنه تعرض لقصف جوي في حرب ما. جلست تلك الليلة على أحد مقاعد "الأنتريه" بجوار ثلاثة من ضيوف إبراهيم، اثنان منهم كانا صديقين، أحدهما جلب صديقه بعدما تعامل فيما سبق مع إبراهيم واشترى

منه شابة بكر من المنصورة وأعجبه النظام، فحدّث عنه صديقه. كانا الرجلان مهندسين كبيرين في مهنتهما حسبما فهمت، ولم يكن إبراهيم وقتها قد بدأ بتصوير وتوثيق الجلسات بالصوت والصورة. كانت اليتيمات المعروضات للبيع في تلك الليلة ثلاث فتيات، إحداهن من الغربية تبدو على ملامحها طابع ريف إحدى القرى المتاخمة لقرية نادية، في العشرين من عمرها، وتسمى هند، تكتظّ ملابسها بلحمها الرجراج، وتهتز شفتاها وترتعش عيناها ارتعاشات ملحوظة، وإن غطّى هذه العيوب ملامح وجهها الصبوح، وكانت بجوارها فتاة أخرى من "شبين الكوم"، حسبما عرّفها إبراهيم، انتهت من دراسة الحقوق بجامعة المنوفية، كانت تعمل سكرتيرة قبل أن يُكتب كتابها على ابن عمها الذي فشل في ليلتهما الأولى، فطلقها بعد ليلتين متواصلتين من الإخفاق، مما اضطرها للهرب من أهلها بعدما أشاع أنها لم تكن بكراً، لكن نادية تدخلت عند هذه الجملة الأخيرة قائلةً بضحكة مسرسعة: "بس على مين... دا أنا معاينة بنفسي".

١٢٣

كانت أغلب الصفقات تتمّ نقداً، لم يكن إبراهيم يتقاضى شيكات على بيع الفتيات، حقائب سفر ضخمة كانت تمتلئ عن آخرها بالنقد، وتنتهي رحلتها في شقة نادية المطلة على كوبري الجامعة. كنت أعرف تفاصيل الصفقات والمبالغ من العبارات المتبادلة بين إبراهيم وزبائنه؛ عبارات تهكّمية ساخرة تجبرهم جميعاً على كشف حقيقة الصفقات،

كأن يلوم أحدهم إبراهيم مداعباً: "يا ظالم... تلهف مني ٥٠ ألف جنيه في البتّ، واكتشف بعد كدا أنها مكسّحة، عيّانة بالهشاشة، أول نومة معاها ينكسر لها ضلعين...".

كان المتحدّث موظف كبير بقطاع البترول، ممن يتقاضون ملايين كل عام، ما إن قال "ينكسر لها ضلعين" حتى انتبهت إلى حجمه الضخم وكرشه المكتظّ الذي يكاد ينفجر من قميصه. ضحك إبراهيم على ما قاله الرجل، وعقّبت نادية قائلةً في جرأة: "يا باشا... يعني الرحمة حلوة، البنتّ مظلومة برضه، شوف عودها وشوف عودك، واللي قبلينا عملوا لنا أوضاع كتيرة لحل مسائل الأوزان دي برضه".

كانت تتحدث بوقاحة عن الأوضاع الجنسية التي لا يضطر الرجل إلى الرقاد بجسده على المرأة بالوضعية التقليدية أثناء المضاجعة، تخيّلت الفتاة التى يتحدث عنها وضلوعها تتحطم أسفله، دافع الرجل عن نفسه ضد كلام نادية بقوله: "والله انتوا عاملين مؤامرة ضدي، البت في المستشفى، اعترفت للدكتور أن عندها هشاشة".

عقّب إبراهيم ساخراً: "يا فضلي بيه... كتر خيرها أنها جت على الهشاشة"، فيما أكملت أنا فى ذهني ما لم يقله إبراهيم خشية أن يحرج ضيفه ويفسد الصفقة. كنت أحدّج الرجل بنظرة كراهية بينما الأفكار تعصف برأسي، كدت أقول له حانقاً: "كتّر خيرها أنها رقدت تحت بغل زيك، دا يمكن ربنا حاش عنها سرطانات البلد وربو الصدر، ونجّاها من فيروس سي والوباء الكبدي، وحماها من بيع كلاويها، وستر عليها من السل، ورزقها بالهشاشة وسوء التغذية، وحضرتك مش عاوز ترحم عضمها".

كنت أتابع ما يجري من حوارات مصدوماً مما أسمعه، هل حقا يتحدثون عن فتيات فقيرات أراهن ويراهن الجميع في الشوارع؟ هل هذا يحدث فعلاً؛ يقمن ببيع أنفسهن كجوارٍ لمشتري المتعة تحت سقف هذا البلد؟ كيف لا تنهار أعمدة السماء فوق رؤوسنا الآن؟ كانت نادية تبيع كل أسبوع عشرات الفتيات لموظفين كبار بالبترول ومهندسين أثرياء يعملون استشاريين بشركات مقاولات عملاقة ومضاربين في البورصة وسماسرة أوراق مالية ومتخصصين في تخليص بيع شركات حكومية منهارة، ورابحة، لرجال أعمال النظام، وكذلك خبراء استراتيجيين متخصصين في حضور كافة برامج الـ"توك شو" وبث آراء ترهيبية تُبقي المجتمع في حالة من القلق والتوتر، وتؤثر على آراء الناخبين والرأي العام باستمرار، - كل هؤلاء مرّوا على "الأنتريه" وجلسوا مراراً وتكراراً على مقاعده الفخمة الوثيرة، ومع اختلاف أسمائهم وأشكالهم ظلّت نفس العيّنة من الوظائف تجلس وتغادر، تأتي لتعاين، وترحل بعد إتمام صفقة ما. تمرّ الفتيات أمام "الأنتريه" أولاً، مثل بنت تستقبل عريساً ليلة قراءة "الفاتحة"، وعندما يختارها أحدهم ينهض معها لمعاينتها معاينة مبدئية على الفراش، معاينة لا تصل إلى المضاجعة الكاملة لكنها تقترب إلى ذلك. كنت في إحدى هذه الجلسات التي كانت تنعقد كل جمعة، أشاهد عن قرب ما يجري، تواريت خلف أحد الأعمدة الكثيرة الموجودة في الخندق لأشاهد عن قرب هذه المعاينة، كان أحدهم بصحبة فتاة رقيعة تنافس بضحكتها المجلجلة ضحكة نادية المسرسعة، لم أستطع أن أنسى بسهولة هذه الفتاة، كانت تسمّى نجوى، منذ اللحظة الأولى التي خطت بقدمها سلّم النفق تهافت عليها الرجال وسال لعابهم عند

مرأى ساقيها المكتظتين أسفل تنورتها القصيرة التي عجزت عن أن تمتد إلى ركبتيها، كانت ترتدي بلوزة من الشيفون يهتزّ أسفلها لحمها بحرية على الرغم من "السوتيان" الذي اعتصرت به ثدييها الممتلئين، شعرها كان يتدلى على كتفيها ثائراً، وعيناها واسعتان جريئتان، قوية في التحديق والتمحيص، لم أستطع مواجهة نظراتها عندما رمتني بإحداها متفحصةً تفاصيل جسدي، قبل أن تلتفت لفحص الآخرين، كانت إيماءتها ونظراتها وضحكاتها تشي أنها ليست عذراء. كان ذوق الرجال ينصب على البنات البكر، الخجولات الهادئات، لذا لم يتقاتل كثيرون على نجوى، رغم فتنتها، فرقاعتها فضّت المشترين من حولها، واهتمّ بها فقط ذلك القبطان البحري، كثير الأسفار، الذي كان بحاجة لامرأة من طراز خاص لتقضي معه أوقاته المتناثرة في موانئ البلاد المختلفة وأيامه المتقطعة فوق الأراضي العديدة التي تحلّ فيها سفينته، معاينته لها كانت شكلية، حيث كان مقتنعاً من البداية بشرائها، لكنه رغب في إتمام الطقوس كاملةً، فانتحى بها جانباً في الفراش، ضمّها بشهوة واعتصر ثدييها بلهفة واهتياج، بينما أراقبهما من موضعي القريب منهما، كانت قد بدأت بخلع ملابسها، بينما يمطرها بقبلاته بغزارة، فتطلق ضحكاتها المجلجلة وقد اكتمل عريها، وفاح عطرها قوياً، تنفّسه بشبق قبل أن يعاود امتصاص حلمتي ثدييها كأنه يرضع من أمه، وقبضتاه تطوقان خصرها بشهوة، مصدراً أصوات غنج واضحة بلغت نادية وإبراهيم" وآخرين فأطلقا ضحكتين ساخرتين، وإبراهيم يعقّب في ميوعة: "على مهلك عليّ يا بحار، بحرك واسع وطبق العسل مش هيخلص من لحسة".

توسّع إبراهيم ونادية في تجارتهما الرائجة، في من كانت تسمّيهم الأخيرة باليتيمات، توسّع الثنائي، ربما دون علم ملاّك المصنع الجدد، في تجارة الفتيات داخل أنفاق مصنع البيرة الذي يقف ببرجيه من الخارج موثّقاً لعهدٍ مضى من الشموخ والعظمة الاقتصادية والصناعية. لا يتصور العابرون، بواجهته العملاقة الشامخة، أنّ داخله تجري أبشع أعمال النخاسة التي طوّرها إبراهيم بإتمام صفقات الخمور المهربة داخل خنادق المصنع. يأتي التجار للمعاينة واختبار الأصناف وجودتها والتأكد من أنها ليست مغشوشة، ثم تخرج حافلات محمّلة بصناديق ممتلئة عن آخرها بزجاجات البيرة والنبيذ والكونياك. هكذا كان يتم استنزاف المصنع، تأهّباً لإتمام صفقة بيعه الثانية التي لم أشهدها. تلك كانت عام ٢٠٠٢. في سنوات الصفقة الأولى نجح إبراهيم، وسط رضوخ عمال المصنع وتغاضي ملاّكه الجدد، في إدارة "بيزنسه" الخاص الذي نهض على بيع اللحم والخمر معاً، كأنه استأجر خنادق المصنع لحسابه الخاص: أضاف غرف نوم وأنتريهات وجلسات عربي، وخصّص أحد الأركان ليكون مطبخاً يعدّ أشهى الطعام، الأرز المعمر والكبسة العربي وفخذان اللحم الضان، لإطعام تجار الخمور المهرّبة وضيوفه من مشتري العذراوات. كانت الخنادق تتلألأ بالثريات، بعدما أغلقها إبراهيم ببابين مصفّحين لا يحتفظ بمفتاحيهما أيٌّ من العاملين بالمصنع. كانت الأحاديث تدور دائماً عن خندقٍ آخر يقع في طرف المصنع الجنوبي، مجهول المسار، لا يعرف أحد إلى أين ينتهي، فيما كان إبراهيم يتظاهر أنّ لديه سرّه. كان رمضان يتدخّل، بعدما بدأت قدمه

تعتاد المكان ويفضل التحشيش فيه على التحشيش في "البدرون"، كان رمضان في تلك الليلة يقول: "لا أظنك تعرف يا إبراهيم أنّ الخنادق الّتي حوّلتها بقدرة قادر إلى بدرون دافئ كانت لها استخدامات صناعية مهمة، لكنّ مهمتها الأولى لم تكن صناعية على الإطلاق، البعض يحب أن يقول إن الجنود الانجليز استخدموها مرة أثناء اندلاع ثورة ١٩١٩ لقمع المصريين وحصارهم، لا تحتفظ كتب التاريخ سوى بإشارات أن قوات الإنجليز هاجمت المظاهرات في الشوارع وطوقتها، لكن كيف استطاعت نقل معداتها من الجيزة إلى القاهرة، وأنت تعرف أن معالم الأماكن تغيّرت، لم تكن هذه المباني المشوهة قد ظهرت بعد، البعض استنتج أنّ سراديب مصنع البيرة تمتد حتى شركات المياه الغازية التي كانت تقع بالدقّي القديمة، فيما اشتطّ مؤرخون وذهبوا إلى أنّ هذه الخنادق حفرها الإنجليز بعد بناء المصنع لحماية معدّاتهم من الثوار، فخزّنوا فيها أسلحتهم وعتادهم لتكون في مأمن من هجمات الثوار على ثكناتهم التي كانت تقع في قصر النيل بميدان التحرير حالياً. هل تعرف يا مراد أين كانت ثكنات الإنجليز؟ في نفس موضع جامعة الدول العربية الآن، إلى هناك تمتد خنادق مصنع البيرة، أو هكذا أظن أنا".

ضحك إبراهيم، بينما يرمي بنظراته الرجل الذي وفد للمرة الأولى إلى أنفاقه، وقد قدّم نفسه له بأنه صديق أحد الاستشاريين الكبار الذين سبق واشترى واحدة من عذراوات نادية. يقول إبراهيم: "يا دوك، أنا ما يهمنيش إن كان خندق بتاع إنجليز ولاّ نفق من أنفاق المترو، أنا جهّزت الحتة اللي لمّانا دلوقتي، ولو حبيت أتوسع هتوسع إن شاء الله، لكن مش هنقل نشاطي لجامعة الدول العربية، هناك هلاقي سباع قصر النيل مستنياني".

ثم حول انتباهه إلى الرجل، كان شعره قد خطّه الشيب وكان جلده مشدوداً، رطبا، خالياً من التجاعيد، يرتدي بزة كاملة كأنه ذاهب لقضاء ليلة في الشيراتون، يرمقنا في تركيز كأننا خريطة يستظهرها عن ظهر قلب، كانت نظراته قلقة، وتزداد تشتتاً أكثر كلما حانت منه نظرة متفحّصة إلى الكاميرات التي أدخلها إبراهيم لتراقب وتسجّل وتوثّق جلسات الأنتريه. كان إبراهيم قد طوّر نفسه بسرعة خلال شهرين فقط من بيع المصنع، ومع تجهيز المكان وفرشه بأفضل أثاث دمياط جلب مجموعة من الكاميرات وثبّتها بمعاونة أحد المهندسين لتسجيل ما يحدث في خنادق العذراوات. بات يمتلك شرائط تحوي مشاهد صادمة عن أبرز رجالات البلد ممّن تعاملوا معه في سوق النخاسة الصغير الذي يديره في أحشاء مصنع البيرة. لم أعرف أين كانت تذهب هذه الشرائط، كما لم أرَ أبداً حجرة الشاشات التي ترصد وتراقب الجميع، لكنّ الضيف الجديد جعلني أركّز عليها وأبدأ أبحث عنها، خاصةً أنني كنت بطل معظم هذه الشرائط.

١٢٥

ظهرت نتيجة "الترم الأول"...

هكذا بكل بساطة، ولا أعرف متى كانت الامتحانات أصلاً...

كان حرف (غ) الذي يعنى كلمة "غياب" أمام اسمي في كشوف النتيجة. ورطة! تثلّجت أطرافي حينما فوجئت بالنتيجة. كانت ملامح وفاء المصدومة قد بشّرتني بالمصيبة، كستها علامات الوجوم، لم أكن

قد عرفت أنهم قد امتحنوا بالفعل، باغتتني بقولها: "معقولة تغيب عن الامتحانات!". تراجعت خطوة إلى الخلف وقد امتقعت ملامحي، وقلت بصوت مرتعد: "امتحانات! امتحنتوا إمتى؟".

تركتني واقفاً في مكاني وانصرفت غاضبة، هرعت، تتخبّط أقدامي في خطوها، استوقفتني النتيجة المعلّقة على الحائط في قوائم كثيرة، بحثت مرعوباً عن اسمي وسط الكشوف حتى وجدته وبجواره حرف (غ) متكرّر أمام أغلب المواد، ومن بينها مادة رمضان، ألم يكن معي أغلب الوقت في "البدرون" ثم في خنادق العذراوات؟ ألم يتوقف عن إلقاء دروسه التاريخية ثم يلتفت نحوي لأؤيده، حتى لو بإيماءة؟ كيف انطلقت الامتحانات ولم يحذّرني؟ ممتقع الملامح غادرت الكلية أضرب كفّاً بكفّ. في المساء لم تكن نادية متفرّغة لتلحظ وجومي. غادرت مصنع البيرة قبل أن تبدأ الليلة، قبل الحادية عشرة ليلاً. كنت في شقّتي في أكتوبر، فوجئت باتصال مباغت منها، رددت مختقناً، جاءني صوتها يقول: "إيه حكايتك؟ أنت فين؟".

قلت بصوتٍ مختقن: "أنا سقطت يا نادية... سقطت... ابعدي عني..."

أغلقتُ الهاتف، قبل أن أقذفه صارخاً في غضب ليرتطم بالحائط ويسقط متحطماً، انفصلت بطاريته عن جسده وانفصل غطاؤه وطارت قطع أرقامه البلاستيكية بعيداً. جلست منهاراً، محملقاً في البساط الجديد الذي اشتريته في شقتي، كان أثاثها قد تغيّر وتجدّد خلال تلك الفترة التي شاركت إبراهيم ونادية نشاطهما بمصنع البيرة، فلماذا أبتئس الآن وأبحث عن النجاح في الكلية؟ كل شيء مدفوع

ثمنه مقدماً، لماذا أبحث عن كل شيء، إذا كان جلدى نفسه قد تغير بفضل الإتجار في البنات، امتلأت بطني، شعرت بالشبع لأول مرة، من عمولات الحشيش التي أتاجر بها فى الجامعة، الآن فقط انتبهت، انتبهت إلى الكارثة.

لا أعرف كيف مرّ الوقت، لكنه مرّ، غادر النهار باب شقتي وتسلّم منه المساء الوردية، كنت أشعر أنهما يتعهدانني بالحراسة، كأنهما على ثقة من إيذائي لنفسي. طرق علي الباب، توقعتها، إنها نادية بالتأكيد، وقد افتقدتني ورغبت في استعادتي. كانت آلاف "السيناريوهات" تتحرك في رأسي، لن أفتح لها الباب، بل سأفتح لها الباب ثم أطردها، ولكن ماذا إذا كان إبراهيم بصحبتها؟ أو مسعد؟ إننى أعلم عنهم الكثير، وربما صرت بالنسبة لهم مصدر قلق، لن يتركوني أخرج من عالمهم بهذه السهولة، بدأت أشعر بالخطر في الاقتراب من الباب وفتحه، لكنّ الطرق استمرّ، كانت دقات مترددة فى البداية، ثم صارت دقات متحمسة، لديها إصرار، أن أستجيب، ثم فجأةً برز صوت محبّب لي، صوت لم أتوقعه، صوت يناديني: "مراااااد... أنت هنا؟" - كان صوت وفاء.

١٢٦

لم تكن وفاء وحدها من يدقّ باب شقتي فى هذه الساعة، كانت مع الدكتور رمضان، أستاذنا المشترك بقسم التاريخ، كانت المفاجأة غير متوقعة، لم أظنهما يعرفان الطريق إلى منزلي، وإن عرفا لم أتخيل أن

يقررا زيارتي فجأةً. ظللت أتطلع إلى وفاء التي ظلت واقفة على عتبة شقتي، واجمة، على ملامحها آثار تعب المشوار، وخلفها رمضان، محملقاً فيّ بسخرية. قالت وفاء: "مش هتطلب منا ندخل ونرتاح؟".

أفسحت لها الطريق فدخلت بهدوء، يطرق كعب حذاءها الأرض في وقار، ومرق خلفها رمضان في صمت، وهو يتفحص أثاث شقتي ومعالمها، ثم ينتقي أقرب مقعد ويلقي بجسده عليه. احتجت وقتاً بلغ دقيقة قبل أن أستدير لأواجه وفاء مرحّباً بخفوت، فقالت: "أنا فوجئت بالدكتور رمضان يعرض علي مساعدتي في الوصول إليك، كنت أعرف أنّ حالتك مش مناسبة للزيارة، خصوصاً بعد النتيجة".

رمقتُ رمضان بنظرات ذات مغزى، كأنني أتمنى أن يبوح لي بما قاله لوفاء عني وعن تجارة الحشيش وعن خنادق العذراوات ونادية وإبراهيم، هل فضحني تماماً؟ هل عرّاني أمامها؟ هزّ رمضان رأسه بإيماءات خفيفة، فقالت وفاء بسرعة، كأنها تقرأ نظراتنا المتبادلة: "مراااااد... لازم تعرف إن اللي فات كوم واللي جاي كوم تاني، لازم تنتبه للسنين اللي باقية في الكلية، والدكتور رمضان وعدني أنه هيساعدك، وأنك هتخرج من محنتك، لكن المهم إرادتك إنت يا مراد، فهمتني...؟!".

قالتها بينما تهبّ من مقعدها، مثل قطة متحمسة، وتقترب مني قبل أن تقول عباراتها الأخيرة. لم أكن أنظر إلى عينيها، وما تحمله من حب، كنت أنظر إلى رمضان، أستاذي في التاريخ، الذي تعمّد أن يفضحني أمام وفاء لينالها بكل سهولة. هناك دائماً في الحياة أستاذ وتلميذ، هناك دائماً في المدرسة أستاذ وتلميذ، أستاذ يستطيع الإيقاع بتلميذه، ثم تمرّ

الأيام ويحلّ التلميذ محل الأستاذ ليوقع بتلميذٍ غرّ آخر، هكذا كنت أتخيل رمضان، وأنتظر اللحظة التي أوقع فيها بمن هو مثلي، بمن هو غرّ، أحمق، لكنني كنت آخر الحمقى لسوء الحظ.

كان رمضان في الصباح التالي ينتظرني في مكتبه الذي كان يغمره نور الصباح وبرد الشتاء وأبخرة فنجان قهوته. ظلّ يحدجني بنظرات مستخفّة، كنت أقف أمامه في الجانب المشمس من مكتبه، الشمس تغمرني دون دفء، أشعتها تضرب في عيني بإصرار، فوقفت محنيّ الرأس. بدأت كلمات رمضان حينما أدرك خضوعي وضعفي وقلّة حيلتي. عبارته الأولى جاءت هكذا: "إيه رأيك في المفاجأة دي؟ أنا قلت أخفّف عنك النتيجة، وفي نفس الوقت أثبت لك أن روحك في إيدي".

ظللت صامتاً، مرتجفاً، فبدأ التحرك من خلف مكتبه، قائلاً: "لكنّ شهامتي تجبرني على أن أفلت روحك وأجعلها تحلّق بحريتها، هذه هي روح التاريخ وروح الأقوياء، والحقيقة أنني اكتشفت أنّ الصفقة بيننا يجب أن تسير على خطى عادلة، لا ينبغي أن أستأثر بكل شيء". ثم اقترب مني قائلاً: "هذا يسمى استحواذ وهيمنة، ممارسات البغيضين الذين تمتلئ بهم صفحات التاريخ، في الحقيقة هي ليست صفحات بل مستنقعات، سقطوا في الوحول نتيجة رغبتهم في جمع كل شيء. انظر إلى هتلر، أين هو الآن؟ انظر إلى هولاكو، انظر إلى قمبيز، ابتلعته الصحراء، انظر إلى الإسكندر، لم يعثروا على قبره حتى لحظة حديثنا هذه، إنه قانون التاريخ الذي لا يرحم البغيضين، كل هؤلاء كانوا قادة عظام، هزّوا الدنيا ورجّوا الأرض أسفل أقدامهم، زلزلوها بقراراتهم

وإراداتهم، ثم أين هم الآن، إنهم أسفلها".

جلس، وظللت واقفاً أحاول أن أربط بين هذه المحاضرة وبين موقفنا الحالي، فأفصح بقوله: "في الحقيقة كان بوسعي أن أهيمن على البنت وأبيها، أستحوذ عليها بجانب ثروة أبيها، وفي النهاية هي وحيدة أبيها، لكنني فضّلت أباها الآن عليها في المستقبل، كما تعلم، عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، هذه مقولة تاريخية أيضاً بالمناسبة".

كان يتحدث عن وفاء، لكنني لم أفهم معنى المقايضة التي يحاول أن يفرضها عليّ. اقترب بوجهه فجأةً من وجهي وقال في حسم: "لن أنتظر قلب الفتاة حتى يدقّ لي، وفي النهاية لا صبر لي على هذه المسائل، ويبدو أنها حسمت أمرها بالفعل، وتحب أحدهم، نحن هنا نتفق من جديد، أمنحك ما تريده الفتاة، على ألاّ تعترض طريقي نحو أبيها، لقد تعرفت إلى الرجل، وبذلت معه جهداً جبّاراً، وهو الآن في الفخ بالفعل".

١٢٧

هكذا عرفت من هو والد وفاء؛ إنه الرجل الاستشاري الكبير الذي كان يرتدي حلّة سوداء أنيقة كأنه ذاهب إلى الشيراتون، هكذا نجح رمضان في الإيقاع بالرجل، بعدما تعرّف عليه فيما مضى، عن طريق رغبته في شراء فيللا في إحدى "الكمباوندس" التي يبنيها بحماس خارج القاهرة، ليعتزل فيها الأغنياء حياة الفقراء وعشوائياتهم. لكن

كيف نجح رمضان في توريط الرجل بشراء عذراء من عذراوات نادية وإبراهيم؟ كيف استطاع أن يجلبه إلى إبراهيم وسراديبه وخنادقه؟ ظلّ هذا سر رمضان الذي لم يطلعني عليه، مقابل تزويدي بامتحانات القسم، أولاً بأول، يحصل هو على الرجل وثروته، يشاركه مشروعاته، يعمل معه في شركاته العملاقة، مقابل أن أظل أنا بعيداً، مذاكراً الامتحانات التي يسرّبها لي رمضان، ليلة بليلة، هكذا تغيّرت أرقام درجاتي، صرت الأول دائماً، لكنني كنت مفلساً، منذ امتنعت عن تجارة الحشيش وانقطعت عن الذهاب إلى خنادق إبراهيم ونادية، كأنّ ثلاثتنا اتفقنا على أن أبتعد عنهم وألتزم الصمت، ويتركونني في حالي، أذاكر دروسي سعياً وراء الشهادة. لم أتلقّ أية اتصالات من نادية، كأنها اختفت، ذوت ذات ليلة، أو كأنها لم تكن، باستثناء ليالي الامتحانات، كنت أشعر بالخواء، خواء يدفعني إلى التجوّل لياليٍ طويلة في شارع "بين السرايات"، في موعد استقبال رجال الأعمال الراغبين في شراء العذراوات، ليالٍ طويلة، ظللتُ أحدِّق من بعيد في مدخل شقتها المطلة على كوبري الجامعة لعليّ ألتقيها، لكنها لم تكن هناك، دائماً لم تكن هناك، فقط وفاء كانت هناك دائماً، تلاحقني في كل جولاتي داخل الجامعة، كأنها تحاصرني، تحاول منعي من الارتداد إلى الماضي، ضبطت نفسي في ليالٍ كثيرة أمارس الاستمناء محاولاً تذكّر تفاصيل جسد نادية ومضاجعتنا الحميمة، لكنها لم تكن هناك. عدت إلى ورشة الانتريهات، استقبلني "الأسطوات" بترحابٍ مبالغ فيه، منحني صاحبها أول ليلة راتب كامل، على الرغم من أن يديّ نسيت أيام "التدبيس" و"التنجيد" التي كنت أفرغ خلالها من عدة

"طلبيات". كان الجميع ينظر مشفقاً إلى إصابات أصابعي المتعددة من طرقات الشاكوش الأولى في يومي الأول بالورشة، ثم يعودون للتركيز على ما يفعلونه. في هذه اللحظة أمسكت دموعي، لكنني شهقت فجأةً من البكاء. أحاشوا نظراتهم عني، تركوني أبكي، كنت أشعر بالمهانة البالغة، هذه الأصابع التي كانت تخفي بين خلاياها بمهارة أصابع الحشيش، عادت مرة أخرى إلى دقّ المسامير وتنجيد الإسفنج والقماش فى كراسى الأنتريهات. هل جاءت النهاية؟ كلا لم تجئ بعد، كان مشهد النهاية أقرب ما يكون، لكنني لم أكن أدري.

١٢٨

"محدش يعرف عنّا حاجة، غيرك أنت وأستاذك؟ وانتوا الاتنين اختفيتوا، أو عشان أكون ابن بلد معاك، أستاذك ما بطلش يزنّ علينا أننا نسيبك في حالك".

كانت العبارات سريعة، ملتهبة، محمّلة بزخّات انفعال وغضب، يطلقها فم إبراهيم في سرعة، بينما جرح صدغه يرتعش وعيناه تتّسعان من الغضب. كان عدد من الرجال قد انتظروني خارج الجامعة قبل نزول المساء، وأخبروني أن الحاج إبراهيم يرغب في التحدث إليّ قليلاً. في البداية لم أعرف من هو الحاج إبراهيم، فقال أحدهم: إبراهيم... المصنع.

تردّدت، ولحظوا خوفي وترددي، فاقتربوا مني في حسم، وقال أحدهم: "الحاج إبراهيم عاوزك".

ذهبت معهم، استقبلني إبراهيم في البدرون، كانت ملامحه مضطربة، وزنه انخفض إلى النصف، نظرات عينه زائغة مضطربة، وكلها شك وخوف وقلق واتهامات. مسعد تمّ القبض عليه أثناء ترويجه الحشيش أمام الجامعة. تذكرت بغتةً نادية وهي تؤكد لي أن ليس في الإمكان القبض على "ديلر" أو تجار الصنف. قلت محاولاً أن أدفع عني الشك: "أنا ابن بلد يا عم إبراهيم، مش أنا اللي أبلغ عنك، ثم إني هبلّغ عن مسعد ليه؟".

كانت ردوده جاهزة، التهمة ملتصقة بي، فأنا عدو مسعد القديم، وأسهل شخص أستطيع أن أشي به هو مسعد، وليس نادية أو إبراهيم، ولكن مسعد سهل الإيقاع به، وهذا ما لم يقتنع به إبراهيم، كنت رهينته بالفعل، هكذا أبلغ رمضان بينما يتصل به على المحمول قائلاً: "بص يا دكتور... أنا الواد اللي شغّال معايا اتقبض عليه، لو حضرتك ما جيتش دلوقتي تساعدني في إني أنقذ الواد مسعد مراد مش هيشوف شمس بكرة ، هدفنه الليلة في مصنع البيرة".

هكذا أصبحت خنادق مصنع البيرة صالحة لكلّ الاستخدامات بالنسبة لإبراهيم، مجنّد الأمن المركزي، صالحة أن تكون مقبرة لأعدائه، وفي نفس الوقت خنادق لعذراواته اللواتي يتاجر بهن. جاء رمضان سريعاً، مضطرباً، كأنه يتحرك لنجدتي بناءً على اتّصال من وفاء. كنت أشعر أنها تتابعني وتعرّف بتورّطي في هذه الأمور قبل أن أتورّط فيها بالفعل. حاول رمضان أن يهدّئ من روع إبراهيم، واجهه منفعلاً مستنكراً ما يفعله باحتجازي، غاضباً من أجلي غضبة لم أتوقعها، كأنه شقيقي الأكبر، كان رمضان يقول: "يعني الجربوع

بتاعك اتقبض عليه متلبّس بالإتجار في الحشيش، تلبّسنا التهمة احنا يا إبراهيم، أنت إيه اللي جرالك، عقلك خفّ، طب إدّي نفسك فرصة واقرأ تاريخ الحشيش، وأنت تعرف إزاي الصغار بيقعوا قبل الكبار، أنت ومسعد بكرة خيط يا إبراهيم، هو أول الخيط، والبوليس خلاص، شدّ الخيط، وهيكرّك معاه".

ظلت ملامح إبراهيم ممتقعة، بينما رمضان يلقّنه درساً تاريخياً، هذه المرة عن سقوط تجار الصنف. هبّ إبراهيم قائلاً: "أنا عارفك يا دوك، أنت بتحتقرني وبتحتقر الحشاشين، رغم أنك زميل قعدة وغرزجي قراري، بس لازم تعرف أن الحشاشين أفضل خلق الله، لو كانوا وحشين ما كانش خلقهم، على الأقل إحنا هنا، واقفين على الأرض، بنقول اللي نفسنا فيه، مع سيجارتين معمرين، إنما انت بقى مسكين، بتحتاج قعدتنا عشان تطلّع اللي جواك، مش بتقدر تفتح غطاك إلا وأنت ويانا، وسيجارتنا في خشمك، إحنا حشرات في عينيك، بس سيجارة الحشيش اللي بنلفهالك بكتبك كلها وبحكاوي التاريخ العدمانة اللي داوشنا بيها".

١٢٩

ظلّت عبارات إبراهيم تتدفّق من فمه بغزارة، بينما عينيه تحمرّ وعروق رقبته تنفر من التوتر، فيما يرمقه رمضان بنظرات ساهمة، قبل أن يغمغم: "أنت مجنون يا إبراهيم، صدقني أنت تحولت إلى مجنون كبير، القبض على مسعد أثّر في عقلك".

كان رمضان يتحدث بثقة، بينما إبراهيم يصرّ على عودتي إلى خدمته وترويج الحشيش إن كنت حقاً لم أتسبّب في الإيقاع بمسعد أو الإبلاغ عنه. قلت للمرة الأولى منذ دخلت البدرون بصحبة رجال إبراهيم: "يا عم إبراهيم، أنا خلاص، مركّز في مستقبلي، مستقبلي مش في الحشيش، مستقبلي في الكلية، أنا على عتبة التخرج، سيبني في حالي وابعد عني".

قاطعني إبراهيم محتدّاً، مطلقاً شخرة مجلجلة: "كليّة! عتبة تخرّج! أنت وأستاذك ما تعرفوش غير كتبكم ومجلداتكم، أنا عندي كل الحكاوي، وأعرف القرد مخبي ابنه فين، الحقيقة يا غندور أن مستقبلك مش في الكلية اللي أستاذك في الجامعة مجرجرك عليها، الحقيقة أن مستقبلك في الحشيش، مستقبلكم كلكم في الحشيش، أنت وأستاذك وجامعتكم اللي واقفة قدام مصنعي، واللي اقدر أهدّها واشتريها زي ما اشتريت مصنع البيرة، طول ما صدري فيه طبلة بتدق أقدر أعمل أي حاجة عاوز أعملها، بتكلمني عن كليتك، وأستاذك جاي وراك ينقذك، أنا شربت حشيش بوزن مكتباتكم، وأعرف بلاوي وحواديت، مخزّنها كلها عندي على شرايط الفيديو اللي سجّلتها في الخنادق، كلكم خايفين دلوقتي من المصنع، كلكم خايفين من الخنادق، وهي اللي لمّت أشكالكم الوسخة، كلكم شرفتوني في الخنادق، كلكم بعتوا واشتريتوا اللحمة، دلوقتي بقيتوا بتترعبوا، تحبوا أطلّع لكم المستخبي، وأرعبكم وأفضحكم، بتكلموني عن الكلية والجامعة، بعدما شهدتم على بيع البلد ونسوانها في الخنادق، مصنع البيرة كان أكبر قالب طوب في حيطة البلد، ولما قرروا هما يهدوها

كان لازم أخطف القالب دا وآجري، مش المثل بيقول لو بيت أبوك خرب خد منه قالب، هو دا اللي أنا عملته، شمّرت أكمامى وجلبيتي ونزلت أغرف من البحر، شوفوا طريقكم، ربنا يحوش عبيده عن عبيده، قول يا مراد، قول يا دوك، قادر يا كريم".

١٣٠

كيف انتهت علاقتي بإبراهيم؟ لم يتكفّل أحد بحكاية مشهد النهاية، تركني إبراهيم تلك الليلة بضمانة رمضان، كان إبراهيم يعرف أن ما أعرفه عنه ليس قليلاً، لكنه أيضاً كان يحمي ظهره بقائده في المعسكر، وأنا كنت أحمي ظهري بالدكتور رمضان الذي يسيطر على والد وفاء، فيما أستحوذ أنا على قلبها، لهذا كان يحميني رمضان ويرغب في إتمام الصفقة حتى النهاية، أتزوج أنا وفاء فيما يفوز هو بقصر فخم من القصور التي يبنيها أبوها في "الكمبوند" الجديد على أطراف العاصمة، إنه دنيء، لكنه يرى أنّ من حقه كأستاذ جامعي أن تكون له هذه الحياة المترفة، لهذا خرج بي من بدرون إبراهيم سالماً. بعدها بسنوات كان يساعدني أيضاً في النجاح في الكلية بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف بفضل الامتحانات التي دأب على تسريبها إلي.

كنت أقترب حثيثاً من الاقتران بوفاء، لكنني سافرت. في حذر وافق والدها على الخطوبة. في الحفل كانت ضحكتها لا تفارقها، كنت متوتراً، لا توجد أي امتحانات هذه المرة، إنه اختبار حقيقي، لم يسرّبه إلي رمضان، كنت أرتعش في بهو قصر والدها الضخم، بينما

أضواء الاحتفالية الساطعة تتلألأ، تغشى عينيّ، تبهرني، إنه اختبار حقيقي، بلا درجات.

سافرت بعد الخطوبة، إلى اختبار أسوأ، حيث كان يجب أن أحصل على البعثة الدراسية وأعود منها متفوقاً للمرة الأولى في حياتي، كيف فعلت هذا؟ ساعدتني وفاء كثيراً، حتى عدت، وتمّ الزواج في صمت بعدما توفي والدها بعد عودتي بقليل. تسلّمت وظيفتي في الكليّة، معيداً أولاً، بدرجة مدرّس مساعد. كان رمضان بجانبي، ينتظر دائماً إتمام ردّ الجميل، لكنني كنت في وادٍ آخر، كنت أبحث عن نادية.

بدأت أولاً بالتردّد على مصنع البيرة، لم أدخله، كنت في البداية أتعمّد ركن السيارة بجواره، في "البارك" القريب من المصنع، كان المكان مهجوراً، لم أستطع الاقتراب أكثر، لمحت أكثر من مرة تحولات عديدة تطرأ على المكان، سيارات ضخمة تنقل معدات من المكان، تساؤلات تعصف برأسي، مثل مجلد تاريخ قديم زوّده مؤرخ ماكر بالعديد من الفخاخ والثغرات الزمنية وجعل أحداثه متناثرة مثل قطع "البازل". سألت البعض عمّا يحدث في أرض مصنع البيرة، أحدهم قال: "الشركة بتنقل لفرعها في العبور"، وآخر قال: "الشركة دي اتباعت لمستثمرين آجانب". رددت في دهشة: "تاني؟... هي مش اتخصخصت زمان، سنة ١٩٩٧؟" فآجابني ثالث: "لا يا دكتور مراد، دي اتباعت تاني وأنت في البعثة، لشركة خمور هولندية، الكلام دا كان من ١٠ سنين، سنة ٢٠٠٢".

في إحدى هذه المناقشات باغتني رمضان فجأةً بقوله: "مالك؟... بتسأل على المصنع ليه؟..." ثم أومأ برأسه في مكر، بينما يضع ساقاً

على ساق، في مواجهتي، لم تنجح محاولته نظراً لكرشه الذي تضخّم خلال هذه السنوات. انتهز فرصة خلوّ حجرة أساتذة القسم وقال لي: "مراد... انت متجوز واحدة بنت ناس... إياك... إياك تفكّر ترجع للناس دول... أنا بحذّرك".

لا أعرف لماذا لا يتوقف عن دسّ أنفه في شؤوني، بعد كل هذه السنوات، يعطي رمضان نفسه الحق في التدخل في حياتي بهذا الشكل. لم يقوَ على تهديدي، لم يحصل على القصر الذي كان يتمنّاه، لكنه في نفس الوقت لا يريد أن يجهز عليّ، يتحيّن فرصة ما، لكنه واثق من أنّ وفاء تعشقني، تحبني لدرجة الجنون، هو يعرف بالتأكيد طريق نادية، لكنه لن يدلّني عليه، لن يقودني إليها، إلا إذا أبرمت معه صفقة جديدة، لكنني لم أفِ بوعدي في الصفقة السابقة، فلماذا يبرم معي صفقة أخرى، ثم أنه بالتأكيد يعرف أين هي، لقد توجهت إلى شقتها المطلة على كوبري الجامعة، لكنها لم تكن هناك، فأين ذهبت، هل اختفت ببساطة بعد الثورة؟ هل توقفت هي وإبراهيم سالم عن بيع العذراوات؟ إذا كان المصنع قد تعرّض للبيع مرة أخرى فهذا يعطي لهم براحاً أكثر في العمل. كنت ساهماً، بينما الأفكار تعصف برأسي مثل هواء "أمشير" وقد انفرد بحجرة ممتلئة عن آخرها بتلالٍ من الورق. كانت نظرات رمضان تتفرّس فيّ كأنه يحاول اقتحام رأسي، هو لا يدرك أنّ نادية تجري في عروقي، إنها أول من علمتني المضاجعة الشبقة، المجنونة، ولا يعرف عذابي في غيابي عنها، فقط يظن أن وفاء هي السيدة الطيبة الحنون والزوجة المحبة، لكنها ليست المرأة الشبقة التي تشعلني وتؤجِّج شهوتي وتتنفسني وتحوّل أعصابي

إلى فُتات، نادية بالنسبة إلي مثل سيجارة حشيش بالنسبة إلى رمضان، سيجارة حشيش، كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة من قبل.

١٣١

لم أتوقّع هذه المفاجأة، كنت أبحث عن نادية وكيفية الوصول إليها فظهر لي فجأةً "مروان أبو الحبال" صاحب كروت التهنئة التي تلقيتها بمناسبة أو بدون، كنت أبحث عن نادية وخيط رفيع يقودني إليها، دون التورّط في معرفة أخبارها من رمضان تجنّباً لوشاية محتملة، فإذا بي أهتدي إلى البحث عن رقم الهاتف الذي كنت أحمله فيما مضى حينما كنت أعمل "ديلر". بالتأكيد شخص ما حمل الهاتف من بعدي، ربما يكون مسعد عقب خروجه من السجن. بحثت عن الرقم بصعوبة، كانت وفاء تراقب أحوالي المنقلبة رأساً على عقب، متحيّرةً ومستاءة من شرودي الدائم. كنت غائباً عنها، أنظر إليها في البيت متأمّلاً: كيف تحوّلتُ زوجاً لهذه السيدة الوديعة، الطيبة؟ كيف صرت فجأةً أباً لطفلين بينما أنا لا أزال أبحث عن امرأة بلغت الخامسة والأربعين من عمرها لأعيش معها ذكريات أيام جمعتنا حينما كانت في الثلاثين؟ هل تحتفظ بحيويتها وروعتها؟ هل تحولت إلى إمرأة أخرى، وحيدة، مقهورة؟ هل دخلت السجن؟ هل انكشف أمرها وتعرّضت لمكروه ما على يد إحدى العائلات التي تاجرت ببناتهن؟ بدأت أبحث في استماتة عن رقم الديلر الذي كنت أحمله، حتى عثرت عليه بالصدفة، كان الرقم مدوّناً في أحد

دفاتري القديمة التي كنت أستخدمها إبّان سفري للبعثة، هناك كان، يحلو لي استرجاع هذه اللحظات، لكنني لم أدوّن ما يجعل وفاء تكتشف أسرار تلك الأيام الكاملة، كنت أحاول دفن أسراري بعيداً عنها، لكنها بطريقة أو بأخرى توصّلت لكل شيء، عرفت الحقيقة، ربما رمضان وشي بي، المهم أنّ أحوالها تغيرت فجأةً، لم تعد تلك الحبيبة الجامعية الودودة، تحوّلت إلى زوجة شرسة تعرف كل شيء عن وضاعة زوجها الذي يبحث في الماضي عن امرأة أخرى، تغيّرت وفاء أثناء بحثي عن نادية، تحوّلت إلى نمرة شرسة، فزادني هذا إصراراً على البحث عن نادية، لم يعد لدي ما أخسره.

أيام عديدة اتصلت بالرقم دون فائدة، على الرغم من أنه رقم "ديلر"، أي أنه في الخدمة دائماً، في أي لحظة، إنه "ديلر" فاشل كسول بالتأكيد، ليس نشيطاً مثلي، أنا لم أكن أترك العملاء يتّصلون بي كثيراً هكذا، لم أفكّر في الاتّصال من رقم آخر غير رقم هاتفي المحمول، لم يخطر ببالي أنّ "الديلر" يعرف رقمي ويتركني أنضج على نار هادئة، قبل أن يجيب ذلك النهار. بدأ المكالمة هكذا، بصوت مفعم بالحيوية، قال: "يا صباح الفل يا دكتور مراد...". إذن فهو يعرفني، تجمّدت، لم أستطع الاستطراد. قال هو: "أيوا يا دكتور مراد، أنا معاك، سامعك".

قلت في هدوء يشوبه الارتعاش: "مين؟..."

قال بصوت واثق: "أنا مروان أبو الحبال يا دوك... والله كان نفسي أتعرّف عليك من زمان، عشان كدا كنت دايماً بابعت لك كروتي، بس أنا عارف مزاجك مش في الحشيش، إنما في حاجة تانية".

قاطعته مرتاباً: "أنت عاوز إيه مني؟... لو ما صارحتنيش هبلّغ عنك..."

قاطعني بصوته الهادئ: "اهدأ يا دوك... أولاً أنت عارف أنت عاوز مني إيه، وأنا مستنيك تتصل، السنين دي كلها، كان عندي بس تكليف ثابت، إنك ما تغيبش عن عيني، لحد ما تتصل، لحد ما تحنّ لأيام زمان".

صمت صمتاً كأنه أطول من السنوات التي مضت على جلستي الأخيرة مع إبراهيم سالم في خنادق العذراوات. قال ضاحكاً، متوقّعاً ردة فعلي المتوترة غير المرحِّبة: "صدقني يا دوك، أنا فخور إني مكان حضرتك دلوقتي، أنت مثلي الأعلي، على فكرة، أنا طالب برضه بالجامعة، ومصاحب واحدة غندورة في القسم بتاعك، دي برضه متوصية إن عينها تبقى عليك، لو حابب نتقابل وأوصلك أنا تحت أمرك، شوف تحب إمتى أفوت عليك وأنا أودّيك لستّ الكلّ".

كان يستخدم لغة "سيم" متطورة لم أستخدمها من قبل. حدّدت له موعداً جاء فيه واثقاً غير مرتاب، مثلما كنت حينما ألتقي زبائن جدداً. كان "مروان أبو الحبال" هو نفسه الشاب العابث الذي يجالس الفتاة المثيرة التي تعضّ شفتيها في محاضراتي. صافحني بحيوية، عروق ساعديه نافرة، تدلّ على حيوية وقوة تفيض من جسده، وبريق عينيه وإيماءاته المتكررة كلما تحدث، كأنه يشير لمرافقين وهميين أن يتحركوا أو يقبلوا نحوه. لم يكفّ مروان عن الحديث بينما يقودني بواسطة سيارته عبر شوارع كثيرة. خرجنا من منطقة "بين السرايات"، ابتعدنا عن مصنع البيرة وجامعة القاهرة، توغّلنا في الشوارع المؤدّية إلى ميدان

التحرير، كانت لافتات تأييد المرشح المحسوب على جماعة الإخوان المسلمين، محمد مرسي، تنتشر في كل مكان، تقاومها لافتات منافسه أحمد شفيق المحسوب على النظام القديم. يقول مروان ضاحكاً: "النظام اتغيّر يا دوك. تفتكر مين هيكسب في الانتخابات دي، أنا لسة عيّل صغير مفهمش زيك برضه، بس منزلتش الثورة، أنت نزلت الثورة ولا شوفتها فيديو؟..."

وأطلق ضحكة مجلجلة ذكّرتني بضحكة نادية. منذ التقينا لم يذكر اسمها، إنما اكتفى بقوله: "هوديك لستّ الكل"، لم أسأله عن نادية، ولم يسألني لماذا لم أسأله. قلت له فجأةً: "ليه كنت بتبعت لي كروتك، ليه ما ظهرتش، هي ما طلبتش تشوفني؟".

صمت، شعرت أنه يتردد في الرد، كأنّ جعبته خالية من الإجابة أو كأنه غير مخول له بالرد على هذا السؤال. قال فجأةً: "هي خايفة عليك، حست إنك هتتأذى لو اتّصلت بيك، خصوصاً إن الدكتور رمضان حذّرها، قال لها إنها هتهدم حياتك. على فكرة، رمضان ما بطلش حشيش السنين دي كلها، دا أحسن زبون عندنا".

ظللت صامتاً، كنت أشعر بدوار، لكنني تماسكت، بينما أعاود السؤال: "والشغل؟... البنات؟... بطلت ولا لسه بتجوزهم؟...".

هزّ رأسه مبتسماً، بينما ينتظر في إحدى الطرق مرور مظاهرة من المظاهرات المندِّدة بالفلول وعودة النظام القديم في حال انتخاب شفيق، ثم التفت إلي: "المصنع اتقفل بعد ما اتباع للشركة الهولندية، جامعة القاهرة خدت الأرض، الخنادق اتحولت لأطلال، عم إبراهيم تعيش انت، بس كل شرايط الفيديو اللي كان مصورها لسه مع ست

الكل، أنا باسمع حكاوي عن المكان دا، حكاوي أقرب للآساطير...
مش عارف حضرتك ممكن تكون تعرفها، ولا معندكش فكرة...".

إبراهيم مات، فكيف حالها الآن؟ كيف تعيش نادية؟ هل تخلّى عنها قائده السابق أم تزوجها بعد وفاة إبراهيم؟ قاطع مروان أفكاري قائلاً: "بيقولوا يا باشا إن المكان دا... الخنادق اللي في المصنع، استخبّى فيها الثوار فى التمنتاشر يوم، من ٢٨ يناير لحد ما مبارك وقع في ١١ فبراير، بيقولوا كمان أن الداخلية عملت عليهم كماشة وقلبت ليل "بين السرايات" لنهار، المتظاهرين اتزنقوا في كماشة الأمن المركزي، دخلوا المصنع المهجور، ما تعرفش بقى يا دوك مين دلّهم على الخنادق والسراديب اللي فيه، بس المتظاهرين دول عيال بتقرأ كويس، غطسوا في أنفاق المصنع وطلعوا من الناحية التانية، في ميدان التحرير، بس مين دلّهم على سكة الخنادق؟ لو نزلت أنفاق المصنع هتلاقيهم كتبوا على حيطانها شعارات الثورة: عيش، حرية، عدالة اجتماعية، وغيرها من الشعارات. أنت تعرف حكاوي تانية؟ أكيد تعرف، أصل ست الكل مش عاوزه تحكي لي".

كنا قد وصلنا في هذه اللحظة منطقة مصر الجديدة، توقف بسيارته بجوار عقار في منطقة هادئة مطلة على "الميريلاند"، التفت نحوي وهو يدعوني لمغادرة السيارة قائلاً بابتسامة متّسعة: "ست الكلّ... مستنياك".

القاهرة، ١٨ يناير ٢٠١٣

مراجع وشكر

أنا مدين بشكر عميق لأصدقاء وكتب ألهموني وساعدوني بملاحظاتهم القيمة حتى خرجت الرواية إلى النور بهذا الشكل النهائي، بما تحويه من قصص ووقائع وأحداث مستوحاة من الخيال، ليس فيها شخص حقيقي واحد، ماعدا مصنع البيرة الموجود حالياً في منطقة "بين السرايات" بسمته الأثري المهيب الذي كان سبباً في كتابة هذا العمل.

أما الأصدقاء الذين أبدوا ملحوظات مهمة فهم: الناقدة المصرية شيرين أبو النجا، والصديقان المصريان، الروائي الشاب علي سيد علي والشاعر الشاب محمد رياض، والصديق الناشر شريف إسماعيل بكر (دار العربي للنشر)، والشاعر والصحافي المصري سيد محمود الذي أمدّني بإصدارات تاريخية مهمة، كذلك وزير الثقافة الأسبق الدكتور عماد أبو غازي الذي خصص من وقته وجهده لمساعدتي في البحث عمّا ينقصني من تفاصيل تخصّ صناعة المشروبات الروحية، وكذلك تاريخ مصنع البيرة والجالية اليونانية فى مصر، والدكتورة سهير حواس، المسؤولة بجهاز التنسيق الحضاري في مصر، التي أمدّتني ببعض المعلومات التي تخصّ مصنع البيرة. كما استعنت بكتب عديدة في

استكمال غزل الثوب الخيالي للعمل، كان معظمها يفتقد – للأسف – لمعرفة أسرار خنادق مصنع البيرة، مما جعلني حرّاً في تحريف وقائع من الخيال، حيث اعتمدت على حوادث بدأت تشوب المجتمع المصري لبيع الفتيات والإتجار بهن، وتبقى الحقيقة الوحيدة في هذه الرواية هي ما يتعلق بخصخصة المصنع وبيعه مرتين، عامي ١٩٩٧ و٢٠٠٢.

بعد أن أصبح عاملاً فيه قرّر إبراهيم سالم، المجنّد السابق في الأمن المركزي، أن ينهب مصنع البيرة. لكن أطماعه لا تتوقّف هنا، فيتعاون مع المومس ناديا وأستاذ التاريخ رمضان لبيع المصنع الذي يختزل تاريخ مصر الحديث بمبلغ ٣٠٠ مليون جنيه. يجنّد جاسوساً له داخل المصنع لمعاونته على إتمام صفقة الخصخصة وصولاً إلى البيع النهائي. يسمع مراد الطالب الجامعي أصوات العمال الذين يهتفون ضدّ بيع مصدر رزقهم، لكن ماذا بإمكانه أن يفعل؛ فهو جزء من الصفقة بحكم علاقته القديمة بالمافيا السارقة.

رواية شيّقة تروي تاريخ مصر الذي تمّ نهبه بانتظام على يد المستثمرين الجدد، حلفاء النخبة الحاكمة. هؤلاء لم يعلموا أن الخنادق التي حفرها الأجانب، عندما بنوا المصنع التاريخي، سيعبر منها شباب ثورة ٢٥ يناير إلى ميدان التحرير.

وجدي الكومي روائي وقاص مصري وصحافي في جريدة «اليوم السابع» المصرية. صدر له في الرواية «شديد البرودة ليلاً» و«الموت يشربها سادة»، ومجموعة قصصية بعنوان «سبع محاولات ... السور».

DAR AL SAQI
دار الساقي

ISBN 978-614-425-736-4

